أحمد المهدي

سيرة مؤسس الحركة الأحمدية
لتوحيد الأديان في الإسلام

تأليف

إيان آدامسون

ترجمة: فجر عطايا

أحمد المهدي

الطبعة الأولى: ١٤٣٥هـ الموافق لـ ٢٠١٤م

Aḥmad Al-Mahdī

Arabic Translation of

Ahmad The Guided One

Written by:
IAIN ADAMSON

Translated from English by: Fajar Attaya

First Published in UK in 2014

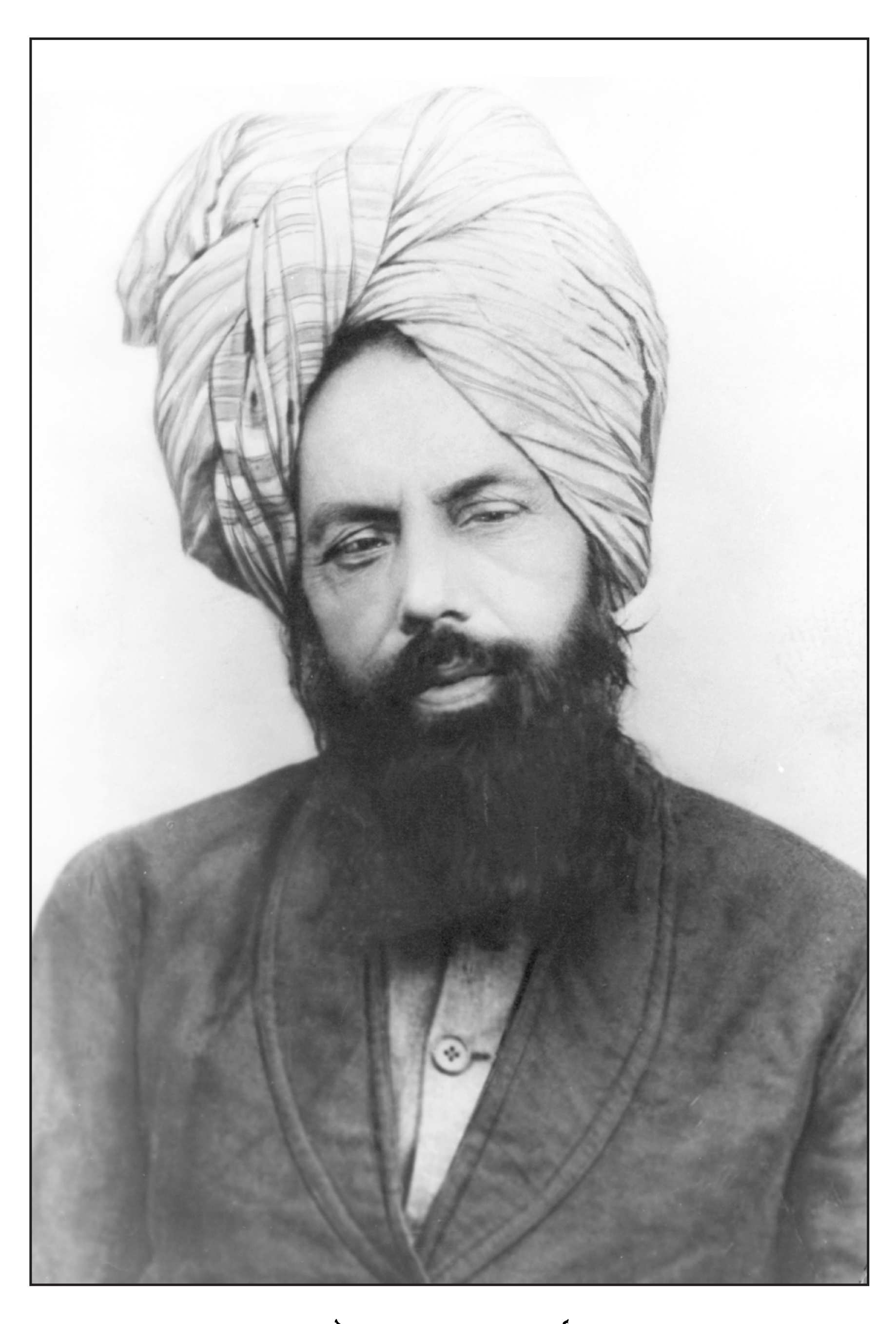
Published by:
Islam International Publications Ltd.
Islamabad, Sheephatch Lane
Tilford, Surrey, GU10 2AQ
United Kingdom

Printed in the UK at:

For further information please contact:
Phone: +44 1252 784970
Fax: +44 1252 781692
www.islamahmadiyya.net

Cover Designed by: Mirza Nadeem Ahmad

ISBN: 978-1-84880-444-9

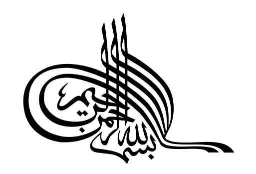


سيدنا مرزا غلام أحمد القادياني عليه الصلاة والسلام

المسيح الموعود والإمام المهدي

فهرس المحتويات





نحمده ونصلي على رسوله الكريم

مقدمة المترجمة

الكتاب الذي بين أيديكم هو ترجمة من الإنجليزية لكتاب (Ahmad the Guided One) لمؤلفه (إيان آدامسون)، الذي يدين بالمسيحية البروتستانتية. ويتناول بإيجاز وتركيز حياة حضرة مرزا غلام أحمد عليه السلام مؤسس الجماعة الإسلامية الأحمدية الذي نعتقد به نحن المسلمين الأحمديين مهديًا ومسيحًا موعودًا. ولأن الكاتب لم يكن مسلما ولم يعتقد بالطبع في مهدوية حضرة غلام أحمد عليه السلام؛ فهو مع احترامه لكل الأنبياء والصحابة لم يستعمل العبارات الإسلامية كالصلاة على النبي الأكرم صلى الله عليه وسلم وعبارة "عليه السلام" في حق الأنبياء والمسيح الموعود أو عبارات "رضي الله عنه" في حق الصحابة الكرام رضي الله عنهم أجمعين. وحفاظًا على أمانة النقل قدر المستطاع فقد خلَتْ الترجمة من تلك العبارات إلا ما كان في اقتباس على لسان متكلم مسلم.

من جهة أخرى لم يذكر الكاتب في اقتباساته عن الرسول صلى الله عليه وسلم والمسيح الموعود عليه السلام المصادر التي نقل منها، لذا فقد بحثت قدر المستطاع في كتب المسيح الموعود عليه السلام عمَّا يطابق ما أورده من مقتبسات. أما بخصوص

الأحاديث النبوية الشريفة فقد ذكرها الكاتب بمعناها وأوردها في الترجمة بنصِّها. وفيما يخصّ بعض الأشخاص الذين اقتبس منهم، اكتفى المؤلف بقول عالم مسلم أو مؤرخ مسلم، فلم يتيسر معرفة اسم الشخص الذي أشار إليه.

نُشر كتاب السيد أدامسون في مطلع التسعينات من القرن الماضي، ولهذا يجب مراعاة أن المعلومات التي تحتوي أرقامًا عن الجماعة الإسلامية الأحمدية؛ كعدد أفرادها وبلدان انتشارها قد اختلفت عمّا هو موجود حاليًا.

لقد أصدرت الجماعة الأحمدية كتبًا أخرى تبحث في سيرة حضرة مرزا غلام أحمد عليه السلام تتناول السيرة بكثير من التوثيق والتفصيل، ولكنّ هذا الكتاب يتميز بأن مؤلفه مسيحي يسرد حياة شخص لفت نظره وأثار فضوله، وبلا شك فهو لا يستهدف الدعوة والتبليغ بالأحمدية. وقد تناول السيرة بحرفية وحياد وموضوعية، واستطاع أن يبرز الأحداث ويقدمها للقارئ بأسلوب حديث موجز قريب من القارئ العادي غير المتخصص. وقد بذل من البحث ما يثير الإعجاب، كما صاغ الأحداث بطريقة مؤثرة تترك في نفس القارئ أثرا لا يُنسى.

لقد راجع هذه الترجمة زوجي الأستاذ تميم أبو دقة، كما ساهم في إخراج هذا العمل كل من السـادة الأفاضل: المهندس هاني طاهر، د. وسام البراقي، عبد المجيد عامر، محمد طاهر نديم وعبد المؤمن طاهر. فجزاهم الله أحسن الجزاء.

أسأل الله تعالى أن تترك هذه الترجمة العربية لهذا الكتاب أثرا طيبا على القارئ العربي، وأن تكون سببا للتعرف والاقتراب أكثر من شخصية المسيح الموعود عليه الصلاة والسلام الذي هو بحق (أحمد المهدي). آمين.

فجر عطايا

٢٠١٤م

شكر وامتنان

انطلاقا من امتناني العميق، أرغب في التعبير عن شكري للكثيرين الذين ساعدوني في رحلتي البحثية حول هذا الكتاب، حيث جُلتُ منطلقا من مكتبات الهند وباكستان وبريطانيا، ورحلتُ بعيدا قاصدًا القرى والبقاع النائية التي يتجنبها السياح عادةً، واطلعتُ على آثار لم يشاهدها إلا القليلون، كما تحدثتُ وقابلتُ خلال سفري أناسًا كثيرين من بيئات متنوعة. لقد أخذني البحث في سيرة ميرزا غلام أحمد إلى المنازل المنيفة كما جعلني أزور البيوت المتواضعة المتلاصقة، واضطررتُ في بعض الأحيان أن أتجول مصحوبا بحارس شخصي مسلح ببندقية آلية — مع أني أبحث في سيرة رجل سلام!

وقابلتُ في أبحاثي كذلك لاجئين أحمديين ممن وجدوا الملاذ الآمن في أوروبا والولايات المتحدة الأميركية وكندا. لذا فإنّ التصريح بأسمائهم علانية في هذا الكتاب يعرض أمنهم للخطر، وعليه فقد آثرتُ ألا أذكر أي اسمٍ منهم دون أن يقلل هذا من عميق امتناني وشكري لهم.

ولابد من التنويه كذلك إلى أنّني قد كتبتُ هذا الكتاب للقارئ الغربي مما استلزم غياب الاصطلاحات والتعابير الإسلامية، ولأني بنفسي لست مسلما فلم أوردها، ولكني لا أخفي أنّ عيناي قد بدأتا بالتفتح على عظمة الإسلام منذ بلوغي سنّ الثامنة عشرة عندما خدمتُ في مالاوي تحت إمرة الجيش النظامي– وما كنت قد عرفت قبلها سوى معتقدات الكنيسة البروتستانتية الاسكتلندية التي آمنت بها بقوة– ومنذ ذلك الحين آمنت بالحق في التنوع الدينيّ وحرية العبادة.

أنا أدرك تماما أنّ هذا الكتاب قد يكون ممنوعا في بعض البلدان، لأن الجماعة الإسلامية الأحمدية محظورة من قبل بعض الحكومات فيها على اعتبارها جماعة كافرة، إلا أن الحظر لا يجدي أبدا؛ فوحدها المعرفة الكاملة تعين البشرية على درب الوصول إلى الله.

إيان آدامسون

مقدمة

الوعد الإلهي

من الثابت عند المسلمين، أنّ النبي محمد قد أخبر أتباعه وصحابته عن مسيح سيأتي بعده في آخر الزمان، يكون من أهمّ مهامه إعادة إحياء الإسلام الحقيقي بعد فترة انحطاط تمر به، وأن يعمل على هداية العالم أجمع إلى هذا الدين، وتوحيد جميع الأديان تحت رايته.

وقد حدث في عام ١٨٨٩ في مدينة لُدهِيانة الهندية الواقعة على أطراف إقليم البنجاب - التي لم تكن مدينة مشهورة في ذلك الزمان على الرغم من ازدهارها التجاري- أنْ أعلن مسلمٌ مخلص اسمه مرزا غلام أحمد قبول البيعة من أتباعه الأوائل، وأعلن في العام التالي أن الله تعالى أوحى إليه بأنّ المسيح الناصري لم يمت على الصليب، وإنما أنزله بيلاطس البنطي حيًّا عن الصليب وأنقذه حواريوه، وبعد علاجه وتعافيه رحل مهاجرًا إلى الهند حيث أكملَ رسالته؛ أي هداية قبائل بيت إسرائيل الضالة كما هو مذكور في الكتاب المقدس- ومات المسيح هناك. كما أعلن مرزا غلام أحمد أنّ الله تعالى أوحى إليه بأنه هو نفسه مسيح آخر الزمان الموعود وأنّ مهمته هي توحيد كل الأديان تحت راية الإسلام، وأعلن أن الله تعالى قد أخبره بأنّ رسالته ستكتمل وتنتشر وأنّه تلقى وحيًا يؤكد هذا المعنى، وكان هذا الوحي:"*سأبلغ دعوتك إلى أقصى أطراف الأرض*".

في الواقع كان ذلك الإعلان باعثا على الغرابة والدهشة لأنه صدر من شخص لم يتجاوز عدد أتباعه في ذلك الوقت الخمسين فردًا، حتى إنّه هو نفسه لم يكن مشهورا بين الناس. ولكنّ الأيام اللاحقة وما حدث فيها قد أذاعت صيته ونشرت كتاباته واستقطبت إليه الأنظار والألباب في كلّ العالم،

حتى وصل صيته إلى الفيلسوف الروسي الكونت ليو تولستوي الذي قال معلقا على أحد كتبه بالعبارات التالية:"إنّه عميقٌ جدًا، وصادقٌ جدًا".

أما اليوم، فإنّ الجماعة الإسلامية الأحمدية تُعدُّ من أكثر الحركات الدينية قوة ونشاطا على مستوى العالم أجمع، فالأتباع الأربعون الأوائل أصبحوا اليوم يبلغون ما يربو على الاثني عشرة مليونا بزيادة حسابية على مدى قرن من الزمان لم تُشهد منذ ظهور الإسلام. واليوم، نجد في أتباع غلام أحمد فائزًا بجائزة نوبل، ورئيسًا سابقًا للجمعية العامة للأمم المتحدة، ووزراء في الحكومة، وجنرالات في الجيش والقوات الجوية، وأطباء، وعلماء، ومليونيرات، والملايين من الناس العاديين من بلدان عديدة من إندونيسيا وأميركا ومن بولندا والصين ومن إسبانيا ومن كل البقاع المعمورة. لقد تأسست الحركة الإسلامية الأحمدية في ما يزيد على ١٢٨ بلدًا بفضل الجهود الدعوية الهائلة للجماعة الأحمدية؛ حيث تمت ترجمة معاني القرآن الكريم ونشره كاملا أو معظمه إلى ١٢٠ لغة منها الروسية والصينية، وبنيت المساجد في ١٠٠ بلد بما فيها بلدان العالم الثالث، حيث كانت الخدمات الطبية والتعليمية من مستشفيات ومدارس ملازمة للدعوة الأحمدية في تلك البلدان، واستقدمت الجماعة لأغراض خدمة الخَلْق في تلك المرافق الأحمديين من أطباء ومهندسين زراعيين وصحافيين وعلماء وفدوا من أوروبا وأميركا الشمالية للعمل فيها طوعا ودون مقابل مادي، إذ إنّ كل أحمدي مهما كان عمره أو منصبه يعدُّ نفسه مبشرا للدعوة الأحمدية وجاهزا لتلبية نداء خلفاء المسيح الموعود ومستعدا للخدمة حيث تقتضي الحاجة.

وفي هذا الكتاب، أتناول سيرة حياة مرزا غلام أحمد مؤسس هذه الجماعة من خلال البحث في حياته وإلهاماته ونبوءاته ومعجزاته، بما في ذلك كشفه لقبر المسيح الناصري في كشمير والمقتبسة من كتبه ومن الوثائق المعاصرة ومن شهادات أصحابه. كما تعرض هذه السيرة بعضا من تفسيراته لآيات قرآنية تُنبئ عن مجيء المسيح الموعود وآراء العلماء والدارسين المسلمين فيها عبر التاريخ.

الفصل الأول

البيـــعة

بلغتْ البلدةَ أخبارُ وصول غلام أحمد إليها، فتدفقت أفواج الناس عليها للحال بأعداد كبيرة وجموع غفيرة متشوقة لرؤيته مالئين البلدة بأصواتهم وصياحهم. جاء بعضهم بدافع الفضول وحب الاستطلاع، فيما حضر بعضهم الآخر ليسخر ويستهزئ، ومنهم من حضر لمراقبة المشهد في صمت، لكنهم جميعا لم يبرحوا أماكنهم على اختلاف أحوالهم إلى أن أدركهم عصر ذلك اليوم، فخفَتَ الصياحُ العالي وصارت الأصواتُ الصاخبة حواراتٍ ونقاشاتٍ حول ما أعلنه غلام أحمد وما ادّعى أنه مأمور من عند الله تعالى بتبليغه للناس.

حتى الناس الذين جلسوا في مقاهي البلدة أو في بيوتها تناولوا أيضا موضوع غلام أحمد وأمره. وكأي شأن في الدنيا لابد أن تتباين الآراء حوله، وبالطبع لم يتفق الوافدون إلى البلدة على رأي واحد حول غلام أحمد ومزاعم دعواه. ولأنّ الأمر خطير ويمس الدين فقد غلب الانفعال وأحيانا الصياح على حوارات الناس ومناقشاتهم. أما أتباع أحمد فكانوا متكتمين متحفظين ولم يشتركوا مع الجموع في أحاديثهم وصياحهم. لم يتميزوا عن أبناء بلدهم في المظهر أو في اللباس، غير أن الناظر إليهم كان يعرفهم عند موعد الصلاة حيث كان يتقدم الشبان منهم ليشكلوا حاجزا بشريا حول زعيمهم عندما يتوجه للصلاة في المسجد لمنع أي شخص من التعرُّض له أو محاولة إيذائه.

في ذلك اليوم، جلس أحمد منفردا في غرفة صغيرة داخل منزل متواضع ذي فناء صغير كان قد نزل فيه عند أحد أتباعه، كانت غرفة بسيطة تطل على الشارع يستخدمها أهل البيت في الأيام العادية للخَبْـــز. أما أتباعه

فجلسوا يرتقبون وقد افترشوا ممر المترل وخارجه على الطريق. ثم ما لبث أن دخل غرفته أول شخص من أتباعه، رجل مهيب طويل القامة ذو لحية. إنه الطبيب الخاص السابق للمهراجا وعالم ذو سمعة طيبة. في تلك الغرفة المتواضعة البسيطة جلس أحمد على قطعة سجاد بسيطة وهو على وشك أن يعلن لأتباعه وللعالم أنه المسيح الموعود، وكان الطبيب المهيب هو أول من سيأخذ عهد البيعة منه. مدّ الطبيب يده اليمنى فيمَ مال غلام أحمد إلى الأمام وأمسك بيد الطبيب واضعا يده اليسرى تحت كوعه الأيمن ليسندها — لأنّ يده اليمنى ضعيفة قليلا جراء إصابة حدثت له في صغره.

"إني أتوب اليوم على يد غلام أحمد من كل ذنوبي."

بهذه الكلمات بدأ الطبيب يتلو بلسانه ويقر بقلبه عهد بيعته لأحمد، ولما أتمّ باقي كلمات العهد رفع غلام أحمد يديه بالدعاء العميق وحذا الطبيب حذوه، وبالدعاء والابتهال اختتمت مراسم أول بيعة لغلام أحمد.

في ذلك اليوم كرر أربعون شخصا ما قام به الطبيب، دخلوا في بادئ الأمر كل بمفرده ليبايع أحمد ثمّ صاروا يدخلون عليه في جماعات، وهكذا إلى آخرهم إلى أن تمّت البيعة الأولى في الثالث والعشرين من شهر آذار/مارس عام ١٨٨٩.

ومنذ ذلك اليوم وعلى امتداد القرن التالي، استشهد الكثير من مبايعي غلام أحمد في الحرب التي شُنّت عليهم باسم الدين، التي لم يشهروا فيها سلاحا سوى سلاح القلم في سبيل هدفهم الذي هو توحيد جميع الأديان تحت الدعوة الإسلامية الأحمدية ونشر الإسلام بسلام في كلّ العالم.

استشهد بعضهم خلال القرن التاسع عشر تحت تعذيبٍ بالرجم حتى الموت، وقضى بعضهم على يد جموع الغوغاء التي هيجها معارضوهم وقاموا للأسف وبمنتهى الوحشية بتقطيعهم إربا والتمثيل بجثثهم. أما الحكومات، وخاصة في باكستان، فقد سنّت تشريعات كثيرة ضدهم، ونعتوا من قبل

المسيحيين والمسلمين على السواء بالكفار! غير أنّ كل هذا لم يفتّ في عضد حركة التبشير الأحمدية.

في الحقيقة، لم تستهدف بيعة أحمد أبدا الانشقاق والانفصال عن بقية المسلمين أو المواجهة مع الكنيسة المسيحية، إلا أنّ إعلان غلام أحمد الذي أدلى به في العام التالي هو الذي جلب المواجهة، فقد أعلن أحمد بأنه المسيح الموعود الذي ينتظره المسلمون والمسيحيون، وأنّه مبعوث من عند الله لكل الناس من كافة الأديان، وبأن الله أخبره بأنّ المسيح الناصري — أي يسوع عند النصارى- لم يمت على الصليب، وأنه أوحى إليه أيضا في هذا الموضوع بأنّ عليه أن يخوض جهادا بالكلمة لدعوة العالم للإسلام، وأنّ أتباعه هم صفوة مختارة اصطفاهم الله تعالى وسيفوقون العالم بكل الطرق:

"إنّ الله تعالى أراد أن يؤسس هذه الجماعة ويمنحها الازدهار ليظهر جلاله وقدرته، حتى تنشر حب الله والتوبة النصوح والطهارة والبر الحقيقي والأمن والصلاح ومواساة بني البشر. فإنّ هذه الجماعة ستكون جماعته المختارة، وسوف يؤيدهم الله تعالى بروح منه، ويطهرهم."

كما قال أحمد أنّ الله عزّ وجلّ أخبره بالوحي أنّ جماعته سوف تزدهر وتكثر:

"*يضاعف هذه الجماعة أضعافا كثيرة حتى يدخل فيها ألوف من الصادقين، وهو بنفسه سوف يربيهم وينميهم حتى إن كثرتهم وتقدمهم سوف تبهر الأبصار*".

أخذ غلام أحمد عهد البيعة كما سلف لأول مرة من أتباعه في مدينة لُـــــدهيانا في إقليم البنجاب الواقع في الشمال الغربي من القارة الهندية، وكان يقطن لدهيانا إبانها عشرون ألفا، وبعد فترة قصيرة أصبحت ملتقى هاما لطرق السكة الحديدية مع أنها كانت مجهولة منسية منذ قرن قبل ذلك

لباقي العالم وللهند على حد سواء، حتى أعلن غلام أحمد من تلك المدينة بأنّ دعوته التي شرع في تأسيسها سوف تنتشر في كل بقاع العالم:

"فسوف ينيرون أركان العالم الأربعة بنورهم مثل السراج الموضوع في المكان العالي، ويكونون نموذجا مثاليا لبركات الإسلام"

وقد أكّد أحمد من هناك أنّ أتباعه سيكونون الجماعة المختارة، إذ يقول إنّ الله تعالى أنبأه بهذا:

"وإن الله تعالى سوف يجعل الأتباع المخلصين لهذه الجماعة فوق الفرق الأخرى من حيث البركات كلها وسوف يولد من بينهم دائما وإلى يوم القيامة رجال يكتب لهم القبول والنصرة. هذا ما أراد الله عز وجل، وإنّه لقادر يفعل ما يشاء".

وهنا لابد من الإشارة إلى أنّ مضمون هذه الكلمات هو مسألة جوهرية يؤمن بها أتباع الدعوة الأحمدية.

أوّل ما يلفت نظر الرائي إلى صاحب الدعوة الأحمدية أي غلام أحمد هو هيبته، فمن حيث الهيئة فهو رَبْعة من الرجال يبلغ طول قامته نحو ١٧٠ سنتيمتر، ذو لحية سوداء مشوبة بالشيب الذي تسرب إليها عند بلوغه الثلاثين لا أكثر ولـمّا بلغ الخمسين كانت لحيته بيضاء تماما، عيناه داكنتان غضيضتا البصر دوما. عُرفَ عنه عذوبة منطقه ودماثة خُلُقه. ولكنّ أحد أتباعه ذكر رد فعل له يكشف جانب قوة لا يظهر منه إلا إذا مُسّ الدين، وقد حصل هذا في سنين لاحقة حين وصلته أخبار حول معارضيه الذين كانوا يحاولون النيل منه عن طريق استصدار حكم قضائي في وقت متأخر من يوم السبت بحيث يتم اقتياده – وفق خطتهم– إلى السجن فيبقى هناك طيلة العطلة الأسبوعية (أي يوم الأحد) دون أن يكون هناك مجال للاستئناف أو دفع الكفالة لأن المحكمة مغلقة بطبيعة الحال يوم الأحد، يومها صاح غلام أحمد بصوت مدوي "هل يظنون أنهم قادرون على حبس جَرِيِّ الله؟" لم يكن

أحمد مهتما لنفسه وإنما كان غضبه في الله ومن أجله. في تلك القضية دُحضت جميع الادعاءات الملفقة ضده والتي اهّم فيها زورًا بالتخطيط لقتل قس مسيحي، حيث اعترف المجرم الحقيقي لاحقا بأنّه دُرِّب لتلفيق الدعوى على يد القس المسيحي صاحب الدعوى، ما حدا بالقاضي أن يرفض القضية تماما بدون أدنى ريب. ونتيجة ما آلت إليه القضية وظهور الحقيقة فقد أخبر القاضي غلام أحمد أن بمقدوره مقاضاة القس رافع الدعوى بتهمتي الحنث باليمين ورفع دعوى كيدية، وأنّه يمكن للمحكمة منحه الإذن لهذا بكل سهولة وعلى وجه السرعة لأن هذا حق قانوني له في تلك الحالات، فأجاب أحمد:

"لن أفعل، وسينظر الرقيب الأعلى عز وجل في أمره".

لم يكن المعارضون الآخرون محظوظين مثل القس المسيحي في السكوت عنهم، إذ حدث أنْ تنبأ أحدهم[1] بموت غلام أحمد، فلم يسكت أحمد عنه وإنّما أعلن أنّه لن يموت وإنما سيموت صاحب النبوءة الكاذبة ميتة بشعة. وقد تحققت نبوءة أحمد!

[1] يقصد ليكرام الفيشاوري الهندوسي. (المترجمة)

الفصل الثاني

إشـــارات ســـماوية

ولد غلام أحمد يوم الثالث عشر من شهر شباط/فبراير عام ١٨٣٥ في قرية قاديان في إقليم البنجاب في الهند، وهو الابن الثاني لمرزا غلام مرتضى. وُلد توأما لأختٍ ما لبثت أن فارقت الحياة بعد بضعة أيام من ولادتها. وقد وافق موعد ولادته مناسبة ابتهاج للعائلة حيث انتهت الضائقة المالية التي عانوا منها لوقت طويل، كما أُعيدت إليهم في تلك الفترة نفسها خمس قرى من أملاكهم التي صودرت منهم سابقا إبـــان سيطرة السيخ على البنجاب.

بالإضافة إلى ذلك، جاء موعد ولادة غلام أحمد موافقا لما ذكرته النبوءات المتواترة في الأحاديث النبوية والآثار عن زمن ولادة المنتظر الموعود، حيث شاع بين المسلمين على اختلافهم أنّ (المهدي) سيظهر في بداية القرن الرابع عشر الهجري والذي يوافق تقريبا نهاية القرن التاسع عشر الميلادي.

ومن ناحية أخرى أشار يسوع في الإنجيل إلى أن وقت المجيء الثاني له سيكون زمن حروب وأوبئة وبلايا عامة غير مسبوقة، وشهد التاريخ بالفعل بعد إعلان غلام أحمد أنه المسيح الموعود اندلاع الحرب العالمية الأولى وتفشي وباء الإنفلونزا الإسبانية التي قتلت الملايين والتي كانت مصداقا لهذه الإشارات. كما وتتفق العديد من الطوائف المسيحية على أنّ الفترة الممتدة من القرن التاسع عشر إلى القرن العشرين هي الفترة التي سيعود فيها يسوع إلى العالم ثانية ودلّلت هذه الطوائف على معتقداتها بالإشارات المتعددة والنبوءات التي ذكرتها الكتب المقدسة المسيحية، والتي جاء الإسلام وصدّق عليها.

وفقا للمسلمين، أوضح محمد نبي الإسلام جليًّا العلامات التي يُعرف بها مسيح آخر الزمان الموعود، وهذا أمر ثابت وموجود في الأحاديث المتواترة شفهيا عنه ودونت كتابيا بعد وفاته بعدة سنين. فيما يتعلق بعلامات المهدي ثبت عن نبي الإسلام قوله:" *إنّ لمهدينا آيتين لم تكونا منذ خلْق السماوات والأرض، ينكسف القمر لأول ليلة من رمضان وتنكسف الشمس في النصف منه*" [سنن الدارقطني رقم١٨١٦].

أمّا الإنجيل فقال عن المجيء الثاني للمسيح أي ابن الإنسان:" *وَلِلْوَقْتِ بَعْدَ ضِيقِ تِلْكَ الأَيَّامِ تُظْلِمُ الشَّمْسُ، وَالْقَمَرُ لاَ يُعْطِي ضَوْءَهُ، وَالنُّجُومُ تَسْقُطُ مِنَ السَّمَاءِ، وَقُوَّاتُ السَّمَاوَاتِ تَتَزَعْزَعُ.وَحِينَئِذٍ تَظْهَرُ عَلاَمَةُ ابْنِ الإِنْسَانِ.*" [إِنْجِيلُ مَتَّى ٢٤ : ٢٩-٣٠]

عادة يحدث خسوف القمر في الثالث عشر أو الرابع عشر أو الخامس عشر من الشهر القمري، بينما يحدث كسوف الشمس في السابع والعشرين أو الثامن والعشرين أو التاسع والعشرين من الشهر القمري، فتكون الشروط التي ذكرها نبي الإسلام في الحديث السابق تعني أن القمر يجب أن ينخسف في الثالث عشر من الشهر القمري (ذكر في الحديث لأول ليلة أي أول ليلة من ليالي خسوف القمر) وأن تنكسف الشمس في الثامن والعشرين (ذكر الحديث أن كسوف الشمس في النصف منه أي في نصف أيام كسوف الشمس) من الشهر القمري نفسه وهنا يجب أن يكون هذا الشهر هو رمضان.

إن الخسوف والكسوف يحدثان وفق قوانين الطبيعة، فالخسوف ينتج عن مرور القمر في ظل الأرض بينما تنكسف الشمس عندما يحجب قرص القمر ضوء الشمس عن الأرض، وكلاهما يحدث عندما تكون الشمس والقمر والأرض على خط واحد فعلا أو تقريبا. ومما تجدر الإشارة إليه هو أنّ هذه العلامات ليست دليلا مبشرًا بميلاد المهدي المنتظر وإنما هي علامات على

بعثته، وقد حدث بالفعل أنْ خسف القمر في الثالث عشر من رمضان ١٣١١ هجري (الموافق ٢١ آذار/مارس ١٨٩٤) وأنْ كُسفت الشمس في الشهر نفسه يوم الثامن والعشرين من رمضان (الموافق ٦ نيسان/أبريل ١٨٩٤) وقد شوهد كلاهما في قاديان.

وفي السنة التالية تكررت الظاهرة نفسها في القارة الأميركية الشمالية لتكون العلامات المحددة من قبل النبي محمد قد تحققت بحذافيرها بعد خمس سنوات من إعلان غلام أحمد بأنه الإمام المهدي المنتظر مجيئه.

ومن المعروف أن هذه الظواهر تحدث كل فترة من كل قرن وليس حدوثها هو الأمر الخارق للعادة كما يقول غلام أحمد بنفسه، ولكنّ الذي يجعل حدوثها أمرا خارقا وعلامة لصدق المهدي هو تزامنها مع إعلانه أنه المسيح الموعود. لقد أُوحِي لغلام أحمد – على حد قوله– بأنه هو أيضا الموعود الذي أنبئ عن مجيئه ليس فقط في الإسلام أو المسيحية واليهودية وإنما كذلك في جميع الديانات الرئيسة في كل العالم كالبوذية والهندوسية والسيخية إذ إنَّ وحيًا صريحًا من الله تعالى أخبره:" *جَرِيُّ الله في حلل الأنبياء*"، ويعلن أحمد مرارا أنه لم يكن شيئا، وأنه لا ينسب الفضل لنفسه، ولكنّ الله تعالى قد أنعم ومَنّ عليه بفضله الإلهي الخالص لتقواه واتباعه الكامل لمحمد حتى صار الانعكاس الروحاني التام لمحمد. وصحيح أنّ أحمد قد ادّعى النبوة، ولكن ليس نبيا بشريعة جديدة، كما أكدّ مرارا أنّ محمدًا هو آخر الأنبياء التشريعيين، وأنّ مهمته هي إحياء الإسلام وتوحيد جميع الأديان تحت راية الإسلام، ولكنّ هذه المهمة التي قال بأن الله تعالى قد اصطفاه لها من أجل خلاص البشرية قد صعّدت تجاهه عاصفة الشجب والاستياء من قبل المسلمين والمسيحيين والهندوس، إذ أجمع الكهنة والمبشرون المسيحيون ورجال الفتوى والدين المسلمون والزعامات الدينية الأخرى على الحكم التالي: إنّ غلام أحمد ليس مخطئا فقط في ادعاءاته، وإنما هو خادم للشيطان.

كل مسلم في العالم ينتظر المسيح الموعود، وهناك إجماع عام على أنّ عودته ستكون عودة للإيمان الحقيقي وفق الإسلام، غير أنّ العقائد والأديان الأخرى تمسكت بفكرة انغلاق باب الإلهامات والوحي الإلهي وجعلتها عقيدة لازمة على عكس ما يقول به الإسلام الذي لا يقفل هذا الباب أبدا، لذا فإنّ وصولَ معلمٍ مرشَدٍ مهديٍّ من عند الله تعالى متاحٌ فقط وفق تعاليم الإسلام.

إنّ الإسلام هو العقيدة الوحيدة التي تستلزم الإيمان بجميع الأنبياء في كل مكان أو زمان يمكن أن يكونوا قد ظهروا فيه. ليس هذا فحسب، بل إنّ المسلمين مأمورون في القرآن أن يشهدوا: ﴿قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ [البقرة ١٣٧].

أما المسيحية، فقد أوضح يسوع المسيح أن المجيء الثاني سيعني مجيء نبي آخر يكون مكتسيًا روح النبي الأول نفسها وقواه الروحانية، كما كان يوحنا المعمدان المجيء الثاني لإيليا.

إنّ المجيء الثاني أو البعثة الثانية لمعلمٍ عظيم ومرشد ديني يطرح السؤال الذي يثيره الدارسون المسلمون: ما هي رسالة المعلم المنتظر وما هي وظيفته؟ وبما أنّ بعثته قد تنبأت بها كل الأديان الرئيسة في العالم، فهل سيكون هناك معلم مهدي لكل ديانة؟ أم سيكونون مهديين كثرا ولكن رسالاتهم ووظائفهم واحدة؟ إذا كانت رسالاتهم جميعها واحدة فليس هناك حاجة إذاً إلا لمعلم واحد، أما إذا تعددت الرسالات ما يستتبع تعدد المعلمين فهذا أمرٌ لن يكون حافزا على الوحدة والسلام والائتلاف والكمال الروحاني بل على العكس سيكون محرضا على البغضاء والتناحر والعداوة والفوضى.

بالإضافة إلى ذلك، يثار سؤال آخر: إذا كان كل واحد من هؤلاء المعلمين قد جاء ضمن تدبير إلهي يخص دياناتهم، فهل سيتمسكون بالقيم

الأصيلة لمعتقداهم الدينية؟ وإذا حادوا عنها فما هو نطاق مذاهبهم وتعاليمهم الجديدة؟ إنّ أي مقاربة محتملة لهذا التساؤل ستثير مشاكل يصعب حلها. لقد خطَت البشرية بثبات خطوات واسعة في اتجاه وحدة الهدف والمقصد، فكل التطورات الحاصلة، كما يقول الزعماء الدينيون، تشير إلى أن عناية الله تعالى سوف تختار لذلك إنسانًا واحدًا وبهذا يكون المسيح الموعود شخصا واحدا لا مجموعة أشخاصٍ من عقائدَ شتى.

ليس هناك ريب عند المسلمين حول وظائف المهدي والمسيح الموعود ومهامه، فهو عندهم سيُظهِر الإسلام على جميع الأديان حتى تلك التي يعدّها المسلمين عقائد شركية تعبد عدة آلهة أو إلها ذا أقانيم أو حتى آلهة متعددة ولها إله أكبر مثل العقائد الهندوسية والمسيحية. فالمسلمون يحاجون بأدلة عدة على أن المسيح الموعود سيكون من الأمة الإسلامية، فعلى سبيل المثال يحتج المسلمون بعالمية الرسالة المحمدية؛ ولنأخذ مثلا الآيات القرآنية:

﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ﴾ [الأعراف ١٥٩]

﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [سبأ ٢٩]

﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء ١٠٨]

ويحتوي القرآن كذلك، كما يقدمون، على الهداية الشاملة لكل نوع بني الإنسان ولكل وقت كما جاء في الآيات التالية:

﴿رَسُولٌ مِنَ اللَّهِ يَتْلُو صُحُفًا مُطَهَّرَةً * فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ﴾ [البينة ٣-٤]

﴿..إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَى لِلْعَالَمِينَ﴾ [الأنعام ٩١]

﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا﴾ [الفرقان ٢]

يدعي المسلمون كذلك بأنّ القرآن فريدٌ بين الكتب المقدسة، فهو وحده من بين جميع الكتب من بدايته إلى نهايته هو النص الحرفي للوحي الإلهي الذي

ادّعى محمد بأنّ الله تعالى أنزله عليه، ووفقا للقرآن فإنّ كلام الله تعالى محفوظ من التحريف كما قضى الله وبينّ:

﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر ١٠]. إنّ الضمان الإلهي بحفاظة القرآن ليس مقتصرًا فقط على سلامة النص؛ كتب عالم مسلم:" إنها تمتد لكل العوامل التي تؤدي إلى حفاظة القرآن كمصدر كامل للهداية الإلهية لكل نوع بني الإنسان. فعلى سبيل المثال هو ضمان بأنّ اللغة التي نزل بها وحي القرآن أي العربية الفصحى ستظل لغة حية ومستخدمة بحيث لن يكون هناك صعوبة في تفسير وشرح معاني القرآن".

والعربية الفصحى سواء المحكية أو المكتوبة تستعمل اليوم في مناطقَ شاسعة من العالم أكبر بكثير من الرقعة التي استخدمت فيها وقت نزول القرآن وتستعمل من قبل عدد من البشر أكثر بمئات المرات كذلك، كما أنّ نبي الإسلام قد أنبأ بأن الله تعالى سيبعث على رأس كل قرن من بين أتباع النبي من يجدد أمر الدين وفق تعاليم القرآن وتبعا للاحتياجات البشرية في كل عصر، فلا يوجد كتاب مقدس آخر تجتمع فيه حفاظة صحة النص واللغة والتعليم.

بيَّن محمد أنّ نبيا سيظهر من المسلمين ولن يقف عند الدفاع عن الإسلام أمام هجمات المعارضين وأتباع الملل الأخرى، بل فوق هذا سيُظهِر الإسلام على كل الديانات، وبناء عليه فإنّ الإلهامات التي ادعى غلام أحمد أنه تلقاها من الله تعالى ليست بدعا من القول وإنما هي من صميم الإسلام الذي لا يسد باب المكالمة الإلهية. لقد بدأت هذه الإلهامات منذ عام ١٨٧٦ ومع مرور الوقت تواترت وصارت أكثر جلاء، فكل إلهام منها وفق العالم المسلم المشار إليه: " تحقق مضمونه بوضوح وفي وقته المحدد. بعض الإلهامات كان متعلقا بالمستقبل فيتحقق بعضها بين الحين والآخر بعد موته وبعضها الآخر في انتظار التحقق".

الفصل الثالث

زعامات قاديان

كان مرزا غلام مرتضى- والد غلام أحمد - زعيما من زعماء البنجاب وواحدا من كبار ملاك الأراضي والضِيَع في الإقليم؛ إذ يملك أراضي قرية قاديان فضلا عن بيوت في بلدات أخرى، كما شغل غلام مرتضى مقعدًا في مجلس (دربار) أي في بلاط قصر الإمبراطور المغولي وقد استمر له هذا الأمر إبان فترة حكم السيخ والحكومة البريطانية أيضا. وواضح أنّ هذه المترلة لم تعنِ فقط الثراء والمال، وإنما جلبت معها المنصب والسلطة، فأتاحت هذه الظروف لغلام أحمد التعلم في مترله الميسور على يد معلمين عديدين.

يعود النسب النبيل لغلام أحمد إلى مرزا هادي بيك، الفارسي الأصل والذي كان من زعامات آسيا الوسطى. وقد انتقل هادي بيك خلال العام ١٥٣٠ ميلادي تقريبا من منطقة سمرقند مصطحبا عائلته و٢٠٠ من الخدم ونزل في منطقة البنجاب، ثمّ استقر في مقاطعة غورداسبور الواسعة والتي تبعد نحو ٧٠ ميلا شرقا من لاهور، وأسس هادي بيك هناك قرية أسماها (إسلام بور) وحصنها بجدار منيع. كان مرزا هادي بيك سليل (برلاس) عم الامبراطور تيمورلنك أي أنه من سلالة العائلة الملكية التي أسست الإمبراطورية المغولية، لذلك فقد مُنِح مقاطعة ضمت بضع مئات من القرى وعين قاضيا أو حاكما لها، وهكذا أصبحت القرية التي أسسها تعرف باسم قرية (قاضي إسلام بور) ومع مرور الوقت حُذفت كلمة إسلام بور وصار اسمها قاضي ثم قاضيان أو قاديان كما تلفظ هناك.

وعلى مدى القرنين اللاحقين توالت على العائلة النجاحات والإخفاقات؛ فمن جهة حين توسعت الإمبراطورية المغولية وشملت معظم الهند لم تحصل

العائلة على مزيد من الأراضي لأنها لم تلعب دورا بارزا في الانتصارات التوسعية وبالتالي لم يزدد حظها في الثراء في تلك الفترة. ولـــمّا نخر الضعف الإمبراطورية المغولية خلال بداية القرن الثامن عشر الميلادي صار لزامًا على المقاطعات النائية أن تعتمد على نفسها في توفير الأمن، وبهذا أضحت قاديان مقاطعة شبه مستقلة ممتدة على مساحة ما يقرب الستين ميلا مربعا شاملة خمسا وثمانين قرية، فانبرى حينها (ميرزا فيض محمد خان) — كبير العائلة حينها– وقدم خدمة جليلة للإمبراطور المغولي (محمد فروخ سيار غازي) ووطد دعائم الأمن والنظام في كل إقليم البنجاب ما منحه لقب (أسد الدولة) وبموجب القرار الإمبراطوري لعام ١٧١٦ ميلادي فقد حاز ميرزا فيض خان أيضا لقب (هافت هزاري) ويخوله هذا اللقب قيادة جيش من سبعة آلاف من الجند النظاميين تحت إمرته، وكان هذا المنصب من أرفع المناصب في الدولة حينها ونادرا ما كان يسبغ على غير أفراد عائلة الإمبراطور. قد يغري مثل هذا الجيش رجلا طموحًا تجري في عروقه الدماء الملكية بطلب الـــمُلك ليصبح الإمبراطور، ولكن لم يكن هذا ليحدث من زعماء قاديان شديدي الولاء للحكومة المغولية المركزية، الذين ما برحوا عاكفين على مقاطعتهم الصغيرة حتى أمست لاحقا واحة للسلام في الإمبراطورية المفتتة.

أمّا (مرزا گـــُل محمد) ابن مرزا فيض محمد خان فقد كان عالما ذائع الصيت وأنشأ مكتبة هامة جذبت الدارسين إلى قاديان التي صارت تُعَدُّ بلدة، وقيل إنّ تلك المكتبة حوت ما يقرب الخمس مئة نسخة مخطوطة بخط اليد من القرآن الكريم. كان مرزا گـــُل محمد رجلا معروفا بكرمه وجوده حتى رُوي أنّ المئات من الناس كانوا يُطعَـــمون الطعام يوميا على نفقته، وأنه وزع بعضا من قراه على الزعامات المسلمة المجاورة لقاديان التي خسرت أراضيها نتيجة النـــزاعات القبلية أو العائلية.

حدث ذات مرة أن قصد قاديان مسئول كبير من البلاط الإمبراطوري ولـــمّا رأى الانضباط الأمني فيها واستتباب الحكم وقارنه بالفساد المستشري

في بلاط دلهي قال: "آه لو كنّـــت أدري أنّ في هذا المكان النائي يعيش فرد من العائلة المغولية بهذه الشيم! لو عرفت من قبل لجاهدت في سبيل توليه عرش الإمبراطورية في دلهي.."

دأب مرزا گـُـل محمد على تحذير الأباطرة المغول المتعاقبين من خطر السيخ المتعاظم في البنجاب ولم يفعلوا شيئا غير الوعود بإرسال المدد العسكري إلا أنّ شيئا لم يصل، ولم تفلح قاديان الصغيرة في الوقوف طويلا أمام جحافل السيخ، وما لبثت أراضي مرزا گـُـل محمد أن تقلصت نتيجة خطة السيخ لقضم الأراضي حيث ابتُلعت القرى واحدة بعد الأخرى، وفي النهاية لم يمض وقت طويل بعد وفاة مرزا گـُـل محمد خان حتى اقتصر حكم ابنه (مرزا عطا محمد) على قرية قاديان فقط.

كان لقاديان في أيام مجدها حين حماها جيشها، حصنا منيعا يحيط بها ويرتفع ٢٢ قدما ويبلغ عرضه ١٨ قدما ويلف منطقة عمرانية بلغت مساحتها ٢٣ دونما. كان للسور أربعة أبراج وأربع بوابات هي ناغلي، موري، بهاري، وبطالوي. اختار مؤسس قاديان أي مرزا هادي بيك الموقع بعناية ليكون منيعا ويسهل الدفاع عنه، إذ يشرف على منطقة منخفضة بها مستنقع يقابل الأسوار ويتحول في موسم الأمطار إلى خندق مائي فضلا عن مواقع أخرى بنيت لأغراض دفاعية. تقلص جيش قاديان بحلول القرن التاسع عشر من جيش قوامه ٧٠٠٠ جندي إلى بضع عشرات من الرجال متمركزين في الأبراج الأربعة مسلحين بأسلحة قديمة، ولكن على الرغم من ذلك كان الأمر ما يزال يتطلب جهدا لا بأس به لسقوط البلدة بالمواجهة العسكرية التي لم يقدم عليها السيخ حتى ذلك الحين. ثمّ جاء عام ١٨٠٢ وتسلل السيخ إلى قاديان — بسبب خيانة أحد السكان وفق الروايات– من إحدى البوابات التي تُركت مفتوحة. نهب السيخ الجوامع والبيوت وأحرقوا مكتبة مرزا گـُـل محمد ومعظم مخطوطات العائلة أيضا، وقتلوا عددا من الناس، حتى إنهم أسروا أفراد

عائلة المرزا أنفسهم ثم ما لبثوا أن طردوا العائلة خارج القرية الذين شقوا طريقهم كلاجئين بجهد بالغ حتى وصلوا نهر بياس في مقاطعة بيغوال. لقد استقبلهم حاكم تلك المقاطعة ومنحهم قطعة صغيرة أقاموا فيها تحت ظروف فقر مدقع مدة الخمس عشرة سنة التالية. وبحلول عام ١٨١٨ عزز حاكم السيخ المهراجا (رانجيت سنغ) سلطته واكتسب جميع فتوحات حلف السيخ، وقام بدعوة رئيس عائلة المرزا -كان عندها مرزا غلام مرتضى - للعودة إلى قاديان ووعده أن يعيد جزءا من أملاك العائلة. قبل مرزا غلام مرتضى الدعوة وانضم إلى جيش المهراجا وقاتل معه في حملات كثيرة منها فتح كشمير عام ١٨٣٤، وكمكافأة لغلام مرتضى على خدماته أعاد المهراجا له خمس قرى من إرث العائلة الذي كان يضم خمسًا وثمانين قرية.

توفي المهراجا رانجيت سنغ عام ١٨٣٩ وما لبثت بعد وفاته أنْ بدأت إمبراطورية السيخ بالاضمحلال والتفسخ، ثم وصل البريطانيون بعد زمن قصير وغزوا البنجاب وضموها إلى مستعمرات الإمبراطورية البريطانية. صادق البريطانيون على ملكية مرزا غلام مرتضى لأراضي قاديان وبعض القرى الصغيرة المجاورة غير أنهم رفضوا الاعتراف بملكية القرى الخمس التي أعادها المهراجا رانجيت سنغ، وبدلا من الاعتراف منحوه إيجارا مدى الحياة لهذه القرى الخمس قيمته ٧٠٠ روبية كل عام. لم يعترض البريطانيون على القرى الثمانين الأخرى. إنّ النـــزاع الذي احتدم خلال الخمسين عاما التالية حول القرى الضائعة أثّر كثيرا على مرزا غلام أحمد ونظرته بخصوص القيمة الحقيقية للملكيات المادية في هذا العالم.

لقد حافظت عائلة المرزا على ولائها للمهراجا عندما قدم البريطانيون وعكفوا على تدمير قوة السيخ عن طريق وعود برشى وأراضٍ لكل من زعامات المسلمين والسيخ، وقد حفظ البريطانيون مسألة ولاء العائلة للمهراجا واتخذوه ذريعة لعدم إرجاع باقي أملاك المرزا. مما لا شك فيه أنّ الزعماء المسلمين

والسيخ الذين قدموا بمساعدة البريطانيين قبيل نهاية حكم السيخ قد نجحوا في استعادة سيطرتهم على أملاك جدودهم أو في توسيع هذا الإرث، أو ربما من وجهة نظر البريطانيين الذين تحججوا وفق فلسفتهم الذرائعية في ذلك الوقت بأن إعادة توزيع الأراضي كما كانت عليه قبل قدوم السيخ سيؤدي إلى شكاوى وتظلمات أكثر من أن يؤدي إلى تلطيف الأوضاع. ومع هذا فقد خدم مرزا غلام مرتضى الحكومة البريطانية الحاكمة بالولاء نفسه الذي خدم به حكومة المهراجا السابقة إذ قام مرزا غلام مرتضى وابنه الأكبر غلام قادر خلال الأحداث التي اندلعت عام ١٨٥٧ التي عرفت بالتمرد الهندي بتمويل فرقة من ٥٠ خيالا على نفقتهما الخاصة وشاركا في معارك عدة، وكنتيجة لهذا تلقيا أكثر من خطاب ثناء مكتوب من جنرالات الحكومة البريطانية. كتب الجنرال نيكلسون بتاريخ آب/أغسطس ١٨٥٧:"بعد قمع المتمردين سأنظر بعين الاعتبار إلى مصالح عائلتك"، غير أنّ الجنرال نيكلسون توفي بعد شهر من هذا الخطاب ومن حينها لم يبدِ أي جنرال بريطاني اهتماما شخصيا في مكافأة خدمات عائلة المرزا ومعاونتهم على استعادة إرث أسلافهم من الأراضي. كل ما حصل عليه مرزا غلام مرتضى هو معاشا سنويا مقداره ٢٠٠ روبية لقاء خدماته خلال التمرد. وقبيل وفاة المرزا بعد عدة سنوات كتب السير روبرت إغيرتون –المفوض المالي للبنجاب– إلى غلام قادر أخ مرزا غلام أحمد الذي أصبح رئيس العائلة عندها:"سأُبقي في ذهني مسألة تعويض عائلتكم ومصالحها عندما تحين الفرصة المؤاتية"، غير أنّ هذه الفرصة لم تحن أبدا. وعلى الرغم من هذا الفشل في استعادة الأملاك الضائعة إلا أنّ الادعاءات ظلّت تلاحق عائلة المرزا وغلام أحمد نفسه بأنهم تلقوا معاملة متميزة من الحكومة البريطانية. لقد شغلت المعارك القضائية المضنية حول أملاك العائلة المفقودة، التي بدت بلا نهاية، وقت وتفكير غلام مرتضى والد مرزا غلام أحمد إلى نهاية عمره، حتى إنه كان قد عهد إلى ابنه أحمد تولي القضايا بدلا منه.

الفصل الرابع

رحلته التعليمية

صبي في المصلى

ما كانت المدارس موجودة بعد في الهند حين ولادة غلام أحمد، فالتعليم الإسلامي المألوف حينها اقتصر على حفظ القرآن الكريم وبعض معانيه وامتدت في أحسن الأحوال إلى تعلم الأردية والفارسية. ولغرض تعليمه، فقد أحضر والده أول مدرس له عندما بلغ السادسة أو السابعة من العمر قرابة عام ١٨٤١ ليدرسه في المنـــزل؛ حيث علّمه بضع سور من القرآن الكريم وبدأ بتعليمه كتبا فارسية بسيطة، ولما بلغ العاشرة من عمره أحضر له أبوه مدرسا آخر بذل جهدا كبيرا معه وعلمه مبادئ اللغة العربية. وكان يحدث أن يأتي صبية آخرون إلى مترل أحمد لينالوا نصيبا من مائدة العلم المفتوحة وكانوا أثناء الدراسة يقومون ببعض الأعمال التي تثير حنق المدرس. ومع أنّه ليس معروفا على وجه قطعي إن كان أحمد مشاركا في هذه الأعمال أم لا، إلا أنّه مستبعد جدا انغماسه في اللهو أثناء الدرس، فقد كان ولدًا جادًا، مجتهدًا في دروسه حتى إنه كان بعد نهاية الحصص اليومية -التي عادة ما كانت تنعقد في ما عُدَّ غرفة معيشة- يصعد الدرج إلى غرفته فور فراغه ويقبع هناك متابعا القراءة.

وما إن بلغ السابعة عشرة من عمره حتى أحضر له أبوه معلما آخرًا هو (گـُـل علي شاه) من مدينة بطالا القريبة. مكث گـُـل علي عدة أيام في قاديان ثم ما لبث أن عاد إلى بطالا. قام گُل علي بتعليم غلام أحمد المزيد من العربية وشيئا من المنطق والفلسفة.

في تلك الفترة كانت قد ولت أيام مجد قاديان وزالت مكانتها كحصن منيع إلا أنّ أسوار المدينة التي انهارت بفعل الإهمال كانت ما تزال موجودة،

كانت ثلاثة أرباع المنازل المتبقية في قاديان خالية من السكان فيما سكن الربع الباقي من المنازل نحو خمسمئة شخص، لم يكن معظم هؤلاء الساكنين يدفعون إيجارا لأصحاب المنازل الذين رحبوا بأي ساكن للمنـــزل ممن يرغب بالعيش في قاديان، وإن بالمجان، في مقابل أن يقوم المستأجر بأعمال صيانة المترل طيلة مدة سكنه.

تقهقرت قاديان من بلدة صاخبة مزدهرة هي الأهم في مقاطعتها إلى قرية خاملة الذكر، ووصفها زوارها في تلك الحقبة كأنها في حالة حداد. كانت توجد بها الأسواق التي لا تشبه الأسواق سوى بالاسم إذ لم يكن هناك سوى ثلاثة متاجر؛ واحدهم كان يبيع الحلوى المصنوعة من الحليب المرتجع الذي لم يتمكن من بيعه، وكان المتجر الثاني يبيع الأدوية والعلاجات المحلية، فيما عرض الدكان الثالث بضائع متنوعة بكميات صغيرة. غاب التداول النقدي بشكل عام وغلبت المقايضة على الحركة التجارية فعمّ الركود. وكل أنواع الدفع من مال أو غيره كانت مؤجلة، فمثلا يحصل الحلاق على أجرته بعد أن يحصد الناس غلالهم التي طحنت يدويا حتى بدون استخدام الحيوانات، ولم يتوافر الحليب إلا مصادفة، أما اللحم فلم يكن في معظمه صالحا للأكل. بشكل عام عاش الناس في فقر مدقع وعمّت البطالة وغابت سبل توفير العيش الكريم.

هناك وصفٌ لزائر غير معروف وفَدَ قاديان في تلك الفترة واصفا النساء بأنهنّ كنّ يرتدين أسمالا بالية تبدي أكثر مما تستر. حتى تضاريس قاديان التي حوت أراض خفيضة وكانت السبب وراء وجود قاديان، استحالت في تلك الفترة إلى خطر يتهدد مستقبل القرية. فالمستنقعات المحيطة بها صارت حضانات لبيوض البعوض الذي نشر الملاريا. أما في موسم الأمطار فكانت الأحواض تفيض مما يمكنك من أن تجدّف متجولا حول القرية بقارب صغير.

استغل أهل القرى المجاورة هذه الظاهرة في إثارة قرف أهالي قاديان المسلمة أحيانا واستفزازهم بأن يسبحوا عراة في تلك البرك المتشكلة بفعل المطر. وأثَّر الفقر على النظافة العامة. وصف زائرو قاديان تلك المشاهد: "لم يكن في قاديان نظافة عامة، فالبالوعات والمصارف القذرة دائما مكشوفة ومسدودة وفائضة وحتى خلال النهار من الصعب أن تمر في الطرقات. حتى قبل حلول الظلام يمكن أن ترى بنات آوى والقطط البرية والثعالب متجمعة حول أكوام النفايات، ويوجد الكثير من الذئاب حتى إن هناك مستنقعا يعرف بمستنقع الذئب".

وبالطبع فوجود الحيوانات المفترسة بهذه الكثرة يدمر المحصول من جهة ومن جهة أخرى جعل قاديان مشهورة على مستوى المنطقة بحيواناتها المفترسة! وساهم موقع القرية المنعزل في جعلها مصدر جذب للصوص والمتشردين إذ كان هناك قطاعات واسعة من الأرض بها أشجار فاكهة مثمرة ولكن كانت هناك أيضا مساحات كثيفة من الغابات، فلا يترك السكان بيوتهم ليلا.

عندما قرر (گُــل علي شاه) – مُدرس أحمد – أنه لم يعد بمقدوره تحمل رحلة الوصول إلى قاديان التي تستغرق ثلاث إلى خمس ساعات، لم يكن في قاديان كلها في تلك الفترة شخص مؤهل ليكمل تعليم أحمد، وعليه فقد رتب والده مسألة انتقاله إلى بطالا حتى يكمل دراسته تحت إشراف (گل علي شاه).

ولحسن الحظ لم تكن الدراسة أمرا مرهقا لأحمد، إذ يقول كاتب سيرته عن تلك الفترة المبكرة من حياته: "لم يكن المدرسون في ذلك الزمان رجالا ذوي علم غزير، فالتعليم والثقافة شيء سهل المنال حتى إنَّ أي شخص قرأ بضع كتب فارسية أو عربية عدّه الناس متعلما. أما المستوى التعليمي الذي وصل إليه أحمد فهو نتاج مطالعاته للكتب الفارسية والعربية المتاحة ما أعطاه قدرة على التعبير بطلاقة في اللغة الفارسية وبشكل محدود بالعربية. ولم

يتجاوز تحصيله العلمي في تلك المرحلة أكثر من هذا." أما بخصوص تعليمه الديني فقد تلقى "النـــزر اليسير على يد معلميه".

ومن بين طلاب (گـــُل علي شاه) في بطالا كان هناك غلام يدعى محمد حسين الذي عاش مع عائلته في بطالا، وكانت تدور بعض الشائعات حول خلفيته الاجتماعية وحول عائلته ولكن ليس حول محمد حسين نفسه الذي كان أيضا فتى مُجدًّا في دراسته ذكيا حاضر البديهة. أعجب كل منهما بملكات الآخر العقلية وصارا صديقين. وكان لدى المدرِّس نفسه فتى هندوسي يدعى (لالا بهيم سين).

وهكذا عاش غلام أحمد حياة ذات طبيعة خاصة تختلف عن أقرانه، فبينما عمل معظم فتية القرية برعي الأغنام منذ بلوغهم سن السادسة أو السابعة لأن ذويهم لم تكن عندهم أدنى فكرة عن التعليم ولم يمتلكوا أي وسائل لتعليم أبنائهم حتى إن رغبوا بهذا، تهيّأت ظروفٌ أتاحت لغلام أحمد التعلم والمطالعة.

اعتاد والد أحمد – الذي ورث منصب زعيم قاديان وكان جنديا متمرسا كذلك- على إمارة رجاله وعلى السمع منهم والطاعة. كان رجلا مهيبا يخافه الناس، كما كان سريع الغضب مع نظرائه ومع موظفي الحكومة البريطانية، يحكى أنّه في مقابلة له مع موظف بريطاني سأله الأخير كم تبعد قاديان عن مكان اجتماعهم، وكان في نية الموظف البريطاني أنه بهذا السؤال يفتح حوارا وديا، غير أنّ هذا ليس ما فهمه غلام مرتضى الذي اكفهر وأرعد وأجاب قائلا يمكنك أن تسأل خادمك عن بُعد المناطق، وأدار ظهره منصرفا قائلا في غضب "أنا لست خادمك". عندها ارتبك الموظف البريطاني واعتذر وبدأت المحادثة من جديد. غلب على غلام مرتضى الحس العالي بكرامته الشخصية ولكنه كان طيب القلب على الرغم من ظاهره الفظ. درس غلام مرتضى الطب، ولم يكن في منطقته كلها طبيب غيره، وعالج جميع المرضى في جواره دون أن يتقاضى منهم أي مقابل لقاء خدماته الطبية.

كتب غلام أحمد عن والده: "كان والدي طبيبا حاذقا وقرأت على يده بعض الكتب في علم الطب". إن الإيمان بمهارة غلام مرتضى الطبية لم يكن رأي ابنه فقط، إذ أرسل مهراجا بطالا في طلب غلام مرتضى عندما مرض، ولـــمّا بَرَأَ من مرضه عرض على غلام مرتضى أن يستأجر منه قريتين مكافأةً على خدماته، إلا أنّ غلام مرتضى رفض بشدة لأنّه لم يحدث أنْ تقاضى مقابلا لعلاجاته الطبية وبالتالي لم يكن ليقبل بإيجار القريتين اللتين كانتا جزءا من ميراثه الذي كان يؤمن بشدة بحقه فيه، لذلك فإن قبوله تأجيرهما لا يمس فقط بشرفه وإنما بشرف نسله كذلك من وجهة نظره.

مارس أحمد ركوب الخيل والسباحة. وهناك حادثة حصلت له أن تم إنقاذه من الغرق على يد رجل تصادف وجوده على مقربة منه. كذلك كان يستطيع العَدْوَ بسرعة إلا أنّه لم يعر اهتماما قط للألعاب والرياضات ونادرا ما تحمس للاشتراك في مباريات رياضية. كثيرا ما طلب أصدقاؤه أن يكون حكما في ألعابهم، كان معظم الفتية يتعلمون الفنون القتالية، وقد شاعت المبارزات كثيرا، ولأنه كان فردا من عائلة المرزا فكان لزاما عليه أن يكون بارعا في استخدام السيف والقوس والبندقية، غير أن أحمد لم يشترك أبدا في تلك الرياضات القتالية.

في ذلك العمر أي مقتبل الشباب، بدأ نمط حياته المستقبلية بالتشكل. ففي ذلك البيت المنصب على الهموم الدنيوية كان هاجس نيل وإصلاح ممتلكات العائلة هو محور الحديث. يقول غلام أحمد:"في تلك الأثناء صرت مولعا كثيرا بقراءة الكتب لدرجة كبيرة حتى وكأني لست أعيش في هذا العالم"، ويقول كذلك:"وكان والدي ينصحني دائما بالإقلال من قراءة الكتب، حيث إنّه كان يخاف شفقة علي أن يضر ذلك بصحتي، وكان يرمي إلى أن أتخلى عن هذه الأمور وأشاركه في أعماله وأشغاله"، ويضيف لاحقا:"يئس مني والدي تماما وصار يعدُّني أفضل بقليل من ضيف أكل من خبزه ثمّ لم يقدم شيئا له.

وكأني أب حنون أراد أن يزين المباهج الدنيوية لناظري ويعرض عليَّ ألوانها وزخرفها ثمّ وجدني أعمى وأصم حيالها إذ إنّ هذه الملذات لم تكن شاغلي وكنت مشدودا إلى منبع كل لذة؛ إلى حب الله تبارك وتعالى".

اهتمّ أحمد بحياة من نوع آخر، إذ يقول متذكرا طفولته: "وجدت نفسي منذ نعومة أظفاري منجذبا بكليتي إلى ربي، ثم بزغ لي كشف لطيف عن مستقبلٍ سيستعملني الله فيه لأكون أداة لتنفيذ إحدى مشيئاته. كنت كذهَبٍ يعلوه الغبار منتظرا الوقت المقدّر في المستقبل حتى يلمع ويسطع".

روي أنه عندما كان طفلا صغيرا يلعب مع ابنة خال له تدعى (حرمة بي بي) أثير موضوع الصلاة كما يحدث أحيانا حتى مع الأطفال الصغار، فطلب غلام أحمد منها "اُدعي لي أن ينعم الله علي ببركة الصلاة". ولما صار عمره ١٧ عاما تزوج ابنة خاله حرمة بي بي وفق ترتيب والده إذ لم يكن زواجا عن حب أو اختيار، وتعثر هذا الزواج من بدايته. رزق أحمد من هذا الزواج بابنين هما سلطان أحمد وفضل أحمد اللذان ولدا خلال السنوات الأربع الأولى من زواجهما الذي ما لبث أن خبا وانطفأ. انتقلت حرمة بي بي وابنيها إلى منزل يخص أخاه – والذي لم ينجب سوى ولد وحيد مات صغيرا، وانتقل غلام أحمد بعد رحيل زوجته وولديه عائدا إلى غرفته المنعزلة.

إذا حدث و لم يوجد غلام أحمد في غرفته يقرأ القرآن كانت عائلته تعرف أين تبحث عنه، فقد كان طويل المكث في المسجد. حتى إن صديقا لوالده قال له ذات يوم: "أنت دائما تخبرني بأن لك ابنين ولكني لم أر أبدا سوى ابن واحد، فأين ابنك الثاني؟".

عرف عن غلام أحمد بأنّه كان فتى خجولا حييّا مُطرِقا لا يرد عند السؤال إلا باقتضاب.

في مناسبة أخرى وصل صديق للعائلة ووجد غلام مرتضى يتعرق بغزارة إذ إنّ موظفا حكوميا على وشك الوصول ولابد من ترتيب إقامته، فتساءل

الصديق حينها لماذا لا يعهد غلام مرتضى بهذا الأمر إلى أحد ولديه، فشرح غلام مرتضى وضعه قائلا بأن ابنه الأكبر يعمل في غورداسبور في وظيفة حكومية وأنّه يأتي لقاديان مرة كل أسبوع أو عشرة أيام، وأضاف: "تعال أريك الابن الثاني"، وأخذ صديقه من يده وقاده إلى غرفة أحمد حيث كان جالسا يقرأ كتابا في الأحاديث النبوية، ومع أنهما وقفا هناك لبرهة غير أن أحمد لم ينتبه إلى وجودهما ولما غادرا سأل غلام مرتضى صديقه: "أخبِرني، هل تظن أنّه يعيش في هذا العالم؟".

كما روي عن أبيه أنه قال ما معناه إذا فقدتم أحمد فابحثوا في سجاد المسجد قد يكون لُفّ وخُزّن بين السجاد بعد انتهاء صلاة الجمعة.

عندما كان أحمد يقرأ القرآن كان يحمله بين يديه ويتمشى من جانب إلى آخر في الغرفة وفي بقية أرجاء المترل. كثيرا ما تندَّر أهله عند سماع صوت خطواته حول مشيه الطويل في الغرفة الصغيرة، كان يمشي حافي القدمين في معظم الوقت وقد لازمته عادة المشي عند القراءة أو الكتابة أو كتابة الملحوظات بقية حياته.

درس أحمد في تلك الفترة من عمره أي بين سن ١٣ و٢٠ سنة القرآن الكريم وصحيح البخاري اللذين كان يقرؤهما باستمرار، أما الكتب الأخرى التي درسها فهي دلائل الخيرات ومثنوي مولانا الرومي اللذان كان يحبهما كثيرا وكتابي التذكرة العليا وفتوح الغيب. ولما بلغ عامه السادس عشر درس بعمق كلا من الإنجيل وكتاب الفيدا المقدس لدى الهندوس كما درس شروحات الكتاب المسيحيين حول الإنجيل وعلّق عليها جميعا بدقة كما فعل مع القرآن.

يقول أحمد في حديث لصاحبه: "إنّ لدي أفكارا قوية إزاء الاعتراضات التي يثيرونها ضد الإسلام. إذ جمعت في غرفتي الاعتراضات المثارة ضد سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ووجدتها ثلاثة آلاف حقا".

لقد بدأ المدافع عن الإسلام مهامه بالفعل!

الفصل الخامس

معارك قضائية

عندما أصبح أحمد في سن العشرين صار والده دائم الانشغال والقلق بخصوصه، لا سيما كيف سيتدبر أحمد نفقات معيشته بعد وفاة والده، وكثيرا ما انتقد وباستمرار نمط حياة ابنه الذي لم يرَ سببا للضجة التي يثيرها والده حول مسائل المعيشة. وهذا الهدوء تجاه الماديات ليس فقط فيما يتعلق به شخصيا، ولكن أيضا تجاه الغير، إذ حدث أن سمع ذات مرة صديقا للعائلة يشكو ضياع فرصة عمل، فعلّــق أحمد حينها إنّه لا يفهم لماذا يقلق الناس كثيرا بخصوص المال والنجاح المادي.

قرر غلام مرتضى أنّ على ابنه المساعدة في إدارة ممتلكات العائلة وأنّ عليه كذلك مساعدته في المعارك القضائية التي كان يخوضها لاسترداد ثروة العائلة الضائعة. وقد ذكر أحمد في أحد كتبه الخمسة والثمانين مشاعر أبيه في تلك الفترة نحوه، إذ كان أبوه يريد توجيهه للشئون الدنيوية مع أنها لم تلفت انتباهه، يقول غلام أحمد: "... ومع ذلك فإنني رأيت – طاعةً لوالدي ولنيل رضى الله تعالى وليس حبا في تلك الأمور– تكريس نفسي لخدمة والدي... وكان كثيرا ما يقول إنني أوجه ابني هذا إلى الأمور الدنيوية على سبيل الترحم، وإلا فإني أعرف جيدا أن المنهج الذي ينتهجه — أي منهج الدين– هو المنهج السليم والقويم، أما نحن فنضيع أعمارنا هباء".

في تلك الفترة الزمنية كان الفصل في القضايا في المحاكم الهندية يتم دون وضع عامل الوقت اللازم لإنجاز المهام المختلفة في الحسبان، فمثلا كانت هناك مهلة يوم واحد تعطى لاستكمال جميع الإجراءات ولسماع جميع الأطراف المعنية بالقضية في وقت واحد، وكان القاضي يعلن عن جاهزيته

لسماع القضية عن طريق حاجب ينادي على الـــمُدَّعِي والـــمُدَّعَى عليه كلٌّ باسمه. وإذا حدث أنّ طرفًا سيئ الحظ لم يكن موجودًا بعد أن يكون قد قضى عدة أيام من الانتظار فإنّ مسار القضية يُستكمل بدون اعتبار للطرف الغائب. كان غلام أحمد يستغل وقت الانتظار هذا في دراسة القرآن الكريم بعمق وتركيز شديدين. عن هذا الانهماك والاستغراق في القرآن الكريم يروي سائق عربة الثيران التي أقلته ذات مرة من قاديان إلى بطالا في رحلة تستغرق مدة خمس ساعات، يقول إن أحمد وطيلة مدة الرحلة كان يقرأ ويعيد قراءة صفحة واحدة من القرآن هي سورة الفاتحة.

عقدت معظم جلسات القضايا التي رفعها مرتضى في منطقة دِلْهَوْزي – وهي تلة سميت تيمنا بحاكم سابق وتبعد مسافة مئة ميل عن قاديان وترتفع ٨٠٠٠ قدم عن سطح البحر، كما كانت بعض القضايا تعقد في لاهور البعيدة عن قاديان مسافة ٧٠ ميلا، كانت الطرق أفضل بقليل من ممرات ترابية ولم يكن هناك وسائل مواصلات عامة قد اخترعت في ذلك الوقت مما يعني أنه على أحمد المشي على قدميه في تلك الرحلات التي استغرقت بضعة أيام. كان والده يزوده بحصان وخادم ولكن غلام أحمد فضّل المشي وكان يرسل الخادم قبله ليعدّ مكانا للإقامة، كان أحمد يستطيع المشي مسافة عشرين إلى خمسة وعشرين ميلا يوميا. وعلى الرغم من عدم اقتناعه بغرض رحلته إلا أنّه ذكر لاحقا تمتعه بروعة المناظر الطبيعية والجبال المهيبة وخضرة المراعي الخصيبة والجداول الرقراقة المتلألئة عبر الجبال التي اختلفت تماما عن حرّ وغبار قاديان في الصيف والطين والرطوبة في الشتاء: "لقد استشعرت جمال الله تعالى وجلاله اللامتناهي في كل ما يحيط بي"، وقال كذلك: "وشعرت بقرب أكبر لله تعالى".

وفضلا عن معارك والده القضائية لاستعادة أملاك العائلة الضائعة فقد كانت له كذلك قضايا عرَضية أخرى مع المستأجرين، حيث حدث أنْ

قاضى والده بعض المستأجرين لقطعهم أشجارا في بستان قد أجره لهم حينها، شعر غلام أحمد أنّ والده لم يكن محقا في دعواه هذه لأنّ الشجر الموجود على الأرض هو جزء من نتاجها كالمحصول تماما ومن الطبيعي أن تكون قيمة بعض هذه الأشجار من حق المستأجرين. وفي اليوم الذي سبق ذهابه لمتابعة هذه القضايا وبعد صلاة العشاء أخبر الناس في المسجد بأنه سيذهب للمحكمة بناء على أمر والده: "أرجو الدعاء أن ينتصر الحق، أنا لا أطلب أن يكون الحكم في صالحي فالله تعالى يعلم أين الحقيقة، نرجو أن يكسب وينتصر الصدق عند الله تعالى مهما كان". لم يكن خصومه يشكّون في أنّه سيقول شيئا بخلاف الحقيقة الواضحة التي لا لبس فيها وأنّه لن يلجأ لأي تحريف أو مبالغة بغية تحقيق مصالحه.

حدث في قضية أخرى تخص عائلته أن محامي العائلة سأل أحمد عمّا ينوي ذكره في شهادته فأخبره بأنه سوف يدلي بما هو الحق والصدق فقال المحامي: "لا داعي في هذه الحالة أن تحضر الجلسة بل أذهب أنا وأسحب القضية". وفي قضية ثانية طلب المدّعَى عليه شهادة غلام أحمد الذي شهد فيها ثم صدر الحكم فعلا في صالح الخصم ما أثار خصاما عائليا، كان تعليق أحمد عندها: "لا يمكن أن يُتوقع مني إنكار الحقيقة".

مما لا شك فيه أن شهرته في التمسك بالصدق وقول الحق، بغض النظر عن النتائج المترتبة، صارت ثابتة لدرجة أن الخصوم كثيرا ما كانوا يخبرون القاضي أنّهم يرضون ويقبلون التمسك بإفادة غلام أحمد حول موضوع النـــزاع، وكان غلام أحمد لا يحيد عن الحقيقة ويخبر بالوقائع كما هي دون مواربة عندما كان يستدعى للشهادة، ما أدّى أحيانا إلى خسارة والده بعض القضايا. ففي قضية الأشجار والمستأجرين المذكورة آنفا طلب القرويون من القاضي سؤال غلام أحمد عن حقيقة الموضوع وكانت إفادة غلام أحمد أمام القاضي لصالح القرويين، وحكم القاضي ضد والده، وعاد الخدم الذين كانوا

بصحبته في المحكمة إلى البيت قبله بوقت قصير، ولما سألهم غلام مرتضى عن مجريات القضية خافوا أن يجيبوا وقالوا بأنهم لا يعرفون نتيجة الجلسة، وعندما وصل غلام أحمد وسُئِل عن القضية لم يحاول إخفاء حقيقة أن شهادته كانت السبب وراء خسارة القضية، عندها انفجر والده غضبا وطلب منه مغادرة المترل وأنه لن يُطعم في هذا المترل مرة أخرى، غير أنّ والدته قدمت له الطعام لعدة أيام بينما كان أبوه يستشيط غضبا، ثمّ ترك غلام أحمد مترل العائلة إلى بطالا وأقام هناك مدة شهرين حتى هدأ الغضب عن والده الذي أرسل في طلبه.

وفي قضية أخرى حان موعد صلاة الظهر عند وقت النظر في القضية، وبالطبع ترك أحمد كل شيء وذهب للصلاة، ونادى الحاجب على أطراف النـــزاع فانتهز الخصم الفرصة وطلب من القاضي الحكم لصالحه لتغيب صاحب الدعوى عن الحضور، ولكن القاضي رفض طلبه، وبعد دراسة أوراق القضية وسؤال المدّعَى عليه حكم القاضي لصالح الـــمُدَّعي أي والد أحمد. وبعد أن فرغ غلام أحمد من صلاته قيل له أن قضيته قد نودي عليها فدخل قاعة المحكمة معتقدا أن القضية قد حكم فيها لصالح الخصم، وأخبر القاضي أنه كان يصلي الظهر عندما نودي على قضيته ولم يستطع ترك الصلاة، وطلب أن يُعاد النظر في القضية فهزّ القاضي رأسه متفهِّما، وروى الشهود أن القاضي ابتسم وقال له أنه قد حكم في القضية لصالح أحمد بالفعل.

كانت معركة والده القضائية الأساسية لاستعادة ضياع وأملاك عائلته المفقودة تستمر وتُرفع إلى مستويات ومحاكم أعلى وأعلى وبالتالي فالتكاليف القضائية اللازمة تراكمت وكبرت، خاصة أن مرتضى أغدق في الإنفاق عليها في تلك الفترة حتى أنّه في آخر قضية قُدّرت مجمل نفقاته القضائية بقرابة ٧٠،٠٠٠ روبية مع ملاحظة أنّ معاش الخدمات العسكرية بلغ ٢٠٠

روبية في السنة وأنّ مبلغ الإيجار السنوي للخمس قرى المؤجرة مدى الحياة كان ٧٠٠ روبية في العام.

وصلت المعركة القضائية أخيرا إلى لاهور واستغرق البت في القضية بضعة أيام، وفي كل يوم من تلك الأيام كان خادم لأصدقاء عائلة المرزا يُحضِر الغداء لغلام أحمد إلى المحكمة، وحدث مرة أن أخبر أحمد الخادم أن يرجع بالغداء لأنّه سيعود إلى منزله وسيتغدى هناك إذ إنّه لا يرغب في البقاء في المحكمة أكثر من هذا على حد تعبيره. وبعدها بوقت قصير ظهر غلام أحمد وابتسامة رضا تعلو محياه فسأله والده: هل ربحنا؟ فرد غلام أحمد: لا.. لقد خسرنا. فلماذا إذا هذه السعادة؟ لأنّ ذلك عنى نهاية رفع الدعاوى إلى الأبد إذ لا يمكن رفع القضية إلى مستوى أعلى، أي لن ينشغل بعد هذا بالمطالبة اليائسة وبمقدوره الآن نسيان المصطلحات والإجراءات القانونية وتكريس وقته للعبادة ودراسة القرآن. ولكن ذلك عنى لوالده من جهة أخرى نهاية رحلة أحلامه وشعورًا بالمرارة وخيبة الأمل للفارق الكبير بين ما اقتصرت عليه ممتلكات عائلته حاليا وما كان يمتلكه عندما كان صبيا.

الفصل السادس

حياة العزلة

تعاظم قلق والد أحمد عليه وخوفه من أن ينتهي به الأمر إلى الإفلاس بعد وفاته وصار يزداد يوما بعد يوم، فراتبه التقاعدي كعسكري سيتوقف حتما بعد وفاته وإيجار القرى الخمس على مدى حياته سيتوقف كذلك بعد موته وكان هذان هما مورد رزق العائلة. أجل لقد امتلكت العائلة معظم أراضي قاديان ويعود لها مبلغ خمسة بالمئة من إيراد القرى أو ما يعرف باسم (التعلق داري)، إلا أن مجموع المبلغ ضئيل جدا لأنّ أحدا لم يرغب في أن يستأجر في قاديان؛ بمعنى آخر لا تدر الأرض عائدا ماديا يذكر، ومع أن والده امتلك بضع متاجر وبيوتا في بلدات أخرى إلا أنها ستكون مقسمة بين غلام أحمد وأخيه.

وفي عام ١٨٦٤ أي عندما بلغ غلام أحمد سن التاسعة والعشرين وجد والده مصدر رزق له بأن أمّن له وظيفة ككاتب في المحكمة في مديرية الأحوال المدنية لمقاطعة سيالكوت التي تبعد عن قاديان مسافة ١٥٠ ميلا. غيرت هذه الوظيفة مكان سكن غلام أحمد إلا أنها لم تؤثر على نمط حياته، استأجر هناك غرفة بسيطة يعود إليها فورا بعد انتهاء دوامه ويغلق الباب على نفسه ولا يفتحه إلا مرة لصاحب المترل الذي كان يؤمن له وجبة العشاء، كما كان مسموحا له باستعمال باحة صغيرة للصلاة دون إزعاج.

من الطبيعي أن يتساءل المحيطون به عن كيفية قضائه وقته وحيدًا، حتى إنّ بعض الجيران كانوا يسترقون النظر إلى داخل غرفته عندما يُفتح الباب ليجدوا أنّه إمّا كان يصلي أو يقرأ القرآن. وأحيانا كان يطيل السجود وربما

بقي في السجدة الواحدة لفترة طويلة. سمعه أحد الجيران مرة يدعو:"يا الله يا ربي هذا كلامك المقدس وليس بمقدوري أن أدرك معناه دون أن تعينني".

كان يتبعه في بعض الأحيان أناسٌ من أصحاب القضايا إلى مكان إقامته بغية رشوته ليتدخل في قضاياهم ويحقق لهم المكاسب، ولكن غلام أحمد رفض بشدة وحزم مقابلة هؤلاء أو حتى رؤيتهم، وطلب من صاحب المترل أن يشرح لهم استعداده للنظر خلال فترة دوامه الرسمية في مكتب المحكمة في قضاياهم ومساعدهم وفق المتاح. أحب مساعدة الناس ولكن لم يكن ليحيد عن النـــزاهة في سبيل هذا الهدف وقدم العون لهم بطرق أخرى.

كان إيجار غرفته البسيطة وأجرة طعامه اليسير تستهلك جزءً صغيرا من دخله وبذل المبلغ الباقي في مساعدة الجيران ذوي العوز الشديد البيّن، وقدّم المساعدة العلاجية من معلوماته الطبية التي اكتسبها من والده وقدم أيضا لهم الدواء. لم يستغل أبدا الناس عندما كان يُرسل في مهماته الرسمية لإجراء المقابلات التابعة لعمله، إذ كان يُرسَل في بعض الأحيان إلى القرى المحيطة لتدوين تفاصيل أدلة معينة في النـــزاعات القضائية الواردة إلى المحكمة، في تلك المهمات جرت عادة معظم الموظفين المطالبة بتأمين المأكل والإقامة لأنفسهم وللخادم المصاحب وحصانا للتنقل ومالا للنفقات، إلا أنّ أحمد لم يفعل ذلك واكتفى بما يقيم أوده من الطعام وبالعلف لحصانه الذي كان يمتطيه الخادم معظم الوقت لأنه فضل غالبا السير مشيا على الأقدام. نادرا ما تحدث إلى زملائه أثناء فترة العمل عن أحوال المكتب، إلا أنّه كان يتحدث معهم أثناء سيرهم عائدين إلى بيوهم بعد الدوام، ودار مرة حوار حول العدّاء الأسرع بين زملاء العمل وقرروا التسابق فيما بينهم ومن ضمنهم غلام أحمد، ومع أنه لم يشترك معهم في هذا الحوار فقد أدهش زملاءه بأن كان أول واصل إلى الجسر – موضع نهاية السباق المتفق عليه. في الواقع إن فوزه بهذا

السباق ليس مفاجئا فلطالما مشى الأميال الطويلة في ذهابه وإيابه، وكذلك كان غذاؤه -على قلة كميته- قد حافظ على جسمه رشيقا ولائقا.

عاش حياة هادئة في سيالكوت في جِدّ ووحدة.

وجد نفسه مدفوعا إلى مناقشة كل من الهندوس والنصارى والمسلمين كذلك. وكان من ضمن أصدقائه محام هندوسي يدعى (لاله بيهم سين) - الذي كان زميل دراسة له في بطالا- والذي شغل حينها منصب وكيل المحكمة ورئيس المدرسة المسيحية واشتغل بالطب والكيمياء وكثيرا ما التقيا في متجر الكيميائي الذي لم يكن بعيدا عن مكان إقامة غلام أحمد. وعن طريق (لاله بيهم سين) درس غلام أحمد كتابين في الطب هما القانون والمجاز، إلا أنّ أغلب محاوراتهما انصبّت على الأمور الدينية. ففي إحدى النقاشات بينهما حول الصلاة قال أحمد:"إن التقيد بشعائر الصلاة الظاهرية وحدها ليس كافيا". ووفقا لأحمد ليس كافيا أن يلزم المرء نفسه باتباع زعامة دينية معينة ويقتفي أثرها فلا بد لكل إنسان من أن يجاهد بنفسه في سُبُل الدين إذ يقول القرآن الكريم ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [العنكبوت ٧٠]. كما قابل أحمد في سيالكوت العديد من رجال الدين المسيحيين التنصيريين وأتباعهم من المتنصرين الهنود الذين كانوا يقومون بالتبشير بالمسيحية في الأسواق ويهاجمون الإسلام بضراوة، لم يواجه غلام أحمد حملاتهم اللاذعة على الملأ في التجمعات العامة، وإنما دخل معهم في مناقشات خاصة جادة.

ومن بين المبشرين المسيحيين الذين كانوا آنذاك قس إسكتلندي اسمه (ريف بتلر) الذي ما لبث أنْ صار صديقا مقربا له، وصار القس يضبط موعد نزهته المسائية مع موعد خروج مرزا غلام أحمد من المحكمة لمرة أو مرتين أسبوعيا كي يصحب غلام أحمد سيرا إلى منزله حيث يستكملان نقاشاتهما الطويلة التي امتدت لساعات. كان للقس بتلر، بحكم مولده

ونشأته، معرفة عميقة بالإنجيل من وجهة النظر البروتستانتية، وانتقل هذا العلم والمعرفة بشكل عميق ومذهل إلى أحمد حتى صار في السنوات اللاحقة يقتبس من الإنجيل بالسهولة نفسها التي يقتبس بها من القرآن الكريم. لم ترق هذه الصحبة لرجال الكنيسة وأصحاب المقامات الرفيعة فيها الذين التقوا به في المناقشات وكانوا يبدون ما يشبه الأسف على مستوى القس بتلر المتميز وعلاقته بغلام أحمد. عندما أراد القس بتلر العودة إلى بريطانيا ذهب إلى مكتب المحكمة حيث يعمل أحمد ليودعه، كان البريطانيون في ذلك الوقت لديهم اعتقاد راسخ بأنهم الطبقة الحاكمة للبلاد وأن لا شيء ينبغي أن يقلل من احترام الناس لهم، وحدث أن التقى بتلر بالمفوض أثناء ذهابه إلى مكتب غلام أحمد، وظن المفوض أن القس قدم لزيارته هو، إلا أنّ القس أجابه بلطف أنه قد أتى في الحقيقة لوداع مرزا غلام أحمد. لم يكن للموظفين الحكوميين في الوظائف البسيطة مكاتب يجلسون عليها، كان أحمد يجلس على حصير على الأرض بين زملائه الكَتَبة الآخرين، وقد جلس القس بتلر على الأرض بجواره وتحدث معه قبل أن يودعه وسط دهشة جميع الموظفين الهنود والبريطانيين كذلك. عدَّ القس بتلر أحمد مفكرا دينيا عظيما وأنه فخور جدا بمعرفته لهذا الإنسان. وعلى مدى علاقتهما اختلفا وتصادما في شئون كثيرة حول نقاط دينية معينة، ففي جلسة من جلساتهما قال القس بتلر أنّ السيد المسيح قد وُلد من عذراء حتى يكون محررا من عار الخطيئة الموروثة من آدم لكل بنيه، فرد عليه غلام أحمد متسائلا أوليست السيدة مريم هي أيضا من بني آدم؟ بل أوليست حوّاء –وفق الكتاب المقدس– هي مَن أغوت آدم لأكل الفاكهة من الشجرة المحرمة والتي بسببها صار خاطئا؟ فبهت القس بتلر وعجز عن الجواب.

كيف كانت سيرة غلام أحمد كمدافع عن الإسلام؟

هناك وصف له يقول:"كان هناك نور وسِمة فريدة في عينيه، فهو متواضع في قوة، هادئ الطباع مع اتقاد في المشاعر، وفضلا عن تواضعه لديه قدرة على تحمّل فظاظة الآخرين. يتكلم بهدوء ويبدو للناظر كأنه يبتسم ". هذه السمة الفريدة فيه — الابتسامة المرتسمة على محياه- كانت دائما ما تذكر في وصفه خلال كل مراحل حياته من قبل أنصاره ومعارضيه على حد سواء. وصفه أحد أصدقائه بقوله: "يبدو كأنّ هالة من نور وصفاء روحاني تحيط به ووهج من ألق سماوي يكتنفه". كان يفيض منه ما يوصف بـــمحبة ورحمة قيل عنها: "انعكاس طبيعي لشخصيته ولأعماق روحه" وكانت دائما تظهر على وجهه في صورة ابتسامة متألقة وهدوء دائم. أما الأوصاف المادحة الأخرى فتحدثت عن تألق وصفاء روحاني وشعاع متوهج من النور السماوي وأنوار الصفاء والسلام. هناك وصف مباشر لمظهره الخارجي، إذ قيل عنه أن له بشرة صافية "ذات لون قمحي" تشوبه حمرة باهتة وهذا شائع بين سكان شمال الهند. لم يبدُ عليه أبدا الشحوب — كما قيل — حتى في أقسى فترات الكرب.

هل كان يبكي على مصائبه الشخصية في خلوته؟

لا يوجد أحد على قيد الحياة يستطيع أن يجزم بنعم أو لا، كما لم يترك أحد نصا مكتوبا عن ذلك، إلا أنّ هناك قلة تروي أنها قد سمعته بالصدفة عندما كان منهمكا في الصلاة منفردا حيث كان أحيانا يبكي منتحبا بدموع غزيرة أثناء صلاته. حتى إنّ أحدهم قال: "كانت الأرض تبتل عند موضع عينيه".

وُصف شكله حرفيا في تلك الفترة بأن شعره كان أسود اللون وكان ذا لحية كثيفة وعينين بنيِّتين داكنتيْن وله أهداب "طويلة وكثيفة" وجبهة عريضة باعتدال ومستوية.

عدَّ غلام أحمد فترة حياته في سيالكوت عذابا على الرغم من مناقشاته مع المبشرين والأصدقاء، يقول:"كانت سيالكوت سجنا لي". كما قال لرجل أتى له من قاديان ببعض الملابس من أمّه:"لقد عشت هناك وحيدًا في مجموعة ومنعزلا في حشد".

كان رئيسه المباشر في العمل موظفا هندوسيا يكره الإسلام، ولم يفوّت فرصة ولو بسيطة حتى يمرر تعليقاته التي تستخف بالإسلام، ولأنه كان رئيس غلام أحمد في العمل ظن أنّه سيغلبه في النقاش الديني كذلك، إلا أنّ هذا الظن صعب التحقق مع غلام أحمد. نصحه أحد أصدقائه أن يدع رئيسه يهزمه في النقاشات "حتى تسهُل الأمور عليك" إلا أنّ غلام أحمد رفض رفضا باتّا لأنه لا يستطيع ترك الإسلام يُهاجم دون دفاع على حدّ تعبيره. وهكذا فقد احتمل عواقب عدم صمته إزاء التعليقات اللاذعة السطحية التي يُـنزلها به رجل خبيث على مرءوسيه. تحدث أحمد في فترة لاحقة عن مدى ضيقه من حياته في سيالكوت لأنّ وظيفته فيها أجبرته على مقابلة كافة أنواع الناس:"كنت أتحير من رؤيتهم؛ إذ وجدت أنّ الرغبات القلبية لدى معظمهم كانت مقتصرة على جمع المال بطرق مشروعة أو غير مشروعة، كما وجدت جُلَّ مساعيهم في الليل والنهار مقتصرة على إحراز التقدم الدنيوي فحسْب في هذه الحياة القصيرة. ولم أجد سوى القلة النادرة من بين الموظفين الذين كانوا يذكرون عظمة الله تعالى فيروّضون أنفسهم على الأخلاق الفاضلة من الحِلم والكرم والعفة والتواضع والانكسار ومواساة الخَلْق والطهارة الباطنية وأكل الحلال وصدق المقال والورع".

"بل وجدت الكثيرين منهم إخوان الشيطان في التعالي والعجرفة والانحراف الخُلُقي والإهمال تجاه الدين والاتصاف بأنواع الأخلاق الرذيلة. وحيث أن حكمة الله تعالى اقتضت أن أتعرف على مختلف أنواع البشر فقد

قَدَّر الله لي أن أكون في معية جميع تلك الأنواع من الناس. غير أني قضيت تلك الأيام كلها في ألم وشعور بالكراهية لحياة الإثم والفساد".

في عام ١٨٦٨ أي بعد مرور أربع سنوات على وصوله إلى سيالكوت تلقى غلام أحمد رسالة من والده تطلب منه أن يستقيل من وظيفته ويعود فورا إلى بيته لأنّ والدته مريضة وبخطَر وقد نفّذ أحمد ما قاله والده. وفي محطة القطار في بطالا كان والده قد أرسل له عربة بحصان لملاقاته وقد أخبره سائق العربة أنّ حال أمّه قد ساء كثيرا، وشعر غلام أحمد بالقلق العميق على والدته. في حقيقة الأمر كان كلام السائق معه حيلة لتخفيف وقع الخبر الحقيقي عليه إذ كانت أمه قد توفيت.

كانت أمه – السيدة جراغ بي بي– سيدة نبيلة لطيفة وكريمة مع كل المحرومين والفقراء. وقد افتقدها غلام أحمد بشدة وكثيرا ما كان يدعو لها بالرحمة.

الفصل السابع

الإسلام في تراجع

يخصص أحمد الآن جُلّ يومه لدراسة القرآن الكريم والأحاديث النبوية والسنة، إذ جمع في هذه المرحلة كَمّا هائلا من تفاسير القرآن الكريم من مختلف الآراء ووجهات النظر التي ظهرت على مدى قرون طويلة، وصار لديه العديد من كتب التفسير حتى إنه جمع الكتب نفسها من إصدارات مختلفة. كان لديه كذلك الإنجيل من إصدارات مختلفة وكان قد حصل عليه من البعثات البريطانية الأمريكية التبشيرية البروتستانتية ومن كنيسة الروم الكاثوليك أيضا، فضلا عن التوراة من اليهود الموجودين في المنطقة، وقد عكف على دراستها جميعا بالإضافة إلى كتب وتفاسير كل من الهندوسية والبوذية وديانة السيخ. كل هذه الدراسة جرت طبعا في غرفته المستأجرة، الغرفة الصغيرة نفسها التي لم يبرحها في جناح الرجال الخارجي من المنزل الذي سكنه بجسده بينما عاش بقلبه وعقله في دراسته الدينية. لم يكن في هذه الغرفة مضطرا إلى قطع دراسته بالخروج لتناول الطعام أو أن يقاطعه خادم محضرا غداءه؛ إذ رتّب أحمد لهذا الأمر بأن يوضع الطعام له في سلة يسحبها إلى غرفته حينما تكون جاهزة بحيث لا ينقطع عن القراءة والدراسة أثناء أكله.

لقد عدَّ أحمد – ومسلمون كثيرون كذلك– تلك الفترة فترة هجوم على الإسلام بل وتراجع له؛ إذ فتح الاحتلال البريطاني في الهند أبواب شبه القارة الهندية على مصراعيها للبعثات التنصيرية التي كانت معظمها من البريطانيين بالإضافة إلى بعثات من بلدان أخرى كالولايات المتحدة الأميركية وألمانيا

وبعض الدول الأوروبية الأخرى التي عدّت الحكم البريطاني فرصة أتاحها الرب لتحويل الشرق إلى المسيحية.

لم تكن المؤسسة العسكرية أو الحكومة المدنية البريطانية تضع مسألة التنصير سببا جوهريا لوجودها في الهند، حتى مع الضغوطات التي حاولت البعثات التنصيرية ممارستها على الحكومة البريطانية، إلا أن الحكومة البريطانية سمحت لجميع الأديان بالوجود والتنافس بحرية دون تدخل أو انحياز لطرف. لقيَ هذا الجو من السلام البريطاني كل الاستحسان والقبول في نفس أحمد. وعلى هذا الأساس لم تلق المسيحية أي معاملة تفضيلية من قبل الحكومة البريطانية بل كانت على قدم المساواة أسوة بالأديان الأخرى مع أنها ديانة الدولة المحتلة، لذا اعتقد كثير من الناس أنّه إذا رغب شخص ما بتحسين وضعه فلا بد من أنَّ تنصّره سيساعده كثيرا في مساعيه لتحقيق التقدم الدنيوي، ولكنّ هذا لم يكن حقيقيا. فنادرا ما حاول البريطانيون فرض ثقافتهم؛ لقد كانوا يعون حقيقة أن للهنود ثقافتهم الخاصة. ولكن كون المرء مسيحيا يعطيه الفرصة للتعلم في المدارس التبشيرية المسيحية وللتعليم الغربي بشكل عام، كما ويحسن من فرص دخول الوظائف الحكومية.

كانت المسيحية دينا جديدا على معظم الهند إلا أنّ وجودها أصبح ملحوظا بعد الاحتلال البريطاني، وبينما كان القساوسة التنصيريون يضمون المزيد من المتنصرين كان الوضع يبدو لكثير من المسلمين أن زعماءهم قد تهافتوا على فتات المناقشات والجدالات العقيمة، وكثُرت المساجد الخالية من المصلين. تنبأ نبي الإسلام محمّد بأنّه سيأتي وقت على المسلمين يكون اهتمامهم منصبا على قشور الدين لا لبابه، فقد يبنون المساجد الجميلة المنظر البديعة الزخرف ويكسون المصاحف بالديباج والحرير، إلا أنّ مساجدهم ستكون خاوية وقرءانهم سيكون مهجورًا لأنهم سيهجرون العمل بتعاليمه. فالصلوات الخمس المفروضة في الإسلام تركها الكثيرون في تلك الفترة،

وصارت للبعض الآخر منهم عادات خالية من الروح مقتصرة على الشعائر الظاهرية. وقد أجْمَل محمد هذه الفترة من حياة الإسلام في الحديث المعروف عند المسلمين[٢]: "يأتي يوم على المسلمين لا يبق من القرآن إلا رسمه ومن الإسلام إلا اسمه".

كان تساؤل أحمد الدائم كيف آلت حال المسلمين إلى هذا الانحطاط، وكيف أصبح الإسلام ممزقا بينما تكثف الأديان الأخرى أنشطتها التبشيرية؟ ووصف مشاعره المضطربة حينها في قصيدة باللغة الفارسية تقول ما معناه: "لقد هوى الإسلام أمام عينيك إلى التراب فأي عذر تحتجّون به عند الله أيها المسلمون الغارقون في الترف؟"

وُجِدت الإرساليات التنصيرية في الهند وفي جميع المستعمرات الأوروبية حول العالم ولكِن على الجهة الأخرى لم يكن هناك أي إرساليات إسلامية في أوروبا والولايات المتحدة الأميركية؛ تجمد وضع الإسلام ولكنه لم يكن يتقهقر. إذ ومع إهمال المسلمين للقيم الأخلاقية الأساسية في التعاليم الإسلامية كما قال أحمد، لابد أن يكون عندهم يقين واعتزاز بالـهَدْي القرآني وصِدقِه وبالتعاليم الشرعية التي فيه التي من شأنها تنظيم كافة جوانب تعاملاتهم الحياتية اليومية.

قال أحمد بأن المسيحيين آمنوا بصدق الإنجيل بغض النظر عن الاختلافات بينهم حول القضايا الصغيرة، ولكنّ المسلمين كما قال انقسموا إلى قسمين فيما يتعلق بأساسيات الإسلام؛ فكان هناك من أعطوا القرآن الكريم المنزلة الأسمى ولكنهم من جهة أخرى رفضوا الأخذ بالأحاديث النبوية الشريفة وحسبوها غير موثوقة، أما الفريق الآخر المناقض فقد أعطى الأحاديث النبوية الأهمية الكبرى حتى إنهم جعلوا الحديث حاكما على القرآن. اعتقد مرزا

[2] أورده البيهقي في " شعب الإيمان " (٣/٣١٧-٣١) عن عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه. (المترجمة)

غلام أحمد أنّ القرآن هو المصدر الأول والأعلى للإسلام وتعاليمه، وأنّ أحاديث الرسول هي مصدر هداية لفهم القرآن الكريم. أي أنّ الأحاديث يجب أن تعرض على القرآن وما وافقه أُخذَ به. وأوضح أنّ سُنّة النبي محمد العملية وصلت بالتواتر الثابت الخالي من الرَّيْب عن طريق صحابته الذين هم المصدر الموثوق للهداية النبوية، أمّا الأحاديث اللفظية فلم تُجْمع إلا بعد وفاة النبي محمد. واعتقد أحمد أنّه يجب عرض جميع الأحاديث على القرآن حتى يُحْفَظ للإسلام الكنز العظيم من الهَدْي الُمتضَمَّن في الأحاديث النبوية.

أمّا القرآن فهو كلام الله الحق الموحى به من الله والذي لا يقبل فيه أحمد أي نقاش، إلا أنّه ووفقا لبعض المسلمين فإنّ بعضا من آيات القرآن – والتي قد تصل إلى ستمائة آية– قد نسختها آيات أخرى.. رفض أحمد فكرة النسخ في القرآن بتاتا؛ واعتقد أنْ لا نسخ لآية أو كلمة أو حُكْم في القرآن، فكلمات الله التي أوحى بها للنبي محمد لا يطرأ عليها البتّة أدنى تبديل أو حذف من أي إنسان بأي شكل.

كتب عنه محمد حسين البطالوي – صديق طفولته في بطالا:"عُرف عنه منذ صغره حبه لكتب المدائح النبوية والأذكار، وفي أثناء الدراسة كان يحتفظ بكتب مثل تحفة الهند وتحفة الهنود فضلا عن كتب السنة والشيعة والمسيحية وكتب المناظرات. لقد كانت تملأه الرغبة في الكتابة دفاعا عن الإسلام لأنها برأيه السبيل إلى ظهور الإسلام على جميع الأديان."

الفصل الثامن

المدافع عن الدين

دأب مرزا مرتضى بين حين وآخر على الضغط على ابنه بهدف دفعه إلى مزاولة عمل يؤمن له معيشته لباقي حياته، وعرض عليه عملا في التعليم الحكومي في ولاية كابورثالا القريبة من قاديان إلّا أنّ أحمد رفضها، وكتب أسباب رفضه في رسالة إلى أبيه قائلا فيها:"ليس لي أي رغبة في تولي أي نوع من الوظائف، إنّ كل ما أريده هو ثوبين من النسيج الخشن البيتي الصنع وكسرة من الخبز من أي نوع أو أي شكل يمكن توافره. هذا كل ما في الأمر". وفي رسالة أخرى قال:"وبناء عليه فإني أرجو أن أقضي باقي أيامي في ركن منعزل نائيا بنفسي عن صحبة الناس ومنشغلا بذكر الله تعالى... فلا شيء دائم في هذا العالم... إنها دنيا فانية".

علّق مرتضى لصديق له على توجهات ابنه قائلا:"إنّ توجهه يسعدني لأني أعلم أنّ الطريق الذي يسعى وراءه هو الطريق المستقيم". ولكن وبين حين وآخر، ما يلبث قلقه على ابنه أن يطفو على السطح كما عبّر عنه لصديقه قائلا:"إنه لا يعرف طلوع الشمس من مغربها ويجلس طول اليوم محاطا بالكتب باستثناء أوقات ذهابه إلى المسجد".

ومع تحدُّر أحمد من عائلة معروفة إلا أنّه بسبب عزلته لم يعرفه سوى قلة من الناس المهتمين بالدين الذين يقدِّرونه كعالم ضليع بالقرآن. وبسبب هذه الصفة المعروفة عنه اُستُدعِيَ لمواجهة زميله السابق محمد حسين البطالوي.

سافر محمد حسين إلى دلهي للدراسة وعاد منها عضوا في جماعة أهل الحديث، بل مُنظِّرا لهذا التيار الديني الذي تبنى وجهات نظر متشددة ما أثار حالة من الخصومة بينه وبين جيرانه. لذا وعند زيارة أحمد لبطالا استغل رجل

يعرف أحمد فرصة وجوده بغية إرباك وهزيمة محمد حسين، ليكون أحمد بطلهم الذي يهزم محمد حسين ويبين فداحة الخطأ الذي تعتقده جماعة أهل الحديث.

وانطلق أحمد وسط المجموعة في أثر محمد حسين لمواجهته وكلما تقدمت المجموعة في المسير انضمت إليها المزيد من الحشود المتحمسة لمشاهدة المعركة الفكرية الوشيكة الحصول، مدفوعين بالشوق لمرأى هزيمة جارهم. وأخيرا وجدوا محمد حسين في المسجد، فجلس أحمد قبالته ولم يتكلم حتى خفتت الأصوات وهدأ الصخب، وكان سؤال أحمد الأول هو الأساس الذي سيبنيان عليه نقاشهما، قال أحمد: ما هي وجهة النظر التي تتبناها؟ وما هي دعواك؟ فرد محمد حسين قائلا: "إن وجهة نظرنا هي أنّ القرآن الكريم له المقام الأسمى وهو أساس كل معتقداتنا وأن أحاديث سيدنا محمد – صلى الله عليه وسلم- كما هي مروية في الصحاح تأتي في المرتبة الثانية بعد القرآن وأن أي شيء يتعارض أو يتناقض بأي شكل مع هذين الأساسين فلا يستحق أن يُـــنظر فيه على الإطلاق بغض النظر عن قائله". فأبدى أحمد تعجبه فور سماعه هذا الحديث وقال: "إذا كانت هذه حقا وجهة نظرك التي تعتقد بها فهي عين الصواب ولا أملك أن أقول أي شيء فيها"، ثمّ وقف على قدميه يريد العودة إلى قاديان لأنّه لم يجد ما يقال وانتهى النقاش المزمع. عندها أصابت جموع الحضور الدهشة وعلا صياحهم الغاضب وخاصة الرجل الذي كان وراء إحضار أحمد إلى هذه المواجهة فاهتاج وماج غاضبا: "يا للعار! يا للعار! لقد جلبت لنا المهانة، ألم يكن في جعبتك شيئا تقوله له على الإطلاق؟" لم يبرح أحمد مكانه وبقي واقفا وقال: "كيف يمكن أن أقول شيئا، كيف يجرؤ إنسان أن يقول عن شريعة الله الموحى بها إلى النبي محمد والمحفوظة في القرآن الكريم بأنها ينبغي أن تنحى جانبا؟ كيف يمكن أن يتجرأ

شخص ما ويعطي الأولوية للأحاديث النبوية؟ هناك بون شاسع بين الاثنين.."

سخر القوم من أحمد وحسبوه قد استسلم بسهولة بالغة، ولكنّه لم يشعر بالعار بسبب كلامهم ورأيهم لأنه لا يملك سوى أن يقول الحق وأنّه لا شيء ينبغي أن يُقدّم على كلام الله تعالى، كما كرر مرارا. وذكر أحمد في وقت لاحق أنه تلقّى وحيا بخصوص تصرفه في ذاك اليوم:

"لقد رضي ربّك بفعلك هذا، وسيباركك بركات كثيرةً".

افتُـــتحت في بطالا إرسالية تنصيرية ولكن على عكس سيالكوت، لم يكن لأحمد أي اتصال بهذه المدينة، لأنّه ببساطة لم يسكن فيها، وظنّ أنّ الدفاع عن الإسلام سيكون أمرًا سهلا على المسلمين الموجودين في البلدة. ثمّ حدث أن جاء مسلم من بطالا إلى أحمد طالبا منه المساعدة في المعركة الدائرة لصدّ المساعي التنصيرية في بطالا، وكان هذا الشخص موظفا في مصلحة الموارد الحكومية واسمه (نبي بخش)، فكتب له أحمد بعض التعليقات حول المواضيع التي يحتمل أن يثيرها القساوسة التنصيريون. وكان يرجع في بحثه إلى إنجيل مطبوع في (ميرزا بور) كان قد درسه سابقا مرارا وكتب التعليقات على هوامشه وحضّر مقاطع من النصوص الإنجيلية لنبي بخش حتى يحفظها عن ظهر قلب ويستخدمها.

في حديث خاص بين أحمد وأحد الباحثين عن الحقيقة أوصى بانتهاج طريقة التحقيق في الدراسة الدينية والتي تتضمن مقارنة عميقة بين تعاليم الإسلام وبين وجهة نظر الأديان الأخرى. ووفقا لمنهجه في التحقيق فإنّ الأسئلة الإلزامية التي ينبغي أن تثار لابد أن تركز على المواضيع الجوهرية التي تهزّ الديانات الأخرى في الصميم لأنّ المستمع — وفقا لأحمد - لن يجد في الديانات الأخرى الإجابات الشافية. لذا فعندما اشتدت وتيرة الهجوم على الإسلام قرر أحمد أن يدخل في معركة المناظرات.

في تلك الفترة سادت شبه القارة الهندية ثلاث ديانات رئيسة؛ هي الإسلام والهندوسية والبوذية، وساد التسامح النسبي بينها لفترة طويلة خلت ولم يحدث أن تهجّم أصحاب ديانة على ديانة أخرى غير أنّ هذا الهدوء تعكّر بعد ظهور طائفة الآرياسماج الهندوسية التي أنشأها وأرسى تعاليمها (سوامي ديانَنْد) وكان هذا الشخص يعارض الإسلام بخبث وضراوة، ودأب على إشاعة الادّعاءات المعادية لنبي الإسلام والقرآن الكريم. فرأى أحمد أنّه لابدّ من الرد على هذه الهجمات وتفنيد مزاعم سوامي. ولأنّه لم يرغب في ترك خَلْوته فقد طلب من أحد أفراد عائلته الذهاب نيابة عنه للمواجهة وقراءة الردود التي كتبها هو فوافق قريبه، وهكذا فإنّ أوّل رسائله ومقالاته التي أعدّها دفاعا عن الإسلام أعطاها طواعية لأشخاص آخرين ونشرت بأسمائهم منهم الشيخ (رحيم بخش) وكان رجلا مسنّا وهو والد محمد حسين.

ولكنّ التحدي الذي نشره باسمه وأعلنه على الملأ لم ينتدب أحدا فيه نيابة عنه. آمن أحمد بأنّ أساس كل الفضائل الأخلاقية الإنسانية هو الصدق، ووفقا لمعتقده هذا فإنّ أي إنسان يستطيع أن يحكم على قيمة أي ديانة من خلال هذا المعيار؛ بمعنى أنّ الدين الحق هو الدين الذي يشدد على أهمية الصدق. أمضى أحمد عشرين سنة يدرس مختلف الأديان واستنتج بأنْ لا دين شدّد على أهمية الصدق مثل ما فعل الإسلام. قال أحمد: "هل بمقدور المسيحية أو الهندوسية أو السيخية أن يأتوا باقتباسات من نصوصهم الدينية حول قيمة الصدق أكثر مما يمكن اقتباسه من القرآن؟" بل وزاد على ذلك: "هل يستطيعون حتى أن يأتوا بمقدار نصف أو ثلث عدد الاقتباسات التي يمكن أن آتي بها من القرآن؟". وذيّل هذا التحدي بمكافأة مالية قيمتها ٥٠٠ روبية لمن يقبل. لكنّ أحدا لم يفعل.

مرت الأيام وحدث لاحقا ما برهن عمليا على أنّ أحمد يعمل ويتصرف وفقا لمعتقداته بالإيمان بالصدق. إذ أرسل مرة مقالا لكي تتم طباعته ضمن

مغلف مفتوح من طرفيه حتى يكون وفقا لقوانين البريد مقالا للطباعة وليس طردا بريديا، وتضمن المغلف رسالةَ تعليمات لعامل المطبعة. ولكن لو كانت هذه الرسالة رسالة عادية لعُدَّ وضعها في المغلف انتهاكا لقوانين مكتب البريد التي قد تصل عقوباتها الصارمة إلى مبلغ ٥٠٠ روبية أو حتى ستة أشهر من السجن! وكان صاحب المطبعة التي أُرسل إليها المقال مسيحيا متعصبا وقام فور وصول المغلف بإخطار السلطات المعنية عن رسالة التعليمات. عندها استُدعي أحمد للمثول أمام المحكمة في غورداسبور بتهمة سلب مكتب البريد والتحايل عليه وعلى أثر هذه التهمة قام أحمد باستشارة محامٍ فأخبره الأخير أنّ السبيل الوحيد للخلاص من هذه التهمة هو إنكار وضعه رسالة التعليمات في المغلّف، وأنْ يدّعي بأنّ خادمه قام بذلك دون علمه حتى يوفّر عليه التكاليف. رفض أحمد بالطبع المشاركة في هذا التدليس، وعليه رفض المحامي الدفاع عنه، وتحمّل أحمد تبعات الدفاع عن نفسه في المحكمة فاعترف بأنّه وضع رسالة ضمن المغلف المحتوي على مخطوطة المقال، غير أنّها لم تكن رسالة اعتيادية وإنما تعليمات بحتة حول طباعة المقال ولهذا لم يحسب نفسه بقيامه بهذا ارتكب خطأ. وعلى الجانب الآخر، كان الموظف البريطاني الذي مثل مكتب البريد بليغا في دفاعه حتى أنّه صاغ دفاعا أبلغ من أن يكون في مثل هذه القضايا البسيطة أو هذا النوع من الانتهاكات إن صحّت. ولكنّ بعد كل إفادة من قِبَله كان القاضي يهز رأسه ويقول: "لا"، وفي حكمه النهائي قال القاضي بأنه لا ينبغي أن يُـغرّم الـمُدَّعَى عليه أي غرامة وأنّ الأمر كلّه لا يعدو كونه دعوى كيدية فلقد تأثر بتفسير أحمد الصريح والواضح وألغى القضية.

ذكرنا سابقا أنّ أحمد قرر الردّ على كل الهجمات على الإسلام فورا، وشرع بالردّ على كل إعلان وجد فيه معاداة للفكر الإسلامي أو حتى للأسس المشتركة لجميع الأديان.

صرّح سوامي ديانند أنّ عدد الأرواح لا نهائي وأنّه غير معروف حتى بالنسبة لله، وهذا زَعمٌ فنده أحمد وقدّم في تفنيده الحجج والبراهين الداحضة التي لم يملك على إثرها سكرتير زعيم طائفة الآريا سماج نفسه إلا أن يقدم إعلانا يقول فيه أنهم – أي الآريا سماج- لا يتبعون سوامي ديانند اتباعا أعمى وأنهم لا يقبلون كل ما يقدمه أو يقوله إلا إذا ثبتت صحته.

ولكن الهجوم لم يتوقف، لذا رأى أحمد أنّه إزاء الهجوم المتكرر على الإسلام فالمطلوب هو أكثر من مجرد دفاع وقرر أنّه على الإسلام التصدي للمعتدين وملاحقتهم.

يقول عالم مسلم في هذا الموضع: "إنّ دراسة حضرته العميقة للقرآن الكريم وتفكيره العميق في الحقائق الأزلية وتوكله الكامل على فضل الله تعالى ونعمه، فضلا عن يقينه الكامل الذي ناله عبر اتصاله وتواصله مع مولاه عزّ وجل؛ كل هذا زوده بالصفات والشيم التي يجدر أن يتحلّى بها بطل الإسلام". وهكذا مسوقا بالحب الإلهي والغيرة على دينه شرع في تبني مشروع لم يهدف فقط إلى الدفاع عن الإسلام إزاء الهجمات الخبيثة العدائية وإنما إلى إظهار تفوق دين الإسلام على جميع الديانات الأخرى، لذا فقد عزم على تدوين كمالات الإسلام في عمل ضخم أسماه (البراهين الأحمدية) وكان العنوان الكامل لهذا الكتاب هو "البراهين الأحمدية على حقيِّة كتاب الله القرآن والنبوة المحمدية". لقد كان تأليف هذا الكتاب الضخم عملا جبارا، استعان أحمد عند كتابته بالمصادر الموجودة في مكتبة عائلته، التي على الرغم من تدمير معظم محتوياتها أثناء حكم السيخ إلا أنها أعيد إحياؤها بقدر لا بأس به من أمهات الكتب والمراجع الإسلامية، فضلا عن مكتبته الخاصة. وكان هذا فقط هو جُـــلّ ما استعان به في عمله لأنّه لم يكن هناك إمكانية الوصول إلى أي مكتبة خارج قاديان.

وهكذا أثمرت سنوات التأمل والدراسة العميقة لمعاني كل آية ثمارا جلية في هذا العمل.

يعلّق سلطان أحمد – ابن أحمد البكر – على هذه الفترة بقوله: "أعتقد يقينا بأن والدي قد قرأ القرآن حتى تلك الفترة ما يقرب العشرة آلاف مرة". ويمكن أن يُلحظ هذا من خلال أنّه عندما تدعو الحاجة إلى الاستشهاد بآية قرآنية واقتباس نصها الحرفي فإنه كان يعرف موضع الآية بالضبط دون بحث، وكان بمقدوره تمحيص وربط الآيات القرآنية بسرعة وعمق وفهم وإدراك كبير للمعاني.

كانت طريقته في الكتابة مثيرة للانتباه، إذ كان في غرفته دواتين للحبر وُضعت كل واحدة منهما على طبق صغير ثُبّتت فيه بقليل من الصلصال حتى لا تنزلق، ووُضعَت في أحد طرفي الغرفة وكان يتمشى بينهما، إذ كان يكتب ماشيا. أي أنه كان يملأ قلمه ويكتب ماشيا إلى أن يصل الدواة الأخرى فيعاود ملءَ القلم وهكذا؛ وبهذا كان يمكنه الكتابة دون توقف.

الفصل التاسع

أعمدة النور السماوي

إنّ أسلوب حياة أحمد في شبابه مميز ويستحق التأمل. هناك عدد من الشهود الذين عاصروه أثناء شبابه، والذين يمكن من خلالهم التعرف عن كثب على أسلوب حياته، فهناك (مزرا دين محمد) ابن عمه الذي لم يعلم بوجود ابن عم له أصلا، وقال: "كان عندي انطباع بأن لعمي مرزا غلام مرتضى ابنا واحدا إذ أنّ غلام أحمد كان يعيش في عزلة داخل البيت وكنت نادرا ما أصدفه غير أني كنت أراه غالبا في المسجد وعرفت من هناك شيئا فشيئا أنّه ابن عمي مرتضى الثاني". وبعد ذلك قرر أن يلتقي به: "لقد كنت جالسا في المسجد مع عمي حين رأيت غلام أحمد يغادر المسجد فركضت مسرعا باتجاهه ولحقت به ثم أدركته عندما كان قد دخل غرفته وبدأ يوصد مزلاج الباب من الداخل عندها لـــمحني وفتح الباب وسألني عمّا إذا كان لي عنده حاجة فأجبته بأني فقط أردت أن ألتقي به، فأدخلني وأجلسني وسألني من أين قدمت. ومنذ ذلك الحين تعارفنا". وفعلا بعد ذلك اللقاء كان دين محمد يزور أحمد في كل مرة يأتي فيها إلى قاديان ولم يكن فقط يكتفي بالزيارة بل كان يدرس عنده كذلك وكان يبيت في غرفته حينما كانا يعملان ويدرسان لوقت متأخر في الليل.

كانت غرفة أحمد صغيرة بسيطة الأثاث بل لم يكن بها من الأثاث سوى قطعتين هما (شاربوي) أي سرير خشبي خشن ذو حبال رابطة تشكل شبكة كانت توضع فوقها بطانية أو فراش، أما القطعة الثانية فمقعد خشبي وحَسْب. ولما كان دين محمد يزوره كان يصرّ أحمد على أن ينام دين محمد على السرير.

اعتاد أحمد على الاستيقاظ عند الساعة الثانية بعد منتصف الليل لأداء صلاة التهجّد وكان يوقظ ابن عمه دين محمد بِرَشّ قطرات لطيفة من المياه على وجهه كما كان يفعل النبي محمد قبل ١٣٠٠ عام في الصحراء العربية. ولصلاة الليل أهمية خاصة. جرى في وقت لاحق وبعد عدة سنوات حوار بين أحمد وبعض زوّاره حول صعوبة القيام من النوم في وقت التهجد فأخبرهم أحمد أن يجربوا طريقته التي طبقها بالفعل: "أظل أردد في نفسي قم يا أحمد للصلاة. وأقوم بالفعل". وفي الواقع لم يكن أحمد يكتفي بصلاة التهجد وحسب بل كان يظل مستيقظا ويشعل مصباحا خزفيا ويقضي باقي ليله بالصلاة والدراسة حتى يؤذّن لصلاة الفجر أي أنّه كان يسهر معظم ليله في الصلاة بصمت.

كثيرا ما تحدث أحمد عن أهمية الصلاة؛ في قصة ذات علاقة زاره شخص يوما ما وأخبره بأنه يصلي ولكنه لا يعتقد أنّ لصلاته عظيم القيمة لذا فهو لا يهتم بها فعلا فأجابه أحمد على الفور: "سواء أعجبك الأمر أم لم يعجبك فلزام عليك أن تستمر في صلواتك، إنّ الشخص المريض يرفض دائما أن يتناول الطعام ولكنّ الأشخاص الذين يعتنون به يحثونه عليه ولو على القليل منه وحتى إنهم يضطرون في بعض الأحيان إلى إكراهه على الأكل، وبالمثل فسواء رغبت فعلا في الصلاة أم لم تفعل فعليك الاستمرار في تأدية صلواتك" وأردف قائلا: "عندما أواجه أمرا لا أستطيع استيعابه أو عندما أصادف أي صعوبة فإني أتناساها وأشرع في الصلاة لله تعالى أن يحل المشكلة". وفي موضع آخر قال أحمد عن الصلاة ما معناه إنّ الصلاة أشبه بحفر بئر: "... وتأتي بعض الأوقات يكلّ فؤاد الناس ويتوقفون عن الحفر غير أنهم لو ثابروا وتابعوا الحفر قَدَمًا واحدة لوصلوا إلى الماء العذب. وهكذا الحال مع الصلاة فعلى الإنسان أن يستمر على أدائها، فلا فائدة من الصلاة بحرارة لبضعة أيام فقط ثمّ التوقف، إذ لا بد من الاستمرار".

وحتى عندما كان يتقلب في فراشه فإنه لم يكن يتوقف أبدا عن التفكير والدعاء لله و لم تكن شفتاه تتوقفان عن الحركة، كما روى عنه الذين حدث وناموا في غرفته، إذ قالوا إنهم كانوا يسمعونه في هَدْأة الليل إما مسبحا بحمد الله أو مصليا على النبي محمد.

كثيرا ما كان أحمد ينصح بهذه النصيحة: "اجعلْ من الذكر باللسان أو القلب عادة عندك كلّما استيقظت في الليل أو تقلبت في فراشك".

أمّا في مترل المرزا مرتضى الذي كان مفتوحا للضيوف متى حَلّوا، وسواء أكانوا أقارب أم عابري سبيل نزلوا على عائلة المرزا لكونه البيت الأكبر في القرية، كان الضيف يُقرى دائما بوجبة. لكنّ أحمد لم يكن يحضر المائدة، وكالعادة كان طعامه يوضع في سلة يدلّيها من شباك غرفته التي في الطابق الأول. وعندما كان دين محمد يترل في بيت الميزرا (أي والد غلام أحمد) كانت وجبته أيضا توضع في ذات السلة، وتصادف مرة وجود زائر آخر هو (حافظ معين الدين) فطلب أحمد من دين محمد إحضار وجبة له أيضا وكان يسأل حافظ معين عندما يوشك أن ينهي طعامه إذا كان يرغب في المزيد: "كان مرزا غلام أحمد يعطيه حصته وأحيانا حصتي أنا أيضا". كما روى دين محمد أيضا: "كان مرزا غلام يأكل ببطء شديد ويأخذ وقتا طويلا بين اللقمة والأخرى"، وكان يحدث في بعض الأحيان أن يستغل حافظ العرض السخي المقدم من أحمد ويأكل حصته وحصة دين محمد كذلك، فيقوم أحمد بإعطاء دين محمد قطعة نقدية ليشتري بعض الحبوب المحمصة الرخيصة الثمن لتكون طعامه لباقي اليوم، و لم يكن يتناول منها سوى النـــزر اليسير. حتى من هذا الطعام البسيط اكتفى أحمد بالقليل. قال دين محمد: "كان حضرته يضع بضع حبات من هذه الحبوب في فمه ويبقى يمضغها لوقت طويل".

قد يظن البعض أن أحمد كان زاهدا متوحدا مكتئبا، لكنّ الحقيقة ليست كذلك، فأصدقاؤه يذكرون طريقة حديثه البهيجة وكيف أنه كان يضرب

فخذه حينما كان يريد التأكيد على أمر ما ومع أنّ كثيرا من أهل القرية كانوا يخافون الاقتراب من والده المهيب المتسلط غير أنّ هذا لم يكن الحال معه. ووفقا لشهادة دين محمد: "لقد خَبرته إنسانا حلو المعشر لم يكن يغضب أبدا، لم نكن نخاف أو نتردد قط من أن ندنو منه كلّما رغبنا في ذلك. لم يكن ليردّنا بحجة الانشغال أو التوعك حتى إننا كنا أحيانا نزعجه في نومه ولكن ومع هذا كان يقوم ويفتح لنا الباب ولا يشعرنا بأنه كان من الأفضل أن لا نزعجه"... "ولأنّه كان يغلق دائما بابه على نفسه فكنتُ أحيانا أقوم برمي بعض الحصى قرب الباب، وكان يستجيب فاتحا بابه حتى لهذا الصوت البسيط".

كان دين محمد يدرس الطب، وورد في أحد كتبه الدراسية بحث عن مرض الاكتئاب من حيث الأعراض والمسببات، ووفقا للكتاب فإنّ أحد الأعراض المذكورة هو حياة الانعزال، عندها علّق أحمد بأن الأطباء لم يتركوا أحدا فهم صنفوا من يعيشون حياة العزلة تحت فئة الـمجانين. ويسترجع دين محمد: "عندها ابتسمتُ وقلتُ ممازحًا: تمامًا كما يقولون عنك. ولقد شاركني الضحك دون أن يوبخني أو يعنفني لكنني لاحقا شعرتُ بالخجل الشديد من تعليقي ولكنّي حتى في حينها لم أشعر أني بحاجة إلى اعتذار رسمي عما بدر مني لأني أعرف أن مرزا أحمد لم يكن يعير أدنى اهتمام لهذه الصغائر، لم يضمر في نفسه أي رغبة في الانتقام من أي إنسان".

ولـمّا شارف عام ١٨٧٥ على الانتهاء رأى أحمد رؤيا تفيد بأنّ عليه الآن أن يحذو حذو الأنبياء؛ وأن يبدأ في الصيام لفترة معينة. وحتى لا يُقلق أباه عزمَ القيام بهذا الأمر في سرية ومن أجل ذلك اتّفق مع بعض الصبية الفقراء أن يـمرّوا تحت شباكه في أوقات معينة حتى يتمكن من توزيع طعامه عليهم. وقلل استهلاكه للطعام لدرجة أنه كان يتناول وجبة واحدة فقط بعد المغرب، وبعد أسبوعين أو ثلاثة من بدء الصيام قلل كمية الطعام في

تلك الوجبة الوحيدة حتى انتهى به المطاف إلى تناول بضع كسرات من الخبز خلال ساعات اليوم الأربع وعشرين. وكتب أحمد بنفسه عن فترة الصيام تلك: "لقد استمر بي الحال على هذا المنوال مدة ثمانية شهور أو تسعة، ورغم ضآلة الطعام الذي كنت أتناوله والذي لم يكن ليصبر عليه ابن الشهرين أو الثلاثة.. فإنّ الله تعالى قد حفظني من كلّ سوء ومكروه. فمن العجائب التي حظيت بها أثناء الصيام الذي من هذا النوع، تلك المكاشفات اللطيفة التي كُشفت علي إذ قابلت العديد من الأنبياء الكرام وبعض كبار الأولياء والصالحين المسلمين الذين خلوا من قبل، ففي إحدى المناسبات رأيت في حالة اليقظة التامة رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو في رفقة الحسنين وعلي رضي الله عنهم وفاطمة رضي الله عنها. هذا لم يكن أي نوع من المنامات لقد حصل هذا أثناء اليقظة التامة. وبالإضافة إلى ذلك رأيت الأنوار الروحانية متمثلة على شكل أعمدة بألوان مختلفة الأبيض والأحمر والأخضر وكان جمالها ووقع أثرها شيئا يفوق الوصف، لقد كانت تمسّ قلبي لدرجة أنّ مجرد رؤيتها تبعث نشوة روحانية خاصةً فيه بما لا يمكن مقارنته مع أي شيء آخر. رأيت أنّ تلك الأعمدة النورانية هي تمثيل للحب المتبادل بين الله والإنسان إذ كانت بشكل نور يصعد من القلب ويقابله نور ينـــزل من السماء وعندما يلتقيان كان يتشكل هذا العامود النوراني. إنّ هذا النوع من التجارب الروحانية ليس مما يدركه أهل الدنيا ولكن هناك من قد وهبهم الله تعالى معرفة هذه الأمور".

"لقد استفدت كذلك من خلال تجربة الصيام هذه أنني تبيّنت استطاعتي إنْ اقتضى الحال على تحمّل الجوع الشديد لفترة طويلة من الزمن. وقد خطر ببالي أيضا أكثر من مرة أنه إذا أُجبر شخص بدين وكان مصارعا قويا أيضا ليحتمل الجوع معي فإنه قد يموت قبل أن أشعر أنا بالحاجة إلى الطعام. إني على يقين بأنّ الذي يخلد إلى حياة التنعم والراحة فلا يسمو أبدا إلى المراتب

الروحانية غير أني لا أُسدي هذا النصح إلى كلّ واحد أن يقوم بمثل هذا الصيام، كما لم أقم به بناء على اختياري، اعلموا أنني تحملت هذه المشقة الجسدية بأمر من الله تعالى- وقد تلقيته بواسطة الكشف الصريح- إلى ثمانية أو تسعة شهور ذقت فيها الجوع والعطش، و لم أعمد إلى تكرارها إلا نادرا".

في عام ١٨٧٦ بلغ مرزا مرتضى (والد أحمد) من الكبر عِتيًّا وناهز الثمانين، وانتابه شعور بدنو الأجل من جهة والشعور بالندم على فرصة العمر التي أضاعها بانكبابه على المشاغل الدنيوية، وقد روى في ذلك الرؤيا التالية: "رأيتُ رسول الله صلى الله عليه وسلم سائرا نحو منـــزلي في مقام عظيم كأنه ملك قدير، فتقدمت نحوه للترحيب به وحين اقتربتُ منه جال في فكري أن أقدم له هدية فوضعتُ يدي في جيبـــي ولكني لم أجد فيه سوى روبية واحدة وعندما أمعنت النظر فيها تبين لي أنها عملة مزيفة". يفسر مرتضى هذه الرؤيا بأن حب الله وحب النبي محمد حينما يكون مشوبا بحب الدنيا الدنسة فإنه يصير مثل العملة المزيفة. وكان مرتضى مفعما بمشاعر الحسرة، كثيرا ما يردّد بيتا من قصيدةٍ لوالده ألفها حين كان منفيا بعيدا عن موطنه ومجردا من أملاكه، تقول الأبياتُ ما معناه: "كلما أعددت خطة سخر القدر من عدتي". وفي أواخر أيامه صار يطلب من أحمد أن يقرأ له في الأمسيات القرآن الكريم والأحاديث، وعلى الرغم من ارتياحه لصحبة ابنه إلا أنّه لم يزل في خوفه على سبل معيشة ابنه بعد وفاته.

امتلكت العائلة بعض المنازل والمتاجر في بطالا وأمرتسر وغورداسبور وكذلك في قاديان طبعا، غير أنّ قيمة الإيجار العائد من هذه الأملاك كان ضئيلا، بالإضافة إلى ذلك فإنّ هذه الأملاك سوف تقسّم بين أحمد وأخيه الأكبر؛ بمعنى أنّ نصف قيمة الإيجار الحالي هي الدخل الذي سيعود على أحمد وكان هذا مبلغا أقل من كاف. عندما كانت والدة أحمد على قيد الحياة كانت تحميه من غضب والده وحنقه عليه أما الآن فإنّ هذا الغضب ينفجر

أحيانا في وجهه ويتهمه والده في بعض الأوقات بأنّه (مُـــلّا)- أي شيخ- عديم الفائدة وأنّه كاهن قروي عاجز عن كسب قوته ويعتمد على الآخرين في معيشته، وفي فورات الغضب هذه كان يقول كيف يمكن لهكذا شخص – على حدّ تعبيره- أن يكون ابنه. وصحيح أنّه استهزأ بأسلوب حياة ابنه إلا أنّه سخر من معيشة نفسه كذلك.

وفي محاولة منه لتحسين حياته قرر مرتضى أن يبني مسجدا في قاديان، فحاول في بادئ الأمر أن يسترجع مسجدا سبق للسيخ أنِ استولوا عليه إبان سيطرتهم على قاديان وحوّلوه إلى معبد لهم ولكنّه خسر المعركة القضائية اللازمة لذلك فقرر اختيار موقع غير مأهول كانت السلطات المحلية قد وضعت يدها عليه عند دخول السيخ قاديان. ولـــما علم مُلّاك الأرض حينها بنيّة مرتضى واعتزامه بناء المسجد، رفعوا سعر الأرض أضعافا مضاعفة حتى اضطر غلام مرتضى أن يدفع مبلغ ٧٠٠ روبية ثمنا لها. ثم بوشر بعملية البناء على الفور في نهاية عام ١٨٧٥. أوصى مرتضى أن يُـــدفن في فناء المسجد بعد موته، وقال متحسرا بأنّه لم يــعِر الانتباه الكافي لعلاقته بالله أثناء حياته فلعلّ بناءه لهذا المسجد ودفنه فيه أن يستنـــزِل عليه رحمة الله وغفرانه. وفي نحو منتصف عام ١٨٧٦ استُكمِلت عملية بناء المسجد وكان أحمد حينها في لاهور، ورأى رؤيا فهم منها دنو أجل والده فأسرع عائدا إلى قاديان: "حين تلقيت ذاك الوحي مرّ بخاطري لكوني بشرا أن بعض موارد الدخل التي كانت مرتبطة بحياة والدي سوف تنقطع ولا ندري لأي نوع من الابتلاءات سوف نتعرض بعده. وفي الحال تلقيت وحيا آخر "*أليس الله بكافٍ عبدَه*" وقد أعطتني تلك الكلمات السلوى والراحة وترسخت في قلبي كوَتَـــدٍ من حديد. والذي نفسي بيده إنّه حقق وحيه الـــمُبشَّر هذا بشكل لم أكن أتصوره وإنه تعالى قد كفلني وأمدني بما لا يستطيع أي والد أن يقوم به تجاه أولاده وتتالت عليّ أفضاله ومِنَنُه بحيث يستحيل أن أحصيها. لقد

توفي والدي في اليوم نفسه بعد غروب الشمس وكان ذلك هو اليوم الأول في حياتي الذي رأيت فيه آية رحمة الله تعالى بواسطة وحي إلهي والتي لا أخال أنها ستنقطع يوما في حياتي، وقد طلبت في تلك الأيام أن تُحفر كلمات هذا الوحي على فص خاتم أحتفظ به إلى الآن". كان عمر والده حين توفي ما بين الثمانين والخمس والثمانين سنة ودُفن بناء على وصيته في فناء المسجد.

قال أحمد متحدثا عن الحياة والموت: "من قال أنّ الحياة طويلة؟ لا يوجد موسم أو وقت محدد للموت، فقد يدرك الإنسان في أي وقت، لذا لا بد أن نقدر الفرصة التي بين أيدينا لأننا لن نحظى بها مرة أخرى ولن يبقى بعدها سوى ذكراها".

الفصل العاشر

كنــز الحقيقة

أتاحت وفاة غلام مرتضى مزيدا من الحرية لغلام أحمد ولكنّها حدّت من حريات أخرى؛ فلقد تولى غلام قادر — أخوه الأكبر– إدارة الشئون المالية لميراثهما، فأفسح هذا لأحمد حرية تكريس وقته بالكامل للدراسة والاطلاع، ولكن لم يكن لأحمد حرية التصرف بالعقارات، فقد كان أخوه هو الذي يمسك بزمامها، مع أنه كان يفترض أن يتمّ تقسيم عائدات إيجار العقارات بينهما. في الواقع لم يُرِدْ أحمد المال بغية الرفاهية، و لم يطلبه سوى مرة ليدفع اشتراكا في صحيفة، فقيل له بأنّ الدخل لا يكفي.

تبنى غلام قادر وجهة نظر أبيه نفسها تجاه حياة أحمد وحثّـه كأبيه أيضا على أن يجد عملا يوفر له دخلا معقولا ولكن كلماته لم تحوِ العطف والشفقة التي كانت في كلمات الوالد، بل على العكس كثيرا ما أبدى أخوه ضيقا وتذمرا تجاه ما اسماه عناد أخيه الأصغر. كما كانت زوجة أخيه تكنّ عداءً تجاهه، ولأنّ غلام قادر كان يغيب عن المنـــزل ما بين سبعة إلى عشرة أيام في عمله في غورداسبور فكان من الطبيعي أن تكون الشئون المترلية بالكامل تحت تصرف زوجته، فصار الطعام الذي يقدّم لأحمد بقايا موائد الآخرين، وقد ذكر هذا الأمر لاحقا في بيت من الشعر بالعربية:

"لُفاظاتِ الموائدِ كان أُكْلي وصرتُ اليومَ مِطْعام الأهالي"

[كتاب التبليغ، القصيدة المحبرة، ص١٦٧، البيت رقم٣١].

نذكر في هذا المقام حادثة توضح شعور زوجة أخيه غلام قادر تجاهه، إذ حدث أن جاء يوما صديق للعائلة حاملا معه طبق كباب متبل هديةً لغلام قادر كونه الأخ الأكبر، ولما عرف أنّه خارج المترل في غورداسبور قدّم

الطبق إلى غلام أحمد حينها فجُنّ جنون زوجة أخيه فور عِلمها، وهاجمت بشراسة كل من حاول التدخل من الساكنين في المترل للتهدئة — مثل خالته التي كانت تعيش معهم– وصدَّت بقسوة.

عانى أحمد سبع سنوات من حياة قاسية صعبة ولكنّه تغاضى عن جميع المنغصات لأنّ لديه الفرصة السانحة لتخصيص كامل وقته للدراسة الدينية والعمل على كتاب البراهين الأحمدية. وبالطبع لم يمتلك مالا يكفي لطباعته أو نشره فلم تكن دور النشر التجارية قد وُجدت بعد في الهند في تلك الفترة، وطلبُ المساعدة المالية لم يكن ليؤتي ثماره. تقدم نفر قليل فقط من المسلمين الأغنياء بتقديم تبرعات مالية للمساعدة في طباعة المجلدات الأربع المزمع تأليفها وكان مجموع التبرعات مبلغا ضئيلا ولكنه كان كافيا ليتيح لغلام أحمد طباعة المجلدين الأول والثاني. كانت عملية تحرير وتأليف كتاب البراهين الأحمدية مجهودا هائلا. حتى أنّ أحد أتباع أحمد وهو (ظَفْرُ الله خان) الذي صار لاحقا وزير خارجية باكستان ورئيس محكمة العدل الدولية– وصف مؤلف البراهين الأحمدية قائلا: "كان مؤلف البراهين الأحمدية عالما متبحرا في الدين الإسلامي ومقارنة الأديان أيضا ويبدو جليا للعيان أنّه قد حظي وخَبُرَ بالفعل لذة التواصل مع الله تعالى إذ كان متلقيا دائما للتجليات والوحي الإلهي". حصل أحمد على المراجِع وأمّهات الكتب التراثية الإسلامية من مكتبة العائلة، التي مع خرابها على يد السيخ أيام حياة جده إلا أنها أُعيدت إلى وضع مقبول وحَوَت كمًّا لا بأس به من المصنفات والمراجع، وهذه كانت المصادر الوحيدة المتوفرة لديه. في تلك الأيام كانت قاديان تبعد أحد عشرة ميلا عن أقرب محطة قطار ومكتب تلغراف أمّا أقرب دار نشر فكانت في أمرتسار التي تبعد خمسة وثلاثين ميلا عنها، ولم يكن في قاديان كلها من يمكن أن يعين مؤلفنا بأي شكل في عمله العظيم لا في التأليف ولا في النسخ.

قام أحمد بكتابة المصنف بخط يده على الورق ثمّ عندما جاء وقت تسليمه ليطبع في دار النشر ذهب بنفسه إلى أمرتسار في رحلة غير يسيرة تطلبت المرور في طرقات قذرة موحلة مليئة بالحفر ما جعل عبورها سيرا على الأقدام أسهل بكثير من ركوب العربات المجرورة بالأحصنة غير المريحة والخطيرة ولا تحتوي على نوابض ما يجعل الراكب يرتج عند كل مطب وكان أصلا من النادر توفر تلك العربات، وبعد هذا كان لابد من عبور أربعة وعشرين ميلا سفرا بالقطار. كانت فكرة الكتاب نفسها من بنات أفكاره، وكذلك جهود التأليف والنسخ والطباعة كلها كانت جهوده المضنية وحده ولم يكن معه في هذا سوى "نعمة وفضل العلي القدير". ضم الكتاب في جنباته الكثير من الحجج والبراهين عن صدق الإسلام وقد عضّد هذه الحجج بالآيات القرآنية الكريمة التي وضعت في مواضعها المناسبة في الكتاب وقد بلغت مجمل اقتباساته نحو ثلثي القرآن الكريم. فعلى سبيل المثال في مقدمته فصّل أحمد دوافعه وراء كتابة هذا المصنف بقوله: "فليكن واضحا لكل الباحثين عن الحق أنّ الدافع من وراء تأليف هذا الكتاب هو إظهار براهين صدق الإسلام وعظمة القرآن الكريم ونبوة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلّم إلى أقصى درجة". قدّم أحمد في مقدمة البراهين الأحمدية تحديا لأي شخص يزعم بأنه يستطيع تفنيد ودحض هذه الحجج أو حتى خُمسها لصالح دين أو نص أو نبي آخر وأنه سيقدم له جائزة عشرة آلاف روبية إن وُجد هذا الشخص — إن القيمة المعروضة في هذا التحدي هي كلّ ما ورثه عن أبيه من مال أو عقارات، وقد طبع هذا التحدي ونشره بالخط العريض بحيث أنّ كل صفحة (ذات عشر إنشات أي خمسة وعشرين سنتمتر) حوت سبعة أسطر فقط من هذا الإعلان الذي نشر على ثلاثين صفحة من الكتاب.

أما الأمور الرئيسة التي تناولها في كتابه الفريد: أولا: المبادئ الأساسية لمعرفة الدين. ثانيا: ثلاثمئة دليل على صدق الإسلام. وأجاب الكتاب على

الاتهامات الموجهة ضدّ الإسلام، وتناول وجهات نظر الأديان الأخرى وأخيرا خُتم بشرح حكمة وعظمة القرآن الكريم. صدر الجزءان الأول والثاني عام ١٨٨٠ ولقيا صدى واسعا وطيبا.

كتب محمد حسين البطالوي، زميل دراسة غلام أحمد السابق في بطالا، وكان محمد حسين إبان صدور الكتاب من زعماء طائفة أهل الحديث ومحررا لجريدة إشاعة السُّـــنة- كتب تقريظا بالكتاب مئتي صفحة نشرت على ستة أعداد. لفت البطالوي النظر في بداية تعليقه إلى معرفته بأحمد منذ حداثة سنهما: "إنّ معرفتنا بوضع كاتب البراهين الأحمدية الاجتماعي وظروف معيشته عميقة جدا بحيث قلّ نظيرها بين معاصريه الذين لا يستطيعون ادّعاء معرفته بقدرنا، وعلى هذا الأساس فإننا سنبدي رأينا في كلمات بسيطة ودون مبالغات..." ثمّ أردف: "إنّ في رأينا — حين نضع هذا العصر وأحواله في الاعتبار- أنّ هذا الكتاب لم ينشر له مثيل منذ بدء الإسلام إلى هذا اليوم، لا نعلم ما يمكن أن يحدث في مستقبل الأيام ولكنّ لعلّ الله يُـــحدث بعد ذلك أمرا. إنّ المؤلف قد أثبت أنّه رجل مثابر على خدمة الإسلام بالقلم واللسان والحال والمال وغير ذلك حتى أنّه من النادر أن تجد له مثيلا بين المسلمين. ومن يحسب أسلوبنا مبالغة من باب مبالغات أهل آسيا فعليه أن يدلنا على كتاب واحد على الأقل تصدّى لأعداء الإسلام وخاصة من الآرياسماج والبراهموسماج بكلّ قوة وبرهان، وعليه أن يسمّي لنا ثلاثة أو أربعة ممن قدموا للإسلام خدمات مثلما فعل هذا الرجل، وعليه كذلك أن يبرهن لنا أنهم لم يخدموا الإسلام فقط بأقلامهم وألسنتهم وأموالهم فحسب بل بأنفسهم كذلك، فتحدّوا الذين ينكرون إمكانية الوحي أن يتأكدوا بأنفسهم من أنّ صاحب التحدي نفسه يتشرف بتلقي الوحي من الله تعالى"

وأضاف: "إنّ مؤلف البراهين الأحمدية بشهادة أصدقائه وأعدائه على السواء قد أقام حياته على شريعة الإسلام. إنه رجل تقي وورع. من المعروف

أن نفثات الشياطين دائما ما تكون كاذبة، وليس بين بشارات الوحي التي تلقاها مؤلف البراهين الأحمدية ولا بشارة واحدة ثبت كذبها إلى اليوم، وعلى هذا فلا يمكن عدُّ البراهين الأحمدية من نفثات الشياطين. هل يجوز لأي مسلم أن يعتقد أنّ الشيطان يمكن أن يُؤتَى مثل ما أوتي النبيون والملائكة من علم الغيب بالصورة الي أوحاها الله تعالى لمؤلف البراهين الأحمدية؟! إنّ كل الأنباء التي أطلعه الله تعالى عليها لم يثبت بطلانها."

وختم تعليقه قائلا: "إنّ عظمة هذا الكتاب ونفعه للإسلام سوف يتجلى لمن يقرأ بعقل متفتح أو لمن يطالع تعليقنا هذا. ولأنّ الله تعالى قال في كتابه ﴿هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا لْإِحْسَانُ﴾ فإنّ واجب المساهمة في نفقات طبع ونشر هذا الكتاب يقع على الأمة الإسلامية بأسرها. لقد دافع مؤلف البراهين الأحمدية عن شرف المسلمين وتحدى أعداء الإسلام بقوة وبراعة، وأعلن للعالم أجمع أن من لديه أدنى شك في صدق الإسلام فعليه أن يأتي إليه ويرى بنفسه الأدلة والحقائق والأدلة العقلية والروحية التي تنبثق من القرآن ويرى المعجزات البيّــنة لمحمد صلى الله عليه وسلم تأييدا لصدق الإسلام".

لم يكن هذا التعليق الذي هو في الواقع مديح وإطراء صادرا عن صديق طفولة بعيد عن الموضوعية، فهناك عالم مسلم معروف اسمه (صوفي أحمد) من لُــدهيانة كتب في البراهين الأحمدية: "إنّ هذا الكتاب يقنع الكافرين وينبه الجاهلين وينذر الغافلين وينير فهم وإدراك المؤمنين ويقوي جذور العقيدة الإسلامية ويزيل ويدحض كل الشكوك والأباطيل التي أثارها أعداء الإسلام...".

"لقد أوضح حقيقة صدق التعاليم الإسلامية بتميّز يجعل أي شخص يدرك مقدار النعمة العظيمة والفضل الكبير لدين الإسلام ويتبين بجلاء الكتر المكنون في القرآن الكريم وتظهر عليه حقيقة عظمة دين محمد صلى الله عليه وسلم"

"... فإنّه حسَب حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم: إنّ الله يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة من يجدد لها أمر دينها. نرى أنّ مؤلف هذا الكتاب هو مجدد القرن الرابع عشر وإنه لعالم قدير وهو من أكثر أبناء الأمة الإسلامية كمالا".

لم يعترض أحدٌ من رجال الدين حينها على تسمية أحمد بالمجدد، وهذا كان لقبا تشريفيا يعكس عميق احترامهم تجاهه.

من بين الكتاب الإسلاميين الذين علّقوا على البراهين الأحمدية المولوي محمد شريف محرر صحيفة (منشور محمدي) الصادرة في بنغالور في ميسور الواقعة شمال الهند فقال: "إنّ الإسلام يُهاجَم من كل اتجاه فالإلحاد ينتشر واللا-تدين يشيع ويزدهر وأتباع البراهموسماج يبذلون كل جهد لإثبات عظمة دينهم وتفوقه على الإسلام من خلال كتبهم ومقالاتهم الفلسفية، وإخواننا المسيحيون يكرسون أوقاتهم كلها وجهودهم لطمس الإسلام كلية وإنهم على اقتناع تام بأنه ما دامت شمس الإسلام مشرقة تلقي بأشعتها على العالم فإنّ مساعيهم لنشر المسيحية ستبوء بالفشل الذريع. بالاختصار، إنّ أتباع كل دين لا يدّخرون وسعا في محاولاتهم لإطفاء شمس الإسلام وإخماد أنفاسه".

"لقد كنّا نتطلع متشوقين منذ زمن طويل إلى أن يظهر بين المسلمين رجلٌ من رجالاتهم يكون مؤيَدًا من الله تعالى فيتصدى وينبري للدفاع عن الإسلام ويكتب كتابًا يوافق احتياجات العصر ومقتضيات هذا الزمان ويضمنّه الأدلة العقلية والحجج المنطقية المستقاة من القرآن الكريم ومن السنة ليبرهن ويثبت أنّ القرآن هو حقا كلام الله تعالى ووحيه إلى رسوله الكريم صلى الله عليه وسلم وأنّ ذلك الرسول كان بحق الصادق الأمين الذي اختاره الله تعالى رسولا للعالمين. إننا نشكر الله تعالى من أعماق قلوبنا على تحقيق رغبتنا الصادقة هذه فها هو الكتاب الذي كنا نرتقب تأليفه منذ زمن طويل موجود

واسمه "البراهين الأحمدية". لقد ضمنه مؤلفه ثلاثمائة دليل قاطع على صدق القرآن الكريم وعلى صدق نبوة محمد صلى الله عليه وسلم"

"إنّ مؤلف هذا الكتاب هو واحد من أجل العلماء وأشرفهم وهو فخر مسلمي الهند جميعهم إنّه صفي الله... فالحمد لله تعالى. ما أعظم هذا الكتاب الذي تثبت كل كلمة فيه صدق الإسلام وتوضح بجلاء فضل القرآن الكريم وصدق نبوة محمد صلى الله عليه وسلم! لقد جوبِهَ أعداء الإسلام في هذا الكتاب بالأدلة الداحضة التي لا سبيل إلى تفنيدها فكل دليل قد جاء مؤيدا بالحجج المنطقية وعُضِّد بمناقشات توافق العقل وتطمئن إليها النفس بأسلوب إيجابي بحيث لا يملك أحد إزاءه سوى القبول والتسليم إن قرأها بقلب متفتح وعقل متدبر.

في هذا الكتاب منقطعِ النظير في الواقع، يعلن المؤلف بتحدٍ أنّـــه لا سبيل إلى دحض الأدلة الواردة فيه... إنّ الحقيقة التي لا مفر منها تقتضي من أعداء الإسلام إذا كان في قلوبهم ذرة من خشية الله أن يقروا ويشهدوا بأن لا إله يستحق العبادة سوى الله وأنّ محمدا عبده ورسوله الصادق الصدوق"

وختم تعليقه بهذا المديح: "لقد أثبت المؤلف صدق الإسلام بأدلة بارعة صادقة تجعل أي منصف يقرّ بأنّ القرآن كتاب من عند الله وأنّ نبوة محمد صلى الله عليه وسلم حقٌ وصدق وأن الإسلام هو الدين الذي ارتضاه الله تعالى وأنّ المسلم على صراط مستقيم. هناك العشرات بل المئات من الأدلة الحاسمة التي لم تدع مجالا لمخالفي الإسلام للهرب من الحقيقة أو إنكار الحق الذي يتجلى كالشمس في رابعة النهار. إنها أدلة واضحة بينة تشع بنور الحق المبين، إن الكتاب هو حقا مرآة الإيمان ومملوء كله من فيض القرآن الكريم ويهدي إلى الصراط المستقيم وهو نبراس يضيء الطريق القويم. إنّه بحق كنز من المعرفة والإيمان ومنجم الهدى والعرفان. إنه برق يصعق المخالفين ويدمر

قلاعهم وصياصيهم وهو للمسلمين سند قويم على صدق كتاب الله العظيم وبرهان عظيم على أم الكتاب الكريم لقد زعزع وزلزل كل عدو للدين".

من النادر جدا أن يُتَصور استقبالٌ أكثرَ حماسةً لكتاب ديني من الذي لقيه كتاب البراهين الأحمدية، كان هناك بالتأكيد من رجال الدين المسلمين من كان لهم بعض الانتقادات أو الاعتراضات على أجزاء من الكتاب ولكن عددهم قليل وبالتأكيد كان هناك الكـــثير من الهندوس والمسيحيين والسيخ وأتباع ديانات أخرى شعروا بأنّ أتباع ديانتهم قد أهينوا غير أنّ هذه الإهانة اللاحقة بهم لم تكن حتما هدف أحمد. لقد كان يرمي فعلا إلى التواصل مع أولئك الذين يخالفون معتقده واضعا كل البراهين أمامهم، إذ أكّد في كتابه: "ليس مبتغانا أن نجرح المشاعر الدينية الحساسة لأي إنسان أو نحرك أو نُشعل أي عداوة لا طائل منها". وعلى الرغم من هذا اعتقد أحمد بأن معتقدات الآرياسماج والبراهموسماج خاطئة كليا وأنها تُدحض وتُهزم عندما تُعرَض على القرآن الكريم.

إنّ القساوسة التنصيريين الذين التقى بهم إبان عمله كموظف في سيالكوت ووعاظ الهندوسية والآرياسماج المتحمسين- الذين كان يقطن واحد منهم في قاديان- قد أقنعوه بأن معرفة الحق ليست كافية بل لابد من إيصال الحقيقة إلى أتباع الأديان الأخرى وإلى من لا دين لهم كذلك. فلا مناص من الجهد الدعوي، وهكذا فقد وضع خلاصة المعرفة الإسلامية كما فهمها في البراهين الأحمدية والآن على الناس أن يعرفوا بالكتاب ويقرأوه. إن الجائزة البالغة عشرة آلاف روبية التي أعلن عنها في كتابه قد حققت غايتها في الدعاية للكتاب وشاعت وأذاعت أمر البراهين الأحمدية في الهند، بل أكثر من هذا فإن جريدةً إسلامية قد أضافت عشرة آلاف روبية أخرى إلى مبلغ الجائزة.

حاول بعض المسيحيين والهندوس من باب النقد والاعتراض على الكتاب أن يعترضوا على الطريقة التي تناول بها أديانهم غير أن أحمد لم يمنحهم قطعة نقدية واحدة لأنّ المطلوب هو بحث وتحقيق صدق الإسلام وليس إطلاق الاعتراضات على عواهنها. لزم الإسلام الصمت طويلا على حد تعبيره وآن الأوان ليتكلم.

وإزاء اعتراضاتهم ونقدهم ردّ عليهم بتحد آخر: "إنني أدعوهم جميعا أن يقسموا بالله بألا يتأخروا ولا للحظة واحدة عن القدوم إلى ساحة النـــزال، وليستعينوا بفلسفات أفلاطون ومباحثات أرسطو وليبكوا وليتضرعوا إلى آلهتهم الباطلة ثم ليروا بعد ذلك ما إذا كان إلهنا سبحانه وتعالى هو الإله الأعظم أم آلهتهم الباطلة".

إنّ حماس المسلمين تجاه البراهين الأحمدية لم يفتُر على مرّ السنوات، وحتى أنّه بعد سنين عديدة كتب عالم من الناطقين بالأردية عن المؤلف: "إنّه بحق يستحق لقب سلطان القلم الذي أيده الله تعالى، إنّ فصاحة لغته لهي نتاج فريد من رجل اعتزل كل الفنون والكماليات". كما علّق آخر بأنّ نمط الكتاب وأسلوبه اتسم بالعقلانية والمنطقية والمنهجية.

لكنّ خصوم أحمد لم يكونوا جميعهم بالقدر نفسه من الكرم في مدحه، وكان أشدهم عداوة له (البانديت ليكهرام)- الرقيب الأول السابق في الشرطة- الذي ينتمي إلى طائفة الآرياسماج ويحرر مجلة تابعة لطائفته، وقد نشر كتابا بعنوان "نقض البراهين الأحمدية". وقد عاود هذا الشخص الظهور ثانية وبشكل مفجع في حياة غلام أحمد لاحقا كما سنرى.

الفصل الحادي عشر

نبوءات مستقبلية

لم تستمر علاقة أحمد الزوجية بالسيدة حرمة بي بي، ولم يتراجعا بعد طلاقهما، وبالتالي عاش حضرته مدة ست وعشرين سنة لاحقةً عازبًا. ثمّ حدث في عام ١٨٨١ — أي عندما كان يبلغ السادسة والأربعين من عمره- أنْ تلقى وحيا يبشره بالنسل مرة ثانية في وقت ما في المستقبل، كان الوحي المتعلق بهذا الأمر واضحًا وقويًا بحيث لا يمكن الشك فيه — كما ذكر هو لاحقا.

إنّ المدة الزمنية منذ وفاة محمد وما اعترى الإسلام من ضعف ساهم في تعزيز اعتقاد شاع بين المسلمين؛ وهو أنّ الله لا يُكلم عباده — فحسِبوا وفقا لهذا أنّ أمر الوحي والإلهامات بشكل عام هو ضرب من ضروب حديث النفس. غير أنّ أحمد أعلن مرارا أنّه تلقى وحيا بكلمات غير قابلة للشك وتشبه حديث رجل لآخر من حيث القوة والوضوح، ويضيف إلى ذلك أنّ الوحي ما لم يكن بكلمات واضحة فإنه لا يخلو من الشك؛ فإن اعتقد شخص ما بأن أي إلهام يكون وحيا فإنه حينئذ يخدع نفسه ويخدع غيره كذلك. ويضيف أحمد أنّ الوحي ينبغي أن يكون بكلمات محددة وقوية وذات جلال وجمال خاص، وأنّه من الممكن أن يحدث حوار بين العبد المتبتل وربه؛ فالله لا يحتاج إلى وسائط مادية ليُنفِذ أمره، فمَن خلق السموات والكون بدون يدين ماديّتين يمكنه بمشيئته أن يُكلم عباده بدون لسان، إنّ الله لا يحتاج إلى نص الكلمات ولكنّ العبد المتلقي للوحي يحتاج للكلمات حتى يفهم معنى الوحي.

تلقى مرزا أحمد أول وحي بخصوص الابن المستقبلي: *"إنّا نُبشّرُك بغلام حَسِين"* [ترياق القلوب، ص٣٤] وبعد بضعة شهور تلقى وحيا آخر في الموضوع نفسه: *" أُشْكُرْ نعمتي رأيتَ خديجتيّ"* [البراهين الأحمدية، ج٤، ص٥٥٨، هامش٤]، وكما هو معلوم لعامة المسلمين فإنّ خديجة هو اسم زوجة نبي الإسلام الأولى، ففهم حضرته من اسم خديجة الوارد في الوحي أنّ المقصود هو زواجه مرة ثانية، وتلقى لاحقا الوحي التالي: *"الحمد لله الذي جعل لكم الصهر والنسب"* [ترياق القلوب، ص٦٤]. وكانت كلمات الوحي الأول والثاني والثالث بالعربية.

وبالفعل، تمّ في تشرين الثاني/نوفمبر عام ١٨٨٤ زواج غلام أحمد من (نُصْرَت جَهَان بيگم) التي يعني اسمها بالعربية (ناصِرةُ العالم)، كانت فتاة كريمة تنتمي لعائلة من الأشراف، وكان أبوها يعرف غلام أحمد منذ مدة طويلة، غير أنّه لم يكن متأكدًا من نجاح الزواج لفارق العمر الكبير بينهما؛ فالعروس في الثامنة عشرة من عمرها، أي أنّ أحمد يكبرها باثنين وثلاثين عاما. فضلا عن أنّ سمعته بعدم اكتراثه للمال وللماديات لم تكن شيئا مشجعا في نظر الحميِّ. ولكنه كان زواجا طويلا سعيدا مثمرا أنجبت السيدة نصرت جهان خلاله خمسة من الأولاد.

ومما يجدر ذكره أنه لما اعتزم غلام أحمد الزواج بلّغ أصدقاءه المقربين، فأثار هذا الخبر القلق عندهم، فصحته الجسدية لم تكن على خير ما يُرام لأنه كان مصابا بداء السكري وبالشقيقة وكان قد شُفي حديثا مما يُعتقد بأنه كان مرض السُّـــل. أدرك أحمد بنفسه جيدا الصعوبات التي هو مقبل عليها لقراره الزواج مرة ثانية، وكتب لاحقا حول هذا الأمر: "... بسبب انعزالي وزهدي في الدنيا كان قلبي يكره أعباء الحياة الزوجية وكنتُ أنفر من المسئوليات تجاه الأهل والعيال، وعندما كنتُ أمرُّ بتلك الحال المضنية تلقيتُ الوحي التالي: *"إنني سوف أرتبُ كل الأمور المتعلقة بزواجك"* (هذا الوحي

بالفارسية)... وإني أُشهد الله الذي نفسي بيده أنّه قد برّ بوعده وأزاح عني كل عبء يتعلق بهذا الزواج، وأنعم عليّ براحة البال... ولولا أني أخشى أنّ الدنيا سوف تعتبر ذِكر هذا الأمر ضربا من ضروب المبالغات لذكرتُ بالتفصيل هذا الأمر الَذي أُعطيتُه بشكل دائم على الطريقة الخارقة، ولكي يتبين منها أنّ آيات ربنا القدير والقيوم تتجلى في كل شكل وبكل صورة، ويخصُّ بها عباده المقربين في جميع الأحوال" [ترياق القلوب، الخزائن الروحانية، ج ١٥، ص٢٠١-٢٠٤]

لما عاد أحمد إلى بيته في أول يوم من زواجه في قاديان، فاضت عينا العروس بالدموع لما رأت مسكنها الجديد؛ فالغرفة التي سكنها في أيام عزوبته غارقا في دراسته وأبحاثه لم تصلح لأن تكون عش زوجية، فكل ما حَوَتهُ سرير خشبي مكسور.

وفي حياتهما كزوجين كانت السيدة "نصرت" تواقة إلى إرضاء زوجها وإسعاده بكل أسلوب، فلما عرفت مثلا أنّ أحمد يحب نوعا معينا من حلوى الأرز التي تُصنع بقَطر السكر الكثيف أحبّت أن تفاجئه، وصنعت له طبقا من هذه الحلوى. ولأنها لم تكن تمرست بعد في هذه الأمور، استخدمت خطأً أربعة أضعاف كمية السكر التي توضع عادة، فكانت النتيجة هلاما سكريا أكثر من كونه طبق حلوى. ووصل أحمد إلى بيته ليجد زوجته تَشخَصُ بالطبق غير المُرضي وتبدو على وجهها علامات خيبة الأمل – وفقا لروايتها- فما كان منه إلا أن أكل الطبق بتلذذ وقال لها بأنه أعجبه. تروي السيدة نصرة جهان عن هذه الحادثة: " بقي يحدثني بلطف حتى زال كل كرب وهمّ عني".

لم يكن أحمد يقدر فقط عاطفتها وحبها له، بل كذلك يقدر مشورتها على مر سنوات حياته معها. وكثيرا ما كان يردد حديث نبي الإسلام: *"خيرُكُم خيرُكُم لأهله"*.

في الواقع يوجد عدد هائل من الذكريات المروية عن زواجهما الكامل المثالي، فيروي الدكتور محمد إسماعيل – أخو السيدة نصرة جهان أنه لا يتذكر منذ طفولته أن عاملها غلام أحمد بقسوة أو وجّهَ لها أي كلمة قاسية، وأنه كان دائما يكلمها بألطف الكلمات الأردية علما أنه كان يتحدث بالبنجابية مع أطفاله الصغار.

تجدر الإشارة إلى أنّه تلقى الوحي المتعلق بزواجه مرة ثانية عام ١٨٨١، ولكنّ الزواج تمّ بالفعل عام ١٨٨٤ وفي فترة السنوات الثلاث بينهما تلقى الوحي الذي يخبره أنّه مجدد العصر وهذا لقب ومهمة يعلمها ويعرفها المسلمون جيدا.

أُطلق هذا اللقب على فئة من الأشخاص منذ وفاة نبي الإسلام وذلك وفقا لحديث أُثِر عنه بأن الله يبعث على رأس كل مائة عام من يجدد أمر الدين في الأمة الإسلامية، وبهذا يكون الدين الإسلامي ليس فقط الدين الحق ولكن الدين الحيّ المتجدد. إنّ التأكيد الإلهي الذي تلقاه أحمد –كما قال هو– لم يُعط لأي دين آخر ولهذا صارت الديانات الأخرى كحديقة ليس لها بستاني يرعاها ويسقيها فذبلت أشجار حدائقهم وذَوَت ثمارها واكتسحت شجيرات الشوك أماكن الشجر. ولكنّ الله – أيضا كما قال– قضى أنّ تكون حديقة الإسلام دائمة الخضرة وأن تُسقى بماء متجدد كل قرن ببعث مجدد على رأس المائة.

يقول أحمد بخصوص الوحي الذي تلقاه ويصف مهمته المستقبلية كمجدد القرن: "ذات ليلة فيما كنت منهمكا بالكتابة انتابني شعور بالدوار وغفوت، فرأيت النبي محمدا صلى الله عليه وسلم وكان وجهه يشع بالأنوار كالبدر، واقترب مني فشعرت بأنّه يريد أن يعانقني، ورأيت الأنوار تشع منه وتقع أمامي حتى أنها بدأت تتخللني، لقد شاهدت أنواره كما يرى الرائي الأنوار العادية، ولقد كانت قوية إلى درجة شعرت أني لست أراها بعيني الروحانية

بل بعيني الماديتين كذلك. وبعد أن ضمَّني رسول الله صلى الله عليه وسلم إليه شعرت أني لا أعرف ما إذا كان الرسول صلى الله عليه وسلم قد فارقني بعدها أم لا، ثمّ فُتِحَتْ عليّ أبواب الوحي وخاطبني ربي وقال لي: "*يا أحمد بارك الله فيك، ما رميت إذ رميت ولكنّ الله رمى، الرحمن علم القرآن لتنذر قوما ما أُنذر آباؤهم ولتستبين سبيل المجرمين، قل إني أُمرتُ وأنا أول المؤمنين*"[مرآة كمالات الإسلام، ص٥٥٠]. أما الرمية فكانت بالطبع البراهين الأحمدية.

الفصل الثاني عشر

أربعون يوما من الاعتكاف

تتابع نزول الوحي على أحمد، كما يقول، وفي عام ١٨٨٣ أي بعد عام من نشر كتاب البراهين الأحمدية، تلقى وحيا من الله يُخبره بأنه مثيل المسيح وكان هذا أول وحي يُعلنه على الملأ.

وفي ذلك قال أحمد ما تعريبه: "لقد أُخبِـــر الكاتب بأنه مجدد القرن وبأنه حاز الصفات والمزايا الروحانية التي تجعله مثيل السيد المسيح عيسى بن مريم، وكأنهما صنوان متشابهان... وببركة طاعتي واتباعي لسيدي محمد المصطفى صلى الله عليه وسلم فقد أنعم الله تعالى عليّ بمرتبة تفوق كثيرا مراتب الأنبياء الذين خلوا من قبل"

"إنني أنا النور لهذا العصر المظلم، ومن تبعني فسوف يُجنَّب تلك المهاوي والحفر التي أعدها الشيطان للسائرين في الظلام"

وبعد إعلانه بأنّه مجدد القرن، توقع أحمد مزيدا من الوحي، ولأنه شعر أنه بحاجة إلى التوجيه الرباني الخاص قرر أن يعتكف فترة أربعين يوما من العبادة والتضرع والابتهال إلى ربّه. وكانت هذه الطريقة من الاعتكاف مدة أربعين يوما معروفة عند الصالحين والأنبياء على مرّ العصور، فالنبي موسى اعتكف أربعين يوما وليلة، وكذلك المسيح الناصري مكث في الصحراء أربعين يوما وليلة. في الحقيقة هناك عدد لا يحصى من الرجال الربانيين الذين اتخذوا فترة كهذه للاعتكاف والعبادة طلبا للمعونة الربانية الخاصة. أما بالنسبة لأحمد فلم يعرف حينها متى وأين يجب أن يقضي فترة اعتكافه هذه حتى كانون الثاني/يناير ١٨٨٦ حين أخبره الله بالوحي أن يذهب إلى (هوشياربور). ويجدر بالذكر أنّ واحدا من أهل هذه البلدة قد سمع بنية غلام أحمد بالمجيء

إليها فعرض عليه أن يترل في مترله ذي الطابقين ويقع على مشارف البلدة؛ فقَبِل أحمد ذلك وقضى فترة اعتكافه هناك، حيث غادر إلى هوشياربور مستخدما عربة تجرها الثيران.

قبل الذهاب إلى هوشياربور، طلب ثلاثة من أصحابه رفقته في هذا السفر، وبالفعل سافروا معه وعبروا نهر بِــياس على متن قارب قديم متهالك، وفي أثناء عبورهم للنهر حدثهم أحمد أنّ اتِّباع ولي من أولياء الله هو مثل عبور النهر فهناك أمل الوصول إلى بر الأمان وهناك خطر الغرق أيضا. كذلك أخبرهم أنّ على واحد منهم أن يحضر له وجبتيه اليومية وأن يغادر دون أن يتكلم معه لأنه لا يرغب في أن يخاطب أيّ إنسان أثناء اعتكافه، وأنه سيبقى في المنـــزل بعد أن ينهي فترة تعبده هذه إلى مدة لا يعرفها بعد، وأنّ من يريد مقابلته بعد اعتكافه فيمكن أن يأتي إليه في أي وقت. واعتزل غلام أحمد في معتكفه و لم يكن يغادره إلا ليؤم صلوات الظهر في مسجد منعزل في حديقة تقع خارج البلدة و لم يكن يتحدث إلى أصحابه عمّا كان يحدث معه في تلك الفترة غير أنّه كان معروفا لهم أنّ هذه فترة تحضيرية لمهمته كمبعوث من عند الله إلى العالم أجمع. وبعد أن تمت فترة الاعتكاف جاءت الإشارة السماوية المنتظرة ومنحه ربّه ما كان يأمله فنشر إعلانا في شباط/فبراير ١٨٨٦ جاء فيه: "إنّ الله الرحمن الرحيم رب العزة والجلال والقادر على كل شيء، جلّ اسمه قد خاطبني بوحي منه قائلا:

إني أُنعم عليك بآية رحمة حسب ما سألتني فسمعت تضرعاتك وقد شرفت أدعيتك بالقبول بخالص رحمتي، وباركت رحلتك هذه. آية قدرةٍ ورحمة وقرب ستُوهب لك، آية فضل وإحسان ستُمنح لك، ومفتاح فتح وظفر سيُعطى لك... بشرى لك فإنّ صبيًا وجيها طاهرا سوف يُوهب لك. وإنّ غلاما زكيا يكون من صلبك وذريتك ونسلك.... هو نور الله. مباركٌ الذي يأتي من السماء... وببركة روح القدس... وسيكون ذكيا بشكل

خارق وفهيما وحليم القلب، سوف يمتلئ بالعلوم ظاهرةً وباطنةً... ظهوره مبارك جدا وبظهوره ينكشف جلال رب العالمين... سوف ننفخ فيه روحنا. سوف يظلّه الله بظله. سوف ينمو سريعا ويكون وسيلة لفك رقاب الأسرى. يذيع صيته إلى أقصى الأرضين وسيتبارك به أقوام. وحينئذٍ سوف يرتفع إلى نقطته النفسية أي إلى السماء وكان أمرا مقضيا.

سوف يمتلئ بيتك بالبركات وسوف أتم نعمتي عليك... يزيد نسلك وأباركه... ينتشر نسلك كثيرا في بلاد مختلفة... لن ينقطع نسلك بل سيزدهر إلى آخر الأيام. سوف يُخلِّد اللهُ اسمك مجللا بالشرف إلى آخر يوم من عمر الدنيا وسيبلغ دعوتك إلى أطراف الأرض..." [مجموعة الإعلانات، ج١، ص ١٠٠- ١٠٣] إنّ الكلمات الأخيرة من هذا الوحي أهمّ كلمات فيه بالنسبة إلى دعوى أحمد، فالله وفقا لهذا الوحي لم يعد يريد منه الدفاع عن الإسلام وحسب بل أن ينشر دعوة الإسلام إلى العالم أجمع وأنّ الله يعده بهذا، وتستمر كلمات الوحي: *"أنا سأرفعك وأدعوك إليّ، ولكنّ اسمك لن ينمحي أبدا من على وجه الأرض. إنّ كل من يبغون إهانتك ويريدون فشلك ويتمنون هلاكك هم أنفسهم سيفشلون ويموتون خائبين خاسرين... إنني سأزيد عدد أصحابك المخلصين الذين يحبونك من أعماق القلوب وأبارك حياتهم وما يملكون، فينمو عددهم وسيكونون إلى يوم القيامة غالبين على حزب الحسّاد والمعاندين من المسلمين الآخرين... أنت مني بمنزلة أنبياء بني إسرائيل... أنت مني بمنزلة توحيدي. أنت مني وأنا منك. إنّ الوقت لآتٍ بل إنّه لقريب حين يُلقي الله محبتك في قلوب الملوك والأمراء حتى إنهم سيتبركون بثيابك..."*

وبعد مرور شهر على إعلانه الوحي السابق، قام بإعلان آخر في ٢٢ آذار/مارس ١٨٨٦: "إنّ هذه ليست مجرد نبوءة بل هي آية عظمى من السماء، أظهرها الله عز وجل لإجلاء صدق وعظمة نبينا الكريم الرؤوف

والرحيم محمد المصطفى صلى الله عليه آله وسلم. إنّ هذه الآية أعظم مئة مرة وأولى وأكمل وأفضل وأتمّ من إحياء الموتى، لأنّ حقيقة إحياء الموتى هي إعادة الروح إلى الجسد عن طريق الدعاء في حضرة الله، ولكن في حالتي فإنّ الله القدير بفضله العظيم وجوده الكريم وببركات خاتم النبيين صلى الله عليه وآله سلم وباستجابة دعاء هذا العبد المتواضع قد وعدني أن يُرسل روحا مباركة سوف تنشر بركاتها الظاهرة والباطنية في الأرض كلها..." [مجموعة الإعلانات، الجزء الأول، ١١٦-١١٧]

ثمّ انقضى عام على إعلان وحي هوشياربور، وجاء الأمر الإلهي له بتأسيس جماعته ولكنه لم يُعلن عن هذا الأمر حتى كانون الأول/ديسمبر ١٨٨٨ ثمّ أعلن في الشهر الذي تلاه في ١٢ كانون الثاني/ يناير ١٨٨٩ الشروط العشرة للانضمام إلى جماعته أي الجماعة الإسلامية الأحمدية، حيث على من يريد الانضمام إليها أن:

أولا: أن يعاهد المبايع بصدق القلب على أن يجتنب الشركَ حتى الممات.

ثانيا: أن يجتنبَ قولَ الزور، ولا يقرَبَ الزنى وخيانةَ الأعين، ويتنكب جميعَ طرق الفسق والفجور والظلم والخيانة والبغي والفساد؛ وألا يَدَعَ الثوائرَ النفسانية تغلبه مهما كان الداعي إليها قويًّا وهامًّا.

ثالثا: أن يواظبَ على إقامة الصلوات الخمس بلا انقطاع تبعًا لأوامر الله ورسوله، وأن يداومَ جهدَ المستطاع على أداء صلاة التهجد، والصلاةِ على النبي صلى الله عليه وسلم، والاستغفار وطلبِ العفو من ربه على ذنوبه كل يوم؛ وأن يَذكُرَ نِعَمَ الله ومِنَنَه بخلوص القلب كل يوم، ثم يتخذ من حمده وشكره عليها وِردًا له.

رابعا: ألا يؤذيَ، بغير حق، أحدًا من خلق الله عمومًا والمسلمين خصوصًا من جراءِ ثوائره النفسية، لا بيده ولا بلسانه ولا بأي طريق آخر.

خامسا: أن يكونَ وفيًّا لله وراضيًا بقضائه في جميع الأحوال: حالةِ التَرَح والفَرَح، والعسر واليسر، والضنك والنِعَم؛ وأن يكونَ مستعدًّا لقبول كل ذلة وأذى في سبيله، وألا يُعرضَ عنه سبحانه عند حلول مصيبة، بل يمشي إليه قُدُمًا.

سادسا: أن يكُفَّ عن اتباع التقاليد الفارغة والأهواء النفسانية والأماني الكاذبة، ويقبَلَ حكومةَ القرآن المجيد على نفسه بكل معنى الكلمة، ويتخذَ قولَ الله وقول الرسول دستورًا لعمله في جميع مناهج حياته.

سابعا: أن يطلِّق الكبرَ والزهوَ طلاقًا باتًّا، ويقضيَ أيام حياته بالتواضع والانكسار ودَماثة الأخلاق والحلم والرِّفق.

ثامنا: أن يكونَ الدينُ وعزُّه ومواساةُ الإسلام أعزَّ عليه من نفسه وماله وأولاده ومن كل ما هو عزيز عليه.

تاسعا: أن يظل مشغولاً في مواساة خلق الله عامةً لوجه الله خالصةً، وأن ينفعَ أبناء جنسه قدر المستطاع بكلِّ ما رزقه الله من القوى والنِّعَم.

عاشرا: أن يعقدَ مع هذا العبد عهد الأخوّة خالصاً لوجه الله على أن يطيعَني في كل ما آمره به من المعروف، ثم لا يَحيد عنه ولا ينكُثه حتى الممات، ويكون في هذا العقد بصورة لا تعدلها العلاقاتُ الدنيوية، سواء كانت علاقات قرابة أو صداقة أو خدمة.

وبعد شهرين ذهب أحمد إلى بلدة لُـــدهيانة حيث تمّ في ٢٣ آذار/مارس ١٨٨٩ بدء أخذ البيعة وكان المولوي نور الدين – الطبيب السابق- أول من وضع يده في يد أحمد وتلا عهد البيعة.

سمع نور الدين أول الأمر بأحمد[٣] عندما كان يبني عيادة له في بلدة بهيرا فسافر على إثر ذلك إلى قاديان ليلتقي به ويحاوره، وكان يعتزم البقاء لليلة

---

[3] حدث خطأ من الكاتب هنا. فقد جاء حضرة المولوي نور الدين لزيارة المسيح الموعود عليه الصلاة والسلام أولا عندما سمع به في أوائل دعواه في عام ١٨٨٤م، ثم

واحدة، غير أنّ غلام أحمد دعاه ليبقى عدة ليال ثم ما لبث أن تحولت الليالي إلى أسابيع. ثمّ أرسل المولوي في طلب كتب مكتبته إلى قاديان وطلب أن تُباع عيادته غير مكتملة البناء واستقر في قاديان حيث عاش بقية عمره.

انصرف بعد أن أخذ وعدا بأن يكون أول مبايع له عندما يؤمر بالبيعة، وهذا ما حدث بالفعل عام ١٨٨٩م. ثم بعد أن انتهى عمله لدى مهراجا كشمير عام ١٨٩٢م قرر أن يستقر في بهيرا ويبني عيادة هناك، فجاء لزيارة المسيح الموعود عليه الصلاة والسلام زيارة قصيرة أثناء ذلك، ولكنه استقر بعد ذلك استجابة لرغبة المسيح الموعود عليه الصلاة والسلام و لم يعد إلى بلدته ثانية. (المترجمة)

الفصل الثالث عشر

البعثة الثانية للمسيح

تمت البيعة لأحمد أول مرة في عام ١٨٨٩ في لُـــدهيانة، أي بعد مرور تسع سنوات على نشر كتاب البراهين الأحمدية. لم تكن مراسم البيعة مجرد إعلان أنّه مجدد القرن الرابع عشر الهجري وحسْب، بل لتُعلن أنّ الله تعالى قد بعثه خادما لدين الإسلام ليمحو العقائد الباطلة الداخلة عليه والتي نمت وتعاظمت وحاصرت الإسلام كالكلّابات، والتي لا بد من ضربها بقوة في الصميم حتى تُستأصل شأفتها.

ظهر العديد من المجددين في الدين الإسلامي منذ وفاة نبيّ الإسلام على رأس كل قرن هجري وكان هذا الأمر مقبولا عند المسلمين، لذا لم يكن بِدعا من الأمر أن يُعلن غلام أحمد أنّه مجدد القرن الرابع عشر الهجري، ولكنه أضاف أنّ مهمته ستأخذ طابع المسيح الناصري. ولإيضاح هذا الأمر ورد في رسالة منه إلى المولوي نور الدين عام ١٨٨٥ جاء فيها ما تعريبه: "إنني مبعوث من الله تعالى في عباءة المسيح الناصري النبي الإسرائيلي لأصلح أمر البشرية بإذن الله بالتواضع التام والحِلم والرفق والمواساة وأبين الطريق المستقيم لأولئك الغافلين عنه تعالى والذي من دونه لا سبيل إلى النجاة، وحتى يشهدوا في حياتهم الدنيوية هذه البشارات السماوية وأنوار القبول والمحبة الإلهية". يجدر بالذكر أنّه حتى ذلك الوقت لم يكن قد أعلن أنّه نبي مبعوث من عند الله، ولا أنّه الإمام المهدي المنتظر، ولا أنّه النـــزول الثاني للمسيح الناصري الذي ينتظره المسلمون وأصحاب الديانات الرئيسة في العالم[٤]، لذا فالبيعة التي

[4] كان عليه الصلاة والسلام قد أعلن قبل ذلك في البراهين الأحمدية وفي إعلانات أخرى أنه مثيل المسيح – وإن لم يبلغه الله تعالى حتى ذلك الوقت أن المسيح عيسى بن

تمّت له في لُـــدهيانة من قبل بعض أتباعه له لم تُثِر أي اعتراضات من قبل رجال الدين المسلمين في ذلك الوقت. كتب رجل دين مسلم معلقا على هذا الأمر: "في الحقيقة كان يُعدّ رجلا عظيم المكانة بين رجالات الإسلام، ورجل دين على قدر غير اعتيادي من التقوى والورع والفضيلة، متشربا حب الإسلام مدفوعا دائما بحماس قوي لخدمة الإسلام، وكثيرا ما كان يُنظر إليه بكونه نصيرا قويا للدين ومدافعا قويا عنه. وحتى غير المسلمين عدّوه رمزا إسلاميا مميزا وكانوا يَعُون تماما أثر كتاباته وقوتها".

غير أنّ دوره المرحَّب به من قبل جميع المسلمين كمدافع عن الإسلام لم يكن ليدوم طويلا، بل سرعان ما حدثت انقسامات كبيرة بشأنه. ففي نهاية عام ١٨٩٠ أي بعد سنة ونصف تقريبا من أخذ عهد البيعة أعلن غلام أحمد تلقيه وحيا جديدا يخبره الله فيه أنّ عيسى المسيح ليس حيا في السماء. وكان وَقْع هذا الإعلان كبيرا وصادما للمسلمين والمسيحيين على حدّ سواء. فعند المسيحيين؛ يسوع المسيح هو ابن الله الحي الموجود في السماء، والذي سيترل ثانية إلى العالم. في الواقع لم يختلف هذا الاعتقاد كثيرا عند المسلمين، أي إنهم يؤمنون بوجوده بجسده العنصري حيا في السماء مع الله، ويؤمنون بتروله قبل يوم القيامة ليعاقب الكفار ويقيم مملكة الله على الأرض. فجاء أحمد لا ليقول فقط أن المسيح قد مات، بل أنّ الله قد بعثه كمجدد للدين وكبعثة ثانية

مريم عليه السلام توفي ولن يعود – وأن النبوءات المتعلقة بمسيح آخر الزمان إنما تتعلق به بصفته مثيل المسيح، وأنه مبعوث من الله تعالى ليدافع عن الإسلام وليسعى لنشره في العالم. أما ما يقصده الكاتب فهو أنه لم يعلن وفاة المسيح وأنه هو المسيح الموعود المقصود بالنـــزول الثاني له، وأن مكانته في الواقع هي مكانة نبوية، وإن كانت نبوة ظلية غير مستقلة حازها بفضل اتباعه لسيده وسيدنا محمد المصطفى صلى الله عليه وسلم. فما حدث مع الوقت، في الواقع، إنما كان توضيحا لدعواه، لا دعوى جديدة طرأت بعد أن أخذ حضرته البيعة. (المترجمة)

للمسيح الناصري وأنّ الله أخبره بأنّه الشخص المختار لمهمة الإصلاح هذه وفقا للوحي الذي تلقاه: " *إنّك أنت مني المسيح ابن مريم، وأُرسلتَ ليتمّ ما وَعَد من قَبلُ ربُّك الأكرمُ، إنّ وعده كان مفعولا وهو أصدق الصادقين*"[مكتوب أحمد، ص٥]. وما كان من رجال الدين المسلمين إلا أن استشاطوا غضبا وعدّوا أحمد كافرا ودجالا وعدوا للدين لأنهم كانوا يرَون أنّ محمّدا هو خاتم الأنبياء ولا نبي بعده أي لن يُبعث أي نبي بعد بعثته[5]، قاموا بإصدار الفتاوى في كل أنحاء الهند بحسبانه منكرا لخاتمية محمّد، وبالتالي كافرا، حتى إنهم عدّوه دجالا أي تجسيدا لكل الخطايا وأكثر مخلوقات الله شرا!

لعل أبشع وأقسى الانتقادات التي قيلت بحق غلام أحمد هي تلك التي صدرت من صديق طفولته القديم محمد حسين البطالوي، الذي صار الآن يقول عنه أنه شرّ الناس على الإطلاق وأنه "خانَ الدين" و"أسوأ المرتدين" حتى إنه تمادى واصفا إياه بــ"حليف الشيطان"، بل وادّعى أنّ مدحه له – على كتاب البراهين الأحمدية – هو الذي رفعه بعد أن كان مغمورا، لذا فكما كان هو مَن رفعه سيكون هو من يدمره.

لم تُــزحزح عاصفة الجدل المستعرة غلام أحمد عن موقفه، وأجاب على كل ادّعاءاتهم بالحجة والمنطق ودعاهم إلى التصديق به وبشهادة القرآن الكريم في مسألة المسيح. أمّا معارضوه فحجتهم عليه آية ﴿مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ

[5] المشايخ المعارضون يؤمنون بنزول المسيح عيسى بن مريم عليه السلام في آخر الزمان نبيا بعد النبي ﷺ، وهذا هو الذي يتناقض مع ختم النبوة، ومع ذلك اتهموا حضرته عليه السلام بذلك؛ مع أن حضرته وضّح لهم مرارا أنّ اعتقادهم بنزول المسيح عيسى بن مريم نفسه نبيًّا هو في الواقع كسر لختم النبوة، وأكّد حضرته أنه لا يؤمن بنبي بعد رسول الله ﷺ، بل بيّن أن الأنباء المتعلقة بنزول المسيح في آخر الزمان متعلقة بحضرته بصفته خادما للنبي ﷺ، وبهذا حافظ الله تعالى على خاتمية نبوة النبي ﷺ، بل أكد عليها. (المترجمة)

مِنْ رِجَالِكُمْ وَلَكِنْ رَسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾[الأحزاب: ٤١]، وحسبوا دعواه تناقضا صريحا مع الآية القرآنية فردّ عليهم بأنهم لم يسيئوا فهم دعواه فقط، بل لم يفهموا القرآن الكريم كذلك. فهُم – وفقا لغلام أحمد – أساؤوا تفسير آية قرآنية بإهمالهم الآيات القرآنية الأخرى المفسِّرة لها[٦].

يقول غلام أحمد – وأتباعه من خلفه– أن هناك ثلاثة أنواع من النبوة في الإسلام، هناك النبوة التشريعية مثل نبوة موسى ومحمد والتي لن يشهد العالم مثلها بعد محمد؛ أي لن يبعث الله أنبياء مشرعين جدد، وهناك نبوة غير تشريعية ومستقلة عن النبوات الأخرى، مثل الأنبياء العديدين الذي بُعثوا بعد موسى. وأما النبوة الثالثة فهي التي تتأتى نتيجة الطاعة الكلية لنبي تشريعي، وهي النبوة الظلية التي يكون فيها التابع انعكاسا لأنوار متبوعه ولمزاياه. وهذه هي النبوة التي ادّعاها أحمد واعتقد أن الله شرفه بها نتيجة اتّباعه الخالص للنبي محمد؛ فهو انعكاس لأنواره ولا يزيد أي تشريع أو يُلغي أو يُحرف بأي شكل أي من الشرائع التي نزل بها متبوعه. هذه النبوة — وما زال الكلام لأحمد — لا تناقض ولا تنقص بأي شكل من الأشكال حقيقة خاتمية النبي محمد بمعنى أنّه آخر الأنبياء وأكملهم وأنّه حاز درجة من الكمال يستحيل أن يتم تجاوزها، وأنّ الخاتمية تعني أيضا التصديق أي أن خاتم الأنبياء هو الذي يصادق على نبوات الأنبياء. إنّ للنبي محمد كما يقول أحمد قدرة التأثير الروحانية التي ترفع مكانة أتباعه المخلصين إلى المراتب الروحانية للأنبياء، فهو نبي الأنبياء. غير أنّ معارضيه لم يوافقوه، وعكفوا على الأحاديث والآيات

---

[6] المشايخ أساءوا فهم هذه الآية بحدّ ذاتها، وليس أنهم أهملوا الآيات الأخرى المفسرة لها فقط، فالآية تؤكد على أنه لا بعثة جديدة بعد بعثته ﷺ، إلا أن تكون منه ﷺ وخادمة له، فهي تبدأ منه ﷺ وتنتهي إليه. ومع ذلك أصرّ المشايخ على بعثة عيسى عليه السلام بعده ﷺ. ويلزم من قولهم أنّه لا خير في تلامذة محمد ﷺ ولا في أمته. (المترجمة)

القرآنية يستخرجون منها الشواهد التي تثبت خاتمية محمد بمعنى الآخرية وكثيرا ما كانوا يرددون الأحاديث: "أنا آخر الأنبياء" و"لا نبي بعدي"، وكان غلام أحمد يرد بأنّ نص الحديث هو في الواقع: "أنا آخر الأنبياء ومسجدي آخر المساجد[٧]" [صحيح مسلم] بما معناه أنّ النبي محمد هو أفضل الأنبياء وأن مسجده أفضل المساجد. أما بالنسبة لجملة "لا نبي بعدي" فقال بأنّها تعني أنه لن يأتي نبي في المستقبل يلغي نبوة محمد بشريعة جديدة، ولدعم هذا التفسير يقتبس قول[٨] السيدة عائشة زوجة النبي: "قولوا خاتم النبيين ولا تقولوا لا نبي بعده".

لقد تحدث النبي محمد عن الأنبياء الذين سيأتون بعده، كذلك يُروى عنه أنّه بعد وفاة ابنه إبراهيم قال: "لو عاش لكان صديقا نبيا"، ومما لا يدعو إلى الشك أنّ القرآن الكريم مليء بالإشارات المتعلقة بالأنبياء الذين سيأتون في

---

[7] المؤلف يكتب آراءه وفهمه، وهي غير دقيقة في بعض الأحيان، فالمسيح الموعود عليه السلام لم يستدل بهذا الحديث في كتبه ولا في مناظراته مع الآخرين، وهو لا يرفض حديث لا نبي بعدي، ولا غيره من الروايات المتعلقة بختم النبوة، بل يستدل بها لنقض عودة المسيح عيسى بن مريم عليه السلام بنفسه. (المترجمة)

[8] عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ سِيرِينَ، عَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ: لا تَقُولُوا: لا نَبِيَّ بَعْدَ مُحَمَّدٍ، وَقُولُوا: خَاتَمُ النَّبِيِّينَ، فَإِنَّهُ يَنْزِلُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ حَكَمًا عَدْلا وَإِمَامًا مُقْسِطًا، فَيَقْتُلُ الدَّجَّالَ، وَيَكْسِرُ الصَّلِيبَ، وَيَقْتُلُ الْخِنْزِيرَ، وَيَضَعُ الْجِزْيَةَ، وَتَضَعُ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا، قال ابن قتيبة في (تأويل مختلف الحديث) [ص: ٢٧٢]: وَأَمَّا قَوْلُ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: "قُولُوا لِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خَاتَمُ الْأَنْبِيَاءِ، وَلَا تَقُولُوا لَا نَبِيَّ بَعْدَهُ"؛ فَإِنَّهَا تَذْهَبُ إِلَى نُزُولِ عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَلَيْسَ هَذَا مِنْ قَوْلِهَا، نَاقِضًا لِقَوْلِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "لَا نَبِيَّ بَعْدِي" لِأَنَّهُ أَرَادَ: لَا نَبِيَّ بَعْدِي، يَنْسَخُ مَا جِئْتُ بِهِ، كَمَا كَانَتِ الْأَنْبِيَاءُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَسَلَّمَ تُبْعَثُ بِالنَّسْخِ، وَأَرَادَتْ هِيَ: "لَا تَقُولُوا إِنَّ الْمَسِيحَ لَا ينـــزل بعده". (المترجمة)

الأيام المستقبلية؛ ورد في سورة الأعراف: ﴿يَا بَنِي آدَمَ إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي فَمَنِ اتَّقَى وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ [٣٦] وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ [٣٧]﴾. استخدم النبي محمد نفسه لفظ النبي وتحدث عن الوقت الذي سيأتي فيه هذا الموعود من الله لجميع الأديان السماوية في العالم. يقول أحمد: "أنا هو النبي الموعود" و"أنا المسيح الموعود"، وأنّه المهدي المنتظر لدى المسلمين لأنهما شخص واحد بحسب تفسيره. فالمسيح الناصري قد نزل بروزا في أحمد بمعنى أنّه مظهره لتشابههما في الجوهر والأخلاق كالمرايا المتقابلة، ويوضح هذا المعنى: "أنا المسيح ابن مريم في حلل البروز كما أنني بروز للنبي محمد صلى الله عليه وسلّم، وإن شخصي روحانيا هو مزيج لمظهر هذين النبيين" ولأنه متأكد من صدقه فقد كتب دعواه ونشرها وأشاعها في البلاد: "أقسم بالله الذي نفسي بيده أنه تعالى قد بعثني وأنه قد أنعم علي بلقب النبي وسماني المسيح الموعود".

الفصل الرابع عشر

أين مات المسيح الناصري؟

لا توجد آية واحدة في القرآن الكريم تفيد أنّ المسيح الناصري يعيش في السماء حيا بجسده العنصري، أما الآيات التي تصرح بوفاته فهي عديدة.

لقد مات النبي محمد، فلماذا الاعتقاد بحياة المسيح الجسدية؟ هذا هو التساؤل الجوهري الذي أثاره أحمد بخصوص موضوع وفاة المسيح، فهو يرى أنّ المسلمين أساءوا فهم بعض الآيات نتيجة لعدم تفسير الاستعارات والكنايات الواردة في القرآن بطريقة صحيحة، بالإضافة إلى تسرب بعض العقائد المسيحية التي تؤمن بحياة المسيح الناصري الجسدية في السماء إلى عقائد الإسلام الأصيلة على مدى القرون الطويلة.

الجدير بالذكر أنّ المسيح الناصري نفسه قد أشار إلى أنّ نزول إيليا قد تحقق ببعثة يوحنا المعمدان، وبعثة عيسى هي تحقق نزول المسيح المخلّص الذي كان ينتظره اليهود. ويضيف غلام أحمد أنّ الله لم يبعثه مسيحا موعودا فقط بل هو الإمام المهدي المنتظر أيضا، فهما وفقا له ليسا شخصين منفصلين بل هما تكليفان لشخص واحد، ويهاجم أحمد فكرة المهدي الدموي لدى عامة المسلمين الذين ينتظرون مهديًا يقتل كل الكفار ويدخل جميع الأمم في الإسلام، وإنما يفسر معنى هذا بأن الإمام المهدي المنتظر لن يُكره أحدا أو أمة بالسيف والقوة على الدخول في الإسلام، بل إنّ الله سيعطيه من الحجج والبراهين القوية ما يهزم بها كل المعارضين ويدحرهم ويظهر الإسلام على الدين كله.

كثيرا ما أعلن أن المعركة الفصل التي لابد من كسبها هي إقناع النصارى بفداحة خطأ معتقدهم الذي يؤله المسيح أو يعدّه أُقنومَ إله، فعيسى شخص

فانٍ كباقي البشر وهو نبي مثل الأنبياء المبعوثين من عند الله كموسى وإيليا ويوحنا المعمدان الذين خلوا وماتوا من قبله، بل إنّ المسيح نفسه لم يحسب نفسه ولا حوارييه حسبوه شيئا غير كونه نبيا مكرما من عند الله. يضيف أحمد أنّ العديد من نسخ الإنجيل الأصلية قد أشارت إلى كون المسيح نبيا، لكنّ هذه المخطوطات قام رؤساء الكنيسة بمنعها من الانتشار والشيوع وقرروا تنفيذ هذا الأمر في كثير من اجتماعاقم، وكذلك قرروا فيها الأجزاء التي ينبغي أن تُضمّن في الإنجيل من أعمال الرسل والأجزاء التي ينبغي استبعادها.

إنّ هذا التعديل الذي تم على الإنجيل من قبل المراجع الدينية الكنسية هو واحد من فوارق جوهرية كثيرة بين الإنجيل والقرآن، ويضيف أحمد أنّ الإنجيل تعرض لتعديلات وتغييرات كثيرة من قبل رجال الكنيسة على مدى قرون طويلة في الاجتماعات والمؤتمرات الكنسية، بينما نجد القرآن على النقيض من ذلك، فهو بأكمله وحيُ الله الخالص. بدأ المسيحيّون وبعد فترة طويلة من وفاة المسيح باستخدام التعابير والمصطلحات التي تشير إلى ألوهية المسيح أو إلى عدِّه أقنوما من ثلاثة أقانيم، بينما لم يفعلوا ذلك أثناء حياته. إنّ عبادة رجل من البشر- حتى وإن كان نبيا- هو خطيئة كبرى وشطط كبير فالله وحده هو الذي يستحق العبادة وهو الفرد الصمد، ولا ينبغي أن يُشرك بعبادته مخلوق.

لم يكن كافيا أن يعلن غلام أحمد أن المسيح الناصري قد مات وحسب، فقد رأى أنّ عليه التوجه إلى ربّه لطلب التوفيق ونفاذ البصيرة والفهم العميق لما جرى في حادثة الصَلب، وبعد ثمانية أعوام من الدراسة العميقة أعلن أحمد أنّه يعتقد بما لا يدعو إلى الشك أنّ المسيح قد عُلِّق على الصليب غير أنه لم يمت على الصليب، وما حدث هو أنّه قد فقد الوعي أي أُغمي عليه نتيجة الألم الشديد الذي عاناه من جراء المسامير التي دُقت في يديه ورجليه. واعتقد

الجنود الرومان أنه قد توفي، علما أنّ هذا صعب الحدوث بعد ساعات قليلة فقط من التعليق على الصليب حيث إنّ بعض الناس تبقى معلقة عدة أيام قبل حدوث الوفاة. جرت العادة عند الرومان أن يقوم الجنود بغية التأكد من موت المصلوب بكسر رِجلي الشخص المصلوب بحيث يبقى جسمه معلقا على يديه ويكون الألم لا يحتمل فيموت أسرع بسبب النـــزيف وفشل عضلة القلب. لكنّ حواريي السيد المسيح - كما يقول أحمد - حرصوا وتأكدوا من أنّ معلمهم لن يَلقى هذه المعاملة، لذا وبدلا من كسر الرجلين طُعن بحربة في جنبه وعلى الفور خرج منه دمٌ وماء، وهذا علامة على أنّ قلبه كان ما زال يعمل وأن دوران الدم في جسمه لم يتوقف. ولما أُخذ المسيح لاحقا إلى حجرة الدفن التي كانت غرفة واسعة، دُلّك جسده بالأعشاب والمراهم العلاجية فتماثل تدريجيا للشفاء.

على مدى القرون الطويلة التي تلت هذه الحادثة درس العديد من الأشخاص روايات حادثة الصلب خاصة الرواية المتناقلة حول ما حصل بعد الصلب، ومفاد الرواية الشائعة هو أنّ المسيح بعد إنزاله عن الصليب قد رآه تلميذه (توما) بلباسٍ بستانيٍ، وكان يبدو شاحبا جدا لدرجة أنّ حواريه لم يتبيّنه بسهولة إلى أن طلب منه المسيح أن يتلمس مواضع المسامير في يديه.

بحث الكثير من الأطباء مسألة تدفق الدم والماء من جنب المسيح بعد طعنه بالحربة وإذا ما كان هذا الدم قد سال من تجمعات دموية وكدمات أصيب بها سابقا نتيجة الضرب الذي تعرض له، غير أنّ التطور الطبي والأبحاث التي ظهرت لاحقا أتاحت المزيد من تحليل موقف الصلب من الناحية الطبية وبيان ما فيه. وعلى الرغم من تباين الآراء حول تفاصيل ما حدث بالضبط، هناك أمر واحد أجمع عليه جميع الأطباء هو أنّ حياة المسيح بعد إنزاله عن الصليب أمر قوي الاحتمال ولا مانع من حدوثه طبيا وأنّه مقبول جدا من الناحية الطبية، ومن المقبول طبيا أن يكون السيد المسيح قد

بدأ يتماثل إلى الشفاء خلال الأيام الثلاثة التي تلت نجاته من الموت على الصليب ما أتاح له مقابلة حوارييه.

كرر المسيح الناصري في أكثر من مناسبة أنّهُ بُعث فقط نبيا إلى بني إسرائيل وليس للعالمين حيث جاء في الإنجيل: "فَأَجَابَ وَقَالَ:«لَمْ أُرْسَلْ إِلاَّ إِلَى خِرَافِ بَيْتِ إِسْرَائِيلَ الضَّالَّةِ»." [إِنْجيلُ مَتَّى ١٥ : ٢٤]. كذلك أكّد المسيح هذا الأمر ثانية: "وَلِي خِرَافٌ أُخَرُ لَيْسَتْ مِنْ هذِهِ الْحَظِيرَةِ، يَنْبَغِي أَنْ آتِيَ بِتِلْكَ أَيْضًا فَتَسْمَعُ صَوْتِي، وَتَكُونُ رَعِيَّةٌ وَاحِدَةٌ وَرَاعٍ وَاحِدٌ." [إِنْجيلُ يُوحَنَّا ١٠ : ١٦]. وهنا لابد من ذكر موضوع قبائل بني إسرائيل العشرة التي طردها الملك البابلي نبوخذ نصر من الأرض المقدسة وسبى بعضها إلى بابل، وتشتت الباقون وذلك قبل سبعة قرون من ميلاد السيد المسيح، يقول أحمد أنّ المسيح أشار بقوله "الخراف الأخرى" إلى هذه القبائل. فالمسيح الناصري -وبعد نجاته من الصلب — لم يعد بمقدوره البقاء في فلسطين، وإلا سيُلقى القبض عليه فورا إذا ما كُشف أمره لأي سبب، غير أنّه من الوارد جدا بقاؤه في تلك البلاد متجولا مدة عام متخفيا إلى وقت تحول بولس – شاؤول سابقا– إلى المسيحية.

وصل العديد من الباحثين بشكل قطعي إلى أنّ اعتناق بولس للمسيحية بدأ من لحظة لقائه الحقيقية بالسيد المسيح، وبدأ المسيح بعدها رحلته ليجد قبائل بني إسرائيل الضالة ويكمل دعوته.

اعتقد غلام أحمد بأنّ بولس كان على علم بعزم المسيح على ترك البلاد وربما أساء بغير قصد منه فهم تعليمات المسيح. فوفقا لغلام أحمد كان بولس أوّل من طرح فكرة ألوهية المسيح وأول من أرسى تعدد الآلهة في المسيحية. يقول أحمد أن المسيح وبعض حوارييه قد تمكنّوا من الوصول إلى مدينة نِصِّيبين التي تبعد مسافة أربعمئة وخمسين ميلا عن القدس، وأنه قد انطلق

منها عبر فارس إلى أفغانستان، وأنّه قد زار التيبت وأجزاء أخرى من الهند قبل استقراره أخيرا في كشمير.

إن اسم المسيح بالعربية يعني كثير السياحة والسفر وقد عُرف بالنبي السيّاح وإمام السائحين لكثرة أسفاره كما يُورِد كاتب مسلم. ورد في كتاب كنز العمال، وهو مجموعة أقوال منسوبة إلى النبي محمد، بأنّه قد: "أوحى الله تعالى إلى عيسى أنْ يا عيسى اِنتقلْ من مكان إلى مكان، لئلا تُعرف فتُؤذى" [كنـــز العمال، الكتاب الثالث من حرف الهمزة الباب الأول في الأخلاق والأفعال المحمودة، فصل خوف العاقبة]

يقول أحمد أنّ المسيح حين استقر في كشمير عومل بتقدير كبير حيث عُدَّ نبيا وعُرف باسم " يوز آسف"، وكلمة يوز هي كلمة عيسى باللغة الفارسية القديمة، أما " آسف " فهو اسم ورد في الإنجيل ويعني الجامع [الهدى والتبصرة لمن يرى]، وهذا ليس بعيدا عن وصف عيسى لمهمته بأنه جاء ليجمع قبائل بني إسرائيل الضالة. هناك الكثير من الإشارات والشواهد التي تشير إلى وصول واحدة أو أكثر من قبائل بني إسرائيل إلى أرض البنجاب وأفغانستان التي يبدو فيها أثر الشعوب الإسرائيلية واضحا، فيوجد هناك الكثير من القرى والبلدات التي تحمل أسماء بلدات وقرى ذكرت في الكتاب المقدس. بالإضافة إلى ذلك، علّق الكثير من الرحالة الذين زاروا أفغانستان على هيئة رجال ونساء تلك المنطقة التي تشبه هيئة بني إسرائيل، أمّا الشاهد الأكثر أهمية فهو أنّ أهل أفغانستان وكثير من الأراضي الواقعة بين إيران وكشمير يدعون أنفسهم بني إسرائيل. ومن الشواهد القوية أيضا هو أنّ أهل كشمير الأصليين كانوا يسمون بلدهم "كـــ شير" أو "كـــ شيريا" شيريا هي سورية كما هو واضح و "كـــ" أي مِثل.

يقول أحمد إنّ السيد المسيح قد عاش في كشمير التي يصفها الكثير من الكتاب على مرّ العصور بأنها جنة الله على الأرض؛ قمم تعلوها الثلوج،

شلالات متدفقة وأشجار فاكهة من كل لون تكسو الوادي الأخضر. وهذا هو وعد الله الوارد في القرآن للمسيح: ﴿وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آيَةً وَآوَيْنَاهُمَا إِلَى رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ﴾ [المؤمنون ٥١] الذي تحقق بالكامل، وهناك في كشمير توفي عن عمر المائة والعشرين سنة ودُفن في مقبرة تقع حاليا في شارع يُدعى خان يار في مدينة (سِري نغر). تُورد الشواهد التاريخية لكشمير أنّ هذا القبر قد عُرف بقبر (النبي الأمير) الذي أتى من الغرب من تسعة عشر قرنا مضت، أما سكان المنطقة القدامى فيسمون القبر بقبر عيسى صاحب.

في عام ١١٥ بعد الميلاد، أي في خلال فترة تقل عن مائة عام من وفاة المسيح المفترضة، كتب مؤرخ يدعى (سوتا) كتابا باللغة السنسكريتية يسمى "باهفيسيا ماها بورانا"، والذي يؤرخ للمنطقة ابتداءً من فترة سيطرة ملك حكم وادي كشمير بين الأعوام ٣٩ إلى ٥٠ بعد الميلاد، ويورد قصة عن أنَّ الملك كان يجول راكبا حصانه حين التقى شخصا غريبا يرتدي أثوابا بيضاء، فسأله الملك عن اسمه وأجابه الغريب: "أدعى بابن الله وولدت من عذراء" وأخبر الملك بأنه عانى كثيرا بسبب دعوته إلى الله تعالى، فسأله الملك عندها أي دينٍ يتبع فأجاب الغريب – مليخا (وهي كلمة تعني الغريب أيضا): "بعثني الله لأكون عيسى المسيح في أرض الغرباء لأن الصدق اختفى منها ولأنّ كل حدود الأخلاق قد تمّ تجاوزها وألبسني عمامة المسيح، إنّ الله جعل قلبي قالبا كاملا طاهرا ومباركا وأذاع اسمي عيسى المسيح".

إنّ الوحي الذي أفاد أحمد بأنه تلقاه من عند الله تعالى بخصوص أسفار المسيح الناصري وموته قد رسّخت إيمان أتباعه وزادته قوة، ولكنها من جهة أخرى وحّدت المسلمين الآخرين والمسيحيين في محاربته.

الفصل الخامس عشر

عدو الله!

أعلن غلام أحمد بوضوح وجلاء كما سلف أنّ المسيح الناصري قد مات ولن يعود مجددا إلى هذه الدنيا، وأكدّ على أنّ القرآن والإنجيل يدعمان دعواه؛ لأن المقصود من نزول المسيح – وفقا له– هو أنّ الله سوف يبعث شخصا آخر يحمل روحه ويشابهه في الجوهر والمهمة. ويقتبس أحمد من إنجيل متّى: {لأَنِّي أَقُولُ لَكُمْ: إِنَّكُمْ لاَ تَرَوْنَنِي مِنَ الآنَ حَتَّى تَقُولُوا: مُبَارَكٌ الآتِي بِاسْمِ الرَّبِّ!».} [٢٣ : ٣٩] ويفسره بأنّه إشارة واضحة إلى ظهوره مستقبلا مرة أخرى ليس بشخصه نفسه ولكن في شخص آخر يُدعى باسمه يأتي مشابها له كالانعكاس. بالإضافة للقرآن، يستند غلام أحمد على حديث أبي هريرة عن رسول الإسلام أنه قال: " يُوشِكُ مَنْ عَاشَ مِنْكُمْ أَنْ يَلْقَى عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ إِمَامًا مَهْدِيًّا وَحَكَمًا عَدْلًا..." ويعتقد أحمد وفقا للحديث أنّ الشخص الذي سيبعثه الله إلى هذه الدنيا ليكون المسيح الموعود سيكون كذلك الإمام المهدي، ويكمل باقي الحديث الذي يقول:"... فَيَكْسِرُ الصَّلِيبَ وَيَقْتُلُ الْخِنْزِيرَ وَيَضَعُ الْجِزْيَةَ وَتَضَعُ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا" [مسند أحمد، كتاب باقي مسند المكثرين]. يشرح أحمد أنّ مهمة المسيح الموعود المكلف بها من عند الله هي كسر العقائد المتعلقة بالصلب عن طريق الحجة والبرهان والجدل بالتي هي أحسن، وبالطرق السلمية سيخلص العالم من الأخلاق الخنزيرية وبهذا يكون قد قتل الخنزير. كما يضيف أنّ النبي محمد أشار في حديثه إلى أنّ المسيح الثاني سيكون "منكم"، إذ يقول: "كيف أنتم إذا نزل ابن مريم فيكم **وأمّكم منكم** ؟"[رواه البخاري ومسلم]، وهذا كلّه يبين بما لا يدعو إلى الشك أنّ المسيح الموعود لن يهبط من السماء – كما يعتقد

المسيحيون– ولن يكون ابن مريم الذي عاش منذ ما يقرب التسعة عشر قرنا كما يعتقد عامة المسلمين، وعليه فالمسيح الموعود الذي سيبعث للعالم سيكون شخصا آخر في حلة المسيح الناصري وسيكون من المسلمين أنفسهم.

يقول أحمد عن دعواه بأنها ليست وليدة أفكاره بل هي قضاء الله الذي كلّفه بمحو الأخطاء التي شابت الأفهام وببيان نور الإسلام للعالم، وأن يظهر للعالم نور الإسلام المتلألئ كالماسة المشعة حيث كل وجهٍ من وجوهها يتلألأ عاكسا الأنوار، إنّه كالقصر المهيب الذي تنيره عشرات المصابيح وتنبعث منه الأنوار السماوية من كل غرفة. اعتقد أحمد أنّ الله قد كلفه بمساعدة الباحثين عن الحق ومعاونتهم، وأنّ مَثَله كمثل رجل يدعو الناس إلى أن يأخذوا حذرهم من السارقين فيكون تحذيره إنذارا لمن ألقى السمع ووعى فنجا، أما من غفل عن النذير فيخسر الخسران المبين.

يخاطب أحمد الناس قائلا إنه كما يترل المطر ويملأ الآبار التي طال عليها أمد الجفاف والعطش فكذا المبعوث الإلهي تكون بعثته نزول أمطار روحانية تسقي عطش الناس الروحاني، والعالم اليوم يعاني الظمأ الروحاني الشديد وقد بعثه الله ليكون هذا الغيث.

أيقن غلام أحمد بصدق دعواه ووثق بتأييد ربه ثقة لايشوبها أدنى ريب: "مَنَّ الله عليّ بالوحي والإلهام، وكلّمني كما كلّم برسله الكرام، ..... إبراهيم وإسحق وإسماعيل ويعقوب ويوسف وموسى وعيسى وخاتمهم المصطفى محمد صلى الله عليه وسلّم" [الاستفتاء]، إنّ فيض النور السماوي للنبي محمد – كما يقول غلام أحمد – شيء فوق الوصف، وأن الله أنعم عليه بالوحي فضلا منه نتيجة اتباعه الكامل لسيده محمد. ويضيف: "إنّ الوحي الذي جاءني من العلي القدير واضح كوضوح الشمس ولا يشوبه أدنى شك، وكلمني بكلمات نؤمن بها كما نؤمن بكتب الله خالق الأنام" [الاستفتاء].

بطبيعة الحال كان المسلمون هم أول من توجه أحمد إليهم في بداية أمر دعواه، لكنّه واجه منهم المعارضة الشرسة والاعتراض الكبير بسبب ادّعائه بتلقي الوحي وأنه المسيح الموعود، فحسبوه مهرطقا كافرا خارجا عن ملة الإسلام وعدوًّا للدين كما وصفه بعض المشايخ. غير أنّ سيل الاتهامات الذي انهمر عليه لم يولّد الأثر الـــمُنفِّر نفسه عند كل الناس، فعلى سبيل المثال سمع رجل يدعى ميان نظام الدين أحد المشايخ يدّعي إصابة أحمد بالجذام عقوبة من الله على إهانته للنبي محمد (على حدّ قول الشيخ)، فقرر ميان نظام الدين أن يذهب بنفسه إلى قاديان ليشهد على هذا، ولكنّه وجد غلام أحمد حيا يرزق وينعم بكامل العافية ووجد اختلافا كبيرا عمّا قيل له وسمعه، ثم ما لبث أن أصبح ميان نظام الدين نفسه من أصحابه الثلاثمائة وثلاثة عشر الأوائل.

ردّ أحمد على الاتهامات التي طالته والمعارضة التي قامت في وجهه بكل أسلوب، إذ أصدر بتاريخ ٢٦ آذار/مارس عام ١٨٩١ إعلانا من مدينة لُدهيانة يقول فيه ما معناه: "إنّ عيسى بن مريم عليه السلام قد مات وقد رآه سيدنا محمد صلى الله عليه وسلّم ليلة المعراج في الموتى مع النبي يحيى في السماء الثانية. وإني أنا المسيح الموعود الذي أُنبئتم عنه في القرآن والأحاديث. إنّه قضاء الله الذي لا رادّ له".

وكجزء من ردود الفعل على دعوى أحمد، جرت عدة محاولات لجمعه وصديق طفولته السابق الزعيم الديني محمد حسين البطالوي في مناظرة دينية، وتمّ الترتيب لهذا الأمر أخيرا بتاريخ ٢٠ تموز/يوليو ١٨٩١ في المترل الذي نزل فيه غلام أحمد في لُدهيانة، ثمّ عُدل موقع الحدث لاحقا بناء على طلب محمد حسين ليكون اللقاء في المكان الذي كان يترل فيه محمد حسين أي في مترل القاضي في المدينة نفسها. وتقرر أن تجري المناظرة على مدى اثني عشر يوما وأن يكون كل مضمون الكلام مسجلا على الورق الذي سيتبادل الطرفان الاطلاع عليه والتوقيع عليه أيضا لمزيد من التوثيق قبل أن يقوما

بقراءته جهارا على الحضور، وتمت في إطار الإعداد للمناظرة مناقشات بينهما حول المواضيع التي ينبغي أن تطرح للحوار.

أصدر أحمد في نهاية الترتيبات إعلانا حول العقائد الأساسية التي سيدافع عنها وعن العقائد التي أُلصقت به كذبا، فتضمن هذا الإعلان ما معناه: "ليكن معلوما أنّ المسألة الوحيدة التي تخضع للنقاش هي العقيدة الشائعة بين عامة المسلمين حول حياة المسيح الناصري عليه السلام بجسده العنصري في السماء، وهذا ما لا أؤمن به إذ لا سند لهذه العقيدة في القرآن الكريم أو في الأحاديث النبوية، أما فيما يتعلق بباقي الاتهامات فهي كلها باطلة وملفقة، فكلّ ما أؤمن به وأدعو إليه لا يخرج عن الإسلام قيد شعرة لا زيادة ولا نقصانا... وملخص القول إنّ جميع الاعتراضات المثارة ضدي والعقائد المنسوبة إلي – باستثناء موت المسيح الناصري ودعواي بأني المسيح الموعود لهذا الزمان– سخيفة لا أصل لها ومبنية على سوء الظن...".

واختتم المناظرة بإعلان التحدي التالي: "إنّ أولئك الذين يظنون فيّ ظنّ السوء ويعدّونني دجالا ويعدّون أنفسهم تقاة صالحين... عليهم أن يعلموا أنّي جاهز للدفاع عن نفسي وعن مكانتي التي وضعني الله فيها وفق الآية الكريمة ﴿قُلْ يَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ﴾ [الأنعام: ١٣٦]، وعليه فَلنمنح مهلة أربعين يوما لهذا الغرض ونرى من سيحظى بالتأييد الإلهي ومن سيتبين أنّه لزم التقوى في هذه المناظرة ومن سيكشف الله تعالى عليه أسراره وبمدده سبحانه وتعالى سيظهر للعالم أنّه الصادق."

"فليصغ كل من هو حاضر اليوم هنا أنني أعلن وأقسم بالله العظيم بأنّه إذا ما استطاع محمد حسين –بعد أن يبتهل إلى الله – أن يدّعي أن الله تعالى قد أعطاه أي إشارة سماوية أو كشف عليه أسرارًا خفية كما سأفعل فإنني أكون جاهزا لأُقتل... لقد جاء نذيرٌ في الدنيا، فأنكروه أهلها وما قبلوه، ولكن الله

يقبله ويظهر صدقه بصول شديد قوي، صولٍ بعد صولٍ، وسوف يؤيد صدقه بآيات مبهرات".

حضر هذه المناظرة نحو ثلاثمئة إلى خمسمئة شخص بما في ذلك محررو صحيفتين محليتين، وللأسف ساد الصياح والسخرية أجواء المناظرة حتى إنه وفي بعض حلقات الحوار لم يكن من السهل سماع الخُطَب التي كانت تُلقى، بل وتعدّى الأمر ذلك إلى أنّ بعض الحاضرين كانوا يخبئون حجارة في ثيابهم ويلقونها على المنصة التي كان يقف عليها المتناظران وبالطبع كان غلام أحمد هو هدف معظم هذه الرميات. أما في خارج المترل الذي عقدت فيه المناظرة فقد احتشد الكثيرون من الناس خاصة في اليوم الأخير ملوحين بسكاكينهم وعصيّهم، وإزاء هذه المشاهد الغوغائية الفوضوية رأى القاضي أنّ هذا اللقاء قد يؤدي إلى أحداث شغب وعليه فقد قرر اختتام المناظرة من فوره.

وطُلبت العربات لإخلاء أحمد وفريقه من موقع المناظرة إلا أنّ السائقين خافوا كثيرا من المرور بهذه الحشود ولم يصلوا الموقع فاضطر غلام أحمد للوقوف بين هذه الجماهير الغاضبة التي كانت تزداد عدائية كل لحظة. لكنْ ولحسن الحظ انتهى الموقف المتأجج بوصول مدير الشرطة مُعزَّزًا بقوة من الشرطة البريطانية الذين تمكنوا من فتح الطريق بين الحشود. عمّت الفوضى وما عاد هناك من مكان آمن؛ حتى البيت الذي كان يترل فيه حاصرته الغوغاء وطوّقوه بل وحاولوا تحطيم الأبواب لكنهم بالطبع مُنعوا من قبل الذين كانوا يترلون في المترل من أتباعه، فما كان من المهاجمين إلا أن عاودوا التجمع وحاولوا مجددا بقوة أكبر مُبعدين المدافعين الواقفين على الأبواب والنوافذ، وتسلقوا السلالم صاعدين إلى سطح المترل وتمكن بعضهم بالفعل من دخوله لكنهم طُردوا بعد عراك عنيف. كان واضحا للقاضي من هو المحرض المسئول عن تهييج الغوغاء؛ أي محمد حسين البطالوي، لذا أمره بترك البلدة فورا.

شاعت أخبار هذه المناظرة وأحداثها على مدى أيامها البالغة اثنين وعشرين يوما، وما تفجر فيها من مشاعر بسبب دعوى أحمد أنّه المسيح الموعود، وصار الآن معروفا في كل جزء من إقليم البنجاب والأقاليم المجاورة[٩]. حتى ذلك الوقت كان أتباعه ما يزالون فئة قليلة غير أنّ مسيرتهم للأمام قد بدأت لتوها وبدأ معها السب والقدح المقذع، وللأسف وبعد فترة قصيرة تجاوز الأمر السبّ والقدح حين بدأ المشايخ المسلمون بإصدار فتاوى تعدُّ غلام أحمد وأتباعه مرتدِّين خارجين عن الإسلام وأنه حرام على المسلمين التعامل معهم بأي طريقة بما فيها إلقاء التحية، وحتى إنهم مُنعوا من دفن موتاهم في قبور المسلمين.

تضمنت إحدى هذه الفتاوى: "إنّ غلام أحمد هو واحد من الدجالين الذين أنبأت عنهم الأحاديث النبوية الشريفة، وعلى المسلمين أن ينأوا بأنفسهم عنه وعن جماعته المنافقين، ولا يتعاملوا معه في أي من الأمور الدينية بل يجب أن يجتنبوا صحبته ولا يصلّون عليه إذا مات ولا على أتباعه كذلك، فهو وأتباعه مارقون من الدين كَذَبة شياطين ملعونون... لا يوجد أدنى شك في أنّ ما جاء به القادياني الكاذب هو محض بدعة فهو خائن بل هو شر مخلوقات الله وعدو الله، وكل مَن يؤمن به ويصدقه فهو مرفوض ملعون من الله". فيما فرّقت فتوى أخرى أصدرها هؤلاء المشايخ بين أتباع أحمد وزوجاتهم وعدّت زيجاتهم باطلة وغير قائمة إذ تقول: "من شاء أن يتزوج من هؤلاء النساء (اللاتي هنّ متزوجات أصلا) فَليَفعل..."

---

[9] يبدو أن الكاتب قد خلط بين أحداث مناظرة لدهيانه وأحداث مناظرة دلهي؛ فمناظرة لدهيانه كانت مع البطالوي، واستمرت ١٢ يوما. أما مناظرة دلهي فكانت مع محمد بشير البهوبالوي، وهي التي حدثت فيها الفتن وجاءت الشرطة. (المترجمة)

غير أنّ هذه الفتاوى وهذا الهجوم لم يؤثر في أتباعه الذين كانوا يرونه من منظور آخر. يقول محمد إسماعيل – وهو واحد من أصحابه الأوائل: "هناك بون كبير بل عالم شاسع بين من رأى حضرة غلام أحمد ومن لم يره، إنّ الإحساس الغامر بفضل الله تعالى الذي أتاح لي رؤيته والتمتع بصحبته يغمر كذلك قلوب كل من رأوه. لا تستوي رؤية الأصل ورؤية الصورة، غير أنّ العين التي رأت الأصل هي وحدها من يعرف الفرق، لذا لن أتكلم عن مظهره الخارجي وملامحه بالتفصيل، فهو من ناحية الهيئة الخارجية مثال رائع للرجل الكامل.

ولكني أرى أنّ هذا الوصف سيكون منقوصا إذا لم أذكر ما كان ملازما لهذه الهيئة الكاملة من ألق ونور روحاني عجيب، مما لا شك فيه أنّ حضرته قد بُعث ليُريَ جمال الإسلام وقد أنعم الله تعالى عليه بالهيئة التي تكمّل هذا الأمر وتظهره وتجعل أفئدة كثيرة تهوي إليه ممن رأوه. لقد كان حضرته أبيض الوجه وكان كل شيء فيه متناسبا، كان وجهه المبارك يشع كالذهب الخالص وتعلوه دائما ابتسامة بهيجة. كان كل من يراه يقول إذا كان هذا الشخص كاذبا ويعرف أنه كاذب فكيف يمكن أن ترتسم على وجهه أمارات السرور والبركة والنصر والسكينة؟ إنّ علامات التقوى وأمارات الصلاح الظاهرة لا يمكن أن تنبع من طويّة خبيثة ولا يمكن لنور الإيمان أن يشع من وجه مدّعٍ كذاب. لم يبدُ أبدا على وجهه أي علامة اضطراب أو حزن. كان كلّ ما يلحظه الزائر ويراه هو ابتسامة الرضا. لقد كانت عيناه نصف مفتوحتين وتقرأ على جبينه نفاذ البصيرة وبعد النظر والذكاء. ما كان في مشيته ولباسه أي تكلّف. أجل! إنّ هيئة حضرته لافتة وتستحق الانتباه غير أنه لم يكن مهتما اهتماما زائدا بها بل كانت ثانوية بالنسبة لحقيقة شخصيته المهيبة".

الفصل السادس عشر

الجــهاد

كان العامل المشترك في كل الادّعاءات والافتراءات التي وجّهت لأحمد في تلك الفترة أنّه جاسوس ومثير للفتن وعميل مأجور دفعت له الحكومة البريطانية المبالغ والإعالات السخية ليقوم بشق صف المسلمين وليحول دون اتحادهم في قوة سياسية واحدة، وإلا كيف تمكن –حسب زعمهم– من تمويل أنشطته الدعوية؟

لابد من الانتباه إلى أنّ الغرض من استعمال كلمة جاسوس بحقه هو الحط من قَدْره والإساءة إلى سمعته كجزء من حملة التشهير ضده، بُغية تنفير المؤمنين الـــمُحتملين بدعوته، ففي الواقع لا يوجد ما يمكن التجسس عليه؛ فالرجل عاش في قرية منعزلة صغيرة و لم يكن له أي اتصال بأي نشاط سياسي من أي نوع في تلك المرحلة التاريخية.

أمّا التهمة الثانية التي كانت غالبا ما تُثار ضده، فهي أنّ الحكومة البريطانية دفعت له مبالغ مالية كبيرة من أجل أن يقوم بالدعوة إلى إلغاء الجهاد أو الحرب المقدسة كما يدعوها بعضهم. وينبغي هنا الوقوف على هذه التهمة وتحليلها والتعمق فيها، لأنها الاتهام التاريخي الذي يُشهر كالسيف في وجه الجماعة الإسلامية الأحمدية من قبل المعارضين منذ نشأتها.

كان الاستعمار البريطاني للهند وفي البنجاب خاصة في جوهره وكما يصفه مؤرخ أمريكي"حكما صارما لأقصى حد يمثله حاكم بريطاني للولاية، لا يميل إلى التحيز لأي دين من الأديان، نـــهجه الحياد الديني وهمه الدفاع والمحافظة على أمن المجتمع في البلاد بما فيه من أرستقراطيين وفلاحين وقرويين" وبالتالي لم تكن الحكومة البريطانية المستعمِرة ترغب في انقسام

المسلمين بأي شكل من الأشكال، لأن مصلحتها تقتضي المحافظة على السلام والاستقرار وإيجاد طبقة متعلمة من الموظفين الهنود حتى لا تحتاج لاستقدام موظفين بريطانيين، وتطوير الإمبراطورية البريطانية عبر هذه الطبقة. ولتحقيق هذه الغاية فقد فرضت الحكومة البريطانية العقوبات الجزائية الصارمة بوجه من يثير الفتن والعداوات الدينية". وإذا ما عدنا إلى الصحف مرة أخرى، ووفقا للمؤرخ الصحفي نفسه الذي يقول بخصوص حكام الولايات البريطانيين: "لم يكونوا يتوانون عن استدعاء الشرطة والجيش للسيطرة على أي قلاقل دينية أو لإخمادها". بالطبع لم تقم الحكومة البريطانية في تلك الفترة بدور مرشدة الهند نحو الاستقلال التام والحكم الذاتي ولكنها مما لاشك فيه كانت تسعى لتوفير حكم فعال مستقر وغير متحيز دينيا قدر المستطاع.

وعليه، فإنّ صاحب دعوة دينية مثل أحمد، أجدر أن تنظر الحكومة البريطانية إليه بعين الشك وأنْ تعدّه مثيرا محتملا للقلاقل لا أن تعدّه موظفا هنديا لصالح الحكومة المستعمرة. ومن الطبيعي أن تنشر صحيفة مثل "الجريدة المدنية والعسكرية" (Civil and Military Gazette) وهي صحيفة يومية تصدر في لاهور هذا الرأي (أي أن أحمد مثير محتمل للقلاقل). وصحيح أنها صحيفة خاصة غير أنها شبه رسمية وتغطي أخبار المناصب المدنية والعسكرية وتطرح على الجمهور آراء ووجهات نظر بخصوص القضايا المختلفة والسلطات الحاكمة في المناطق التي يُعتقد بأن هذه الآراء غير معروفة فيها. وبالطبع فإنّ نشر هذا الرأي – بخصوص الاتهامات الموجهة إلى أحمد بأنه يتلقى تمويلا من الحكومة البريطانية ليفرق المسلمين ويشق صفهم وليصرف نظرهم عن حقهم في تقرير مصيرهم السياسي المستقبلي –كان ليضعف هذا الاتهام في عين القارئ الواعي.

بعيدا عن السياسة، وعلى صعيد التعليم وشئون أخرى، يمكن القول أنّ الحكومة البريطانية قد انتهجت بالفعل مبدأ "فرّق تَسُد" بين الهندوس

والمسلمين وبررت هذا الأمر بأسباب تاريخية، وليس نتيجة سياسة حكومية؛ لأنه وفق الحكومة البريطانية لا يوجد مبدأ سياسي عندها اسمه فرّق تسد. أمّا الأسباب التاريخية فهو الاعتقاد الشائع عند مسؤولي الحكومة البريطانية المستعمرة بأنّ المسلمين ليس عندهم ولن يكون عندهم أي ولاء للحكومة البريطانية، فلطالما وُجد الـــمُلّات أو المشايخ الذين يعظون في خطبهم عن الجهاد ضد بريطانيا، على الرغم من أنّه بعد إخماد تمرّد عام ١٨٥٧ لم يعد هناك أي أمل في قيام دولة مغولية مرة أخرى، إلا أنّ المخاوف وانعدام الثقة ظل قائما.

أمّا الجهاد عند أحمد فهو: جهاد في سبيل الله من أجل إعلاء كلمة الله وليس لأجل حكومة سياسية إسلامية أو ضد أي حكومة أجنبية، لمجرد أنها أجنبية. فلو أُتيح للمسلمين أن يمارسوا شعائر دينهم بدون خوف ولا اضطهاد، وإذا نَعم جميع المواطنين بالحماية والرعاية على قدم المساواة دون أي تمييز وعاشوا في ظل حكومة عادلة فالدعوة إلى الجهاد لا تكون عملا شرعيا. رأى أحمد أنّ المطالبة بحكومة أفضل حقٌّ وواجب على المواطنين المطالبة به دائما، ولكن لا يوجد أي مبرر يسوّغ إلباس الأمر زيا دينيا والتمسح بالدين وتبرير العصيان المسلح وتسمية عمل كهذا جهادا ضد الحكومة البريطانية، بل إنّ الدعوة إلى الجهاد في هذه الحالة هي تشويه لتعاليم القرآن الكريم. إنّ الجهاد هو ما بينه القرآن الكريم - بالطبع حسب أحمد- في الآية التالية من سورة الفرقان: ﴿فَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَجَاهِدْهُمْ بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا ﴾ [الفرقان ٥٣].

إنّ قلوب وعقول غير المؤمنين لا تُفتح إلا بالاطلاع على جمال وصدق الإسلام، فالتبليغ الذي هو الجهاد الحقيقي من وجهة نظره هو إطلاع العالم على هذه المفاهيم الموجودة في الإسلام. ويقتبس أحمد من القرآن ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾ [البقرة: ٢٥٧] وأنّه لا ينبغي أن يُقاتل المسلم إلا من قاتله، القتال

يكون ضد المعتدين ومن مارس الاضطهاد على المسلمين لا أن يكونوا هم أنفسهم معتدين على الآخرين. لا يكون هناك داع للحرب الدينية إلا إذا أكره المسلمون على تغيير دينهم أو اضطهدوا بشكل جماعي، ولأنّ هذا لم يحدث تحت الحكم البريطاني فلا مبرر بالتالي لهذه الدعوة الجهادية ضد الحكومة البريطانية. كذلك لا يكون الجهاد شرعيا إذا كان هدفه هو إرغام الناس على قبول الإسلام وترك دياناتهم؛ فالإسلام لا يحتاج إلى مؤمنين مُكـــرَهين من هذا النوع ولا يحتاج إلى من أُجبروا على اعتناقه بالسيف. إنّ الاختلاف في الدين لا يشرع أبدا استخدام العنف ضد أرواح الآخرين أو ممتلكاتهم أو انتهاك شرفهم، فالله لا يحب المعتدين مهما كانوا. لا يوجد ما يبيح الجهاد ضد الحكومة البريطانية؛ هذا ما يقوله أحمد، وقد ردد هذا القول في الكثير من المناسبات ولفت نظر الحكومة البريطانية إلى المناسبات التي قال فيها رأيه هذا حتى لا يساء تفسيره بأي طريقة. لقد دعا إلى إقامة حكم الله على القلوب والعقول ولم يرغب في وجود عائق على حركته أو على حريته في الخطاب والكلام ليدعو إلى الإسلام، لم يرغب بأي حال أن يقوم أي حاكم بريطاني شديد الالتزام بمصالح بلاده أن يتدخل في عمله في سبيل الله ويوقفه عن دعوة العالم إلى الإسلام.

الفصل السابع عشر

مواجهة مع المسيحية

أكثر ما كان يؤذي غلام أحمد هو اتهام المشايخ له بأنه عدو الله والأنبياء، وقد كتب في هذا الاتهام ما تعريبه: "إنهم يتهمونني بأنني مهرطق وشيطان وصاحب بدعة، وإنني أستغرب إطلاق هذه الألقاب عليَّ وأنا الذي انفطر فؤادي حزنا على مصائب الإسلام. يا سيدي يا رسول الله! إنني على استعداد في سبيل إعلاء اسمك أن أتحمل هذا العبء وحيدا".

رد أحمد على الاتهامات الموجهة إليه بالآيات القرآنية، واستشهد بالأحاديث النبوية الشريفة التي تدحض الاتهامات وتفندها، حتى إنه اقتبس كذلك من الإنجيل والمصادر الأخرى.

حتى هذه الفترة زار غلام أحمد المدن الرئيسة الكبرى مثل دلهي ولاهور في سبيل نشر دعوته وتبليغ رسالته، وكان يُعلن بأن الله تعالى قد أوحى إليه إلهامات عديدة مبشرة، مثل: *"كتب الله لأغلبنّ أنا ورسلي، ينصرك الله من عنده، ينصرك رجال نوحي إليهم من السماء، كنتُ كنزا مخفيا فأحببت أن أُعرف، إني معك ومع أهلك ومع كل من أحَبَّك، وإني أباركك ببركات عظيمة حتى إنّ الملوك يتبركون بثيابك"* [الاستفتاء: ص٦٧]، فضلا عن الوحي المبشر يقول أحمد أنه تلقى وحيا آخر يخبره الله تعالى فيه بأن من ضمن مهماته دعوة الغرب فضلا عن الشرق إلى الإسلام الصحيح، وقال في ذلك مفسرا حديثا نبويا: "إنّ شروق الشمس من الغرب يعني أنّ الأمم الغربية، التي ظلت غافلة نائمة لقرون طويلة في ظلمات الرذيلة والإلحاد، سوف تستنير بشمس الإسلام والتقوى وسيكون لها دور في نشر بركات الإسلام". وبالفعل، وخلال أقل من عقد، أرسى غلام أحمد أساس دعوة

الغرب إلى الإسلام، وتبعا لهذا فالمواجهة مع المسيحية باتت حتمية وبدأت بالفعل.

مما يجدر ذكره في هذا الموضوع أنّ الكنيسة الإنجيلية التبشيرية الإنجليزية قد أسست أول قاعدة لها في الهند عام ١٧٩٩، تلاها بعد ذلك تأسيس عدة منظمات إرسالية تبشيرية من قبل كنائس أخرى؛ كالكنيسة الأسكتلندية والكنيسة المتحدة الأميركية (بروتستانتية)، والمعمدانية الإنجليزية، وكنيسة الميثوديين الأميركيين (حركة كنسية إصلاحية)، والأخوية المتحدة الألمانية. وهكذا، وحتى عام ١٨٥١، صار هناك في الهند نحو تسع عشرة إرسالية وجمعية تبشرية مسيحية تعمل بنشاط، حتى وصلت إلى ثلاث وسبعين منظمة في أواخر ١٨٩٠ فضلا عن عدد معتبر من التبشيريات غير المنضوية تحت منظمة معينة، والتي تعمل مستقلة. نستطيع أن ندرك فعالية هذه المنظمات من خلال النظر إلى أعداد المسيحيين في الهند؛ ففي عام ١٨٥١ قدّر عدد المسيحيين في الهند بواحد وتسعين ألف مسيحي هندي، ونما هذا العدد في غضون ثلاثين سنة إلى أكثر من أربعة أضعاف.

أما في عام ١٨٨٢، واستكمالا لهذه الأنشطة، أسس القس د.مارتن كلارك فرعا طبيا إرساليا لكنيسة جمعية الرسل في قرية جانديالا الواقعة في مقاطعة أمريتسر، وعلى الرغم من وجود البعثات التنصيرية في تلك المنطقة منذ عام ١٨٥٤ غير أنها لم تحظ سوى بقدر قليل من النجاح حيث صادفت في بادئ أمرها معارضة بسيطة.

كان الإرساليون التنصيريون يدعون إلى محبة الله من خلال مواعظهم في أول أمرهم، ثم ما لبث أن تغير أسلوبهم عندما ازدادت جمعياتهم ونفوذهم، وتحوّلوا إلى مهاجمة الإسلام ومحاولة تبيان مقدار أخطائه وسقطاته من وجهة نظرهم. واستمر هذا الأمر لهم حتى عام ١٨٩٠ حين كسر القرويون صمتهم إزاء الهجوم الحاصل على الإسلام أمام أعينهم من قبل التنصيريين الذين لم

ينفكوا يشككون في صدق الإسلام عن طريق إثارة التساؤلات تارة وتارة عن طريق الاعتراضات، وبهذا فقدت مودة العيش المشترك في تلك القرية وثارت العداوات وتضاربت الآراء والأيدي في بعض الأحيان. فقرر الدكتور القس مارتن كلارك الذي تعلَّم الطب في إدنبرة في بريطانيا بعد تخرجه من جامعة أكسفورد في كامبردج- أن خير وسيلة لنشر المسيحية في تلك المنطقة هي المناظرات العلنية العامة، وكان من وجهة نظره أن الأمر لن يتطلب الكثير لفتح عيون القرويين البسطاء على مغالطات الإسلام الذين لا يعرفون الكثير عن حقيقته وفي الوقت نفسه لفْت نظرهم إلى محاسن المسيحية. ولتحقيق هذا الغرض ارتأى الدكتور مارتن أن يعلن عن استعداده لمناظرة كبار القرية الذين قاموا بإرسال خطاب إلى غلام أحمد طالبين منه الحضور لتولي المناظرة، وردّ عليهم بالموافقة.

لم يرد القس مارتن كلارك مناظرة غلام أحمد، فكان ردّ فعله الفوري لدى علمه بهذا النبأ أن طبع منشورا في مطبعة الإرسالية الأميركية الموجودة حينها في لُـــدهيانه ووزع هذا المنشور في كل أنحاء القرية، تضمن المنشور إعلانا من قبل القس مارتن يقول فيه أنّ مرزا غلام أحمد لا يُعتبر مسلما وبالتالي لا ينبغي أن يمثل المسلمين في هذه المناظرة، وقد ضمّن إعلانه هذا مقتبسات من ادّعاءات وكتابات المولوي محمد حسين البطالوي. ولكنّ كبار القرية المسلمون ثبتوا على موقفهم وأصروا على أن يمثلهم أحمد، وبالفعل قاموا بإرسال مندوب عنهم ليلتقي القس د.مارتن كلارك في أمريتسر، وأوضح المندوب للقس أنّ جانديالا قرية صغيرة وأنه لا يتوفر فيها شخص على قدر كاف من العلم بحيث يصلح لتمثيلهم في هذه المناظرة، لذلك فقد رأت زعامات القرية اختيار مرزا غلام أحمد، فلم يملك د. مارتن سوى تجاوز هذه النقطة.

تمّ الاتفاق على أن تتألف المناظرة من شقّين تمتد مناقشة كل شق منهما على مدى ستة أيام، وأن تبدأ المناقشات في كل يوم في الساعة السادسة صباحا وذلك للاستفادة من برودة الجو الصباحي- وأن تنتهي في الساعة الحادية عشرة قبيل الظهر، وأن يحضر المناقشات عشرون شخصا من الجانب المسلم ومثلهم من الجانب المسيحي وأن يلتزم المتناظرون بالمواضيع المتفق عليها بدقة. أطلق المسيحيون على هذه المناظرة اسم الحرب المقدسة وحتى إنّ مبشرا مسيحيا آخر هو القس روبرت كلارك كتب تعليقا بعد سنين تلت هذا الحدث وعنوَنه باسم: "رسالة جمعية الرسل التبشيرية في البنجاب والسند"، وأشار إلى هذه المناظرة بالمناظرة العظيمة.

شملت موضوعات الجزء الأول الذي تمت مناقشاته في الأيام الستة الأولى إثبات صدق كل دين بالأدلة الحية، ثانيا مسألة ألوهية السيد المسيح. وفيما يتعلق بالموضوع الأول فقد قبله المسيحيون على مضض وحجتهم أنّ المعجزات الحية ليست لازمة بالضرورة لإثبات صدق المسيحية، ولكن إذا كان بمقدور غلام أحمد تقديم أي معجزات فسيكونون على حدّ تعبيرهم- سعداء للشهادة عليها ولاتباعه فورا. أما من جهة أحمد فقد اتبع مبدأ عاما للمناقشات الحاصلة وهو أنّ المدافع عن دينه ينبغي أن يدعم ادعاءاته وحججه المطروحة من نصوص معترف بها في ديانته. وبالتالي اقتصر استشهاده على الآيات القرآنية التي تفند مسألة ألوهية السيد المسيح وتقدمه في الوقت نفسه كبشر؛ فكل الرسل المبعوثين من عند الله بما في ذلك الوارد ذكرهم في العهد القديم -كما أشار غلام أحمد في هذه المناظرة- هم بشر. فإذا لم يتم تقديم حجة واضحة بمثال بيّن من قبل المسيحيين على ما يناقض الطبيعة البشرية للسيد المسيح وينفيها عنه فإنّ ادّعاء ألوهيته تصبح قضية واهية وداحضة ولا يمكن القبول بصدقها.

مثّل الجانب المسيحي في هذه المناظرة السيد عبد الله آتهم، وقد أبدى اعتراضه على اعتبار المنطق والتجربة سبيلا ودليلا وحيدا يهدي إلى الإيمان، فهو يرى أنّ الإنسان لا يتسنى له الإحاطة بمفهوم التثليث إذا ما انتهج العقل والتجربة غير أنّ الإنجيل هو الذي سمّى عيسى المسيح ابن الله وقدّم هذه العقيدة. كان هذا بالنسبة لمرزا غلام أحمد تهرُّبًا لا إجابة.

افتتح المسيحيون النقاش بالحديث عن معجزات السيد المسيح المذكورة في الإنجيل من أنّه شفى العميان والمرضى طالبين ضمنيا من غلام أحمد تقديم معجزات مماثلة، الأمر الذي عدّه غير لائق، فوفقا له طلب معجزات من هذا النوع أو اشتراط منافع دنيوية كعلامة على صدق المبعوث من عند الله مسألة غير لائقة إيمانيا، وقال عندها: "إنّ أولئك الذين يشترطون الحصول على منفعة دنيوية معينة حتى يؤمنوا بمبعوث السماء يعتقدون واهمين أن الله تعالى مجبر والعياذ بالله على أن يظهر نفسه لهم. ما أغبى هؤلاء! إنهم لا يعلمون أنّ الله تعالى قد كتب على نفسه أن يريهم الصراط المستقيم وسبيل الهدى عن طريق إرسال مبعوث لهدايتهم، فالله تعالى بيّن للمكذبين الكافرين أنّ في السماوات والأرض آيات للطالبين. إنّ الحاجة للنبي هي أكبر آية على صدق المبعوث المرسل من عند الله، فلماذا السؤال عن الآية الدنيا ما دامت الآية الأعلى والأكبر موجودة؟"، ويصف غلام أحمد ما ينبغي أن يكون عليه ختام حياة المؤمن الحقيقي بما تعريبه: "لابد أن يتجلى صدق المؤمن الحقيقي في لحظاته الأخيرة بحيث تكون مغادرته لهذه الحياة لحظة رضا قلبي وطمأنينة. إذا ما وُضع هذا الأمر وهذه الخاتمة دائما في الاعتبار فإنّ هذه اللجاجة والإلحاح في طلب المعجزات المادية كشرط للإيمان لن تكون موجودة أصلا. إنّ مردّ طلب المعجزات المادية هو خلو القلوب من خوف الله تعالى وخشيته، فلو دخل قلوبهم الإحساس بعظمة الله وجلاله لارتجفت قلوبهم خوفا واقشعرت جلودهم ولأتوا الله منيبين بأفئدة منكسرة طاهرة ولما وضعوا شروطا سابقة.

ماذا يكون ظننا بمريض أتى الطبيب وقال له إنه لن يقبل بعلاجه ما لم يعِد الطبيب بأن يدفع له مبلغا من المال؟ إنّ هذا هو شبيه ما يطلبه هؤلاء الناس المرضى القلوب من الله تعالى؛ فهم يقولون له سبحانه نحن لن نؤمن بك ما لم تعِدْنا بالمكاسب الدنيوية.

إنّ الحكم الصائب على الأمور وقبول الحق لا يحتاج إلى معجزات مادية".

إلا أنّ هذا الرد لم يَرُقْ للجانب المسيحي الذي أعلن بأنّه إذا ما كان غلام أحمد هو فعلا المسيح الموعود فلا ريب أنه بمقدوره الإتيان بما أتى به المسيح الناصري، وفي اليوم الأخير من أيام المناظرة أعاد الجانب المسيحي إثارة هذا الأمر ثانية وترديد الطرح نفسه بأن المسيح الثاني لابد أن يأتي بما أتى به المسيح الأول. حتى إنهم أي الجانب المسيحي- قد رتبوا لهذا الأمر وأحضروا ثلاثة رجال إلى مكان النقاش بحيث كان أحدهم كفيفا والثاني أعرج والثالث أبكم حتى يقوم أحمد بشفائهم على الملأ. وساد الصمت القاعة لدى هذه المفاجأة بانتظار رد أحمد، والواقع أنه لم يتردد ولم تبد عليه صدمة المفاجأة ورد بهدوء المتيقن من صدقه: إنّ النصوص الدينية المسيحية أي الإنجيل- هي التي تذكر قيام المسيح بهذا النوع من المعجزات؛ أي أنّه أعاد للعميان أبصارهم وأبرأ البكم وشفى العرج. وأضاف أنّه شخصيا لا يؤمن بهذا، إلا أنّه مدرك تماما أن كل مسيحي في هذه القاعة يؤمن بخلوص قلبه بوقوع هذه المعجزات على النحو المذكور. فكما سلف، سبق لغلام أحمد دراسة الإنجيل؛ فهو يعرف تماما ردّ المسيح الناصري على حوارييه حين سألوه عن المعجزات المادية، لذا ردّ على مناظريه برد يسوع الوارد في الإنجيل نفسه بأنّهم إن كان لهم مثقال حبة خردل من الإيمان فإنهم يستطيعون أن يجعلوا العميان مبصرين وأن يشفوا العرج بمجرد أن يضعوا أيديهم عليهم، والآن قد سنحت الفرصة للجانب المسيحي، كما قال غلام أحمد - أن يثبتوا إيمانهم المسيحي عن طريق القيام بما قام به يسوع المسيح في الإنجيل. فدُهش أعضاء الجانب المسيحي

وتعجبوا من ذكاء هذا الرد الذي لم يملكوا إزاءه ردا سوى الطلب من الرجال الثلاثة مغادرة القاعة.

أما خاتمة النقاش، فكانت أن أشار غلام أحمد إلى كتاب السيد عبد الله آتهم "المعنى الحقيقي للإنجيل" (أندروناي بايبل) الذي وصف فيه نبي الإسلام محمد بالدجال، وأعلن أحمد أنّ الله أخبره عن طريق الوحي أنّ الفريق الذي يتّبع الباطل عمدا من بين الفريقين ويؤلّه الإنسان العاجز فإنّ مصيره أن يُلقى في الهاوية خلال خمسة عشر شهرا، وأنّ هذه النبوءة تكون دليلا قاطعا على صدق نبي الإسلام الذي وصفه عبد الله آتهم بالدجال كما أشار غلام أحمد آنفا. وفور نطق أحمد بهذه النبوءة امتقع لون عبد الله آتهم وأصابه الخوف الشديد الذي لاحظه الجميع، وعلى طريقة أهل تلك البلاد في تصوير الإنكار الكامل والاستسلام، رفع يديه بمحاذاة أذنيه وأخرج لسانه و هزّ رأسه مرددا: "إنّني أتوب، إنني أتوب، لم أقصد أبدا إظهار قلة الاحترام أو توجيه الإهانة". وبهذا لم يكن هناك أدنى شك في معرفة من تفوق في المناظرة على غريمه، حتى إنّ مبشرا أميركيا كتب في صحيفته التبشيرية أنّ ردود عبد الله آتهم بصفته ممثل الجانب المسيحي كانت ضعيفة وغير مناسبة للموقف.

مرّ في حياة أحمد، في السنين التي تكلمنا عنها إلى حين مناظرته مع عبد الله آتهم، مجموعة من الأشخاص الذين كانوا يظهرون ويغيبون ولكنهم لم يختفوا؛ مثل المولوي محمد حسين البطالوي، وزعيم طائفة الآرياسماج الهندوسية ليكهرام، وكذلك القس الدكتور مارتن كلارك، ولكنّ الأمر الغريب حقا أن يمسي القس الدكتور مارتن كلارك والمولوي محمد حسين البطالوي حليفين!

الفصل الثامن عشر

بشرى عظيمة لطلاب الحق

استغرب أحمد المشاعر المتأججة التي أبداها الناس حيال إعلانه الإلهام القائل بأنّ عيسى الناصري لم يمت على الصليب، ودأب على محاولة إقناعهم بأنه هو مجدد الزمان الذي جاء في حلة التواضع كبعثة ثانية للمسيح الناصري، وبيّن لهم أنّ رسالته التي كلفه الله تعالى بها هي إصلاح الحالة الدينية للعالم كله دون قتال بل بسلام تام، وأنه لا يهدف إلى مهاجمة أي دين وإنّما سيظهر الإسلام على الديانات الأخرى بالحجج والبراهين عبر المناظرات والكتابات. وعلى هذا فمن وجهة نظره لابدّ من أن تجري هذه المناقشات والمحاورات والمناظرات لتبيان الحق على الملأ، ولكن لا يجوز بأي حال أن تكون مبررا للتطاول البذيء على قدّيسي وشهداء الديانات الأخرى والأشخاص المعتبرين عندها. وبناء على هذه المبادئ العامة فقد أرسى أحمد في إعلان نشره على الملأ بأنه ينبغي احترام بعض الحدود أثناء إجراء النقاشات الدينية من قبل جميع الأطراف المشاركة، وقد أجمل هذه القواعد في النقاط التالية التي ضمَّنها إعلانه:

لابد للمتناظرين من الامتناع عن مهاجمة الديانات الأخرى بناء على ادّعاءات زائفة.

ينبغي أن يعتمد النقاش أو المناظرة حصرا على النصوص الدينية المعلنة والمقبولة كنصوص مقدسة من قبل الديانات المختلفة.

وقد وقَّع بالفعل ما مجموعه خمسة آلاف شخص على عريضة يقرّون فيها بضرورة التزام المناظرات الدينية بالقواعد المذكورة أعلاه، غير أنّ الزعامات الدينية الأخرى لم تعترف بهذا الإعلان.

سعى أحمد إلى قيام المناظرات الدينية في جو عقلاني على خلاف ما أُشيع عنه من قدح وذم في الديانات والملل الأخرى. أما أهمية هذا الإعلان فهي أنّه جاء في وقت الهجمات المستمرة من قبل رجال الدين الهندوسي والمسيحيين على شخص نبي الإسلام، وكانت أشرس هذه الهجمات تأتي من المتنصرين الجدد الذين اعتقدوا بأنهم يبررون معتقدهم الجديد عن طريق الهجوم على عقائد الآخرين. وقد حدث بالفعل أن ردّ أحمد على إحدى هذه الهجمات التي بدأها مبشر مسيحي في منشور من ثمانين صفحة يفند فيه أحمد هذا النوع من النقاش المبتذل.

قال أحمد في موضوع عيسى الناصري ما معناه: "فليكن معلوما أننا نعتز بإيماننا بأفضل العقائد فيما يختص بعيسى الناصري، فنحن نؤمن بأنه نبي صادق وصفي الله وأنّه واحد من مئات الأنبياء عليهم السلام الذين خدموا الشريعة الموسوية، لذا فنحن نحترمه ونجلّه عليه السلام كما يستحق..."، ويضيف: "... إلا أنّ المسيح الذي يقدّمه المسيحيون للعالم أجمع هو رجل يدّعي بأنّه ابن الله، وإنّه لكُفرٌ بيّنٌ وتجديف أن يضع إنسان ما نفسه بجوار الله عزّ وجلّ. إنّ الله القادر لا يمكن أن يناظره مخلوق، والله تعالى واحدٌ أحد لا يمكن تجزئته إلى أقانيم كما يدّعي المسيحيون. ولا يمكن أن يلعن الله تعالى البشر كما يدّعون أيضا، فالله تبارك وتعالى هو الذي خلق البشر وهو سبحانه لا يلعن مخلوقاته مطلقا".

كما يضيف أحمد أنّ القرآن الكريم قد قدّم شخصية المسيح على أنّه {عبدُ الله}، وأنّ هذا العبد هو الذي يعرفه المسلمون ويحبونه ويوقرونه، أمّا يسوع النصارى الذي يساوي نفسه بالله تعالى فلا وجود له عند المسلمين وإنّه "لَـــشططٌ كبير وغيّ سادر" أن يدّعي ادّعاء كهذا، هناك فقط إله واحد وليس ثلاثة آلهة. لذا فيقول أحمد إنّه حينما ينتقد مسيحَ النصارى المزعوم فإنّه لا يسيء بأي حال إلى نبي الله عيسى ابن مريم.

ألحقَ أحمد نداءه الرّامي إلى إنهاء الهجوم على الأديان بالدعوة إلى مؤتمر يشارك فيه كل دعاة الأديان المختلفة حتى يكون الناس قادرين على الحكم بناء على علم ومعرفة، وأن تكون مدّة هذا المؤتمر ثلاثة أيام ويكون ترتيب الكلام فيه وِفق أقدمية الديانة– فاليوم الأول مثلا يكون مخصصا لمندوب الديانة التي تدّعي أنها أقدم الديانات ثمّ الأقل قدما منها فالأحدث فالأحدث وهكذا. ويهدف هذا المؤتمر كما يصفه أحمد إلى مناقشة كل من:

أسباب الإيمان بالله تعالى، وذلك بالرجوع إلى النصوص المقدسة لديانة المتحدّث باسم تلك الديانة.

ضرورة الدين بشكل عام، وضرورة الإيمان بديانة المتحدث على وجه الخصوص كسبيل للخلاص والنجاة.

وشدد أحمد على ضرورة أن يسير النقاش في جوّ خال من المواقف الجنونية كالتي جرت سابقا في المناظرة مع المسيحيين حينما أحضر الجانب المسيحي معتوها وأعمى وأعرج طالبين من أحمد شفاءهم، كذلك وأن لا ينحط النقاش إلى عراك مبتذل بين أتباع الأديان المشاركة. هذه هي القواعد التي قدّمها أحمد لمؤتمر الأديان، فكلّ خطيب مُـــلزمٌ بأن لا يشير إلى أي دين آخر في خطابه بل أن يقتصر فقط على عرض وبيان محاسن وكمالات دينه ونقاط تميز تعاليمه، وقد أوضح هذا في ما تعريبه: "للمتحدثين الحرية الكاملة في تقديم الحجج اللازمة لدعم دعواهم دون اللجوء إلى الهجوم على أي دين آخر أو التعليق الذي يحط من قدر الديانات الأخرى بأي شكل من الأشكال وينبغي أن يكون هذا الأمر إلزاميا". وبيّن أنّ المقصود من المؤتمر ليس استظهارا ببغائيا لترجمات النصوص الدينية المقدسة المختلفة بل: "ينبغي أن ترتكز حجج كل خطيب حصرا على نص كتابه المقدّس وأن يقتبس حرفيا من نصوص دينه المقدسة بدون أي تصرف. فعلى سبيل المثال يلتزم المتحدث المسلم باقتباس الآيات القرآنية حرفيا لا أن يقتبس ترجمتها، كذلك يلتزم

المتحدث المسيحي أو من الآرياسماج بأن يقتبس من الإنجيل أو من الفيدا النص الأصلي مع تقديم الترجمة والمراجع المعتمدة. وعليه فالأشخاص المدعوّون إلى هذا المؤتمر هم أولئك القادرون على الاقتباس بسهولة ويُسر من نصوصهم المقدسة وتقديم ترجمتها، فليس مسموحا باعتماد نصوص مترجمة دون الأصل، إذ أنها لا تعدّ نبعا صافيا في عين من يطلب الحق".

أمّا الدوافع التي عدَّها مبررا لانعقاد مؤتمر الأديان هذا: إنني أناشد كل رجالات الأديان أن يلبّوا دعوتي لإحلال الصدق والنقاء والسلام في العالم، ففي رأيي لا يمكن أن يحصل هذا إلا باتباع تعاليم الدين الحق، وإني أرجو الله تعالى أن يكون هذا المؤتمر جامعا لبركات كثيرة. سيقدم هذا المؤتمر بإذن الله تعالى منبرا آمنا ومسالما يتيح لرجال مختلف الأديان والمشتغلين بها ودعاتها أن يدافعوا عن أديانهم وعقائدهم وأن يظهروا محاسنها للعالم أجمع...". إنّ فترة الأيام الثلاثة المقترحة ليست بمدة طويلة نظرا إلى أهمية المؤتمر، كما بيّن. وأورد أيضا: "أرجو من أصحاب القلوب الطيبة الذين تسعى أرواحهم دوما وراء العلم الروحاني وتبحث عنه أن يخصصوا بعض هذا الوقت بنية خالصة، إني أناشد ضميرهم الإنساني وحب الخير لجميع الناس في قلوبهم أن يحضروا لأني أرغب في أن يشهدوا على أنّ الدين الحق هو السبيل الوحيد لرقيّ الإنسان. وإنّي أدعو الله تبارك وتعالى أن يعين أفراد جماعتي ويتقدموا لمساعدتي في إراءة آيات عظمته سبحانه وتعالى للعالم أجمع".

ولكن وعلى أرض الواقع، كانت فكرة انعقاد مؤتمر تحت رعاية أحمد أمرًا غير مقبول عند معارضيه الذين لم يستجيبوا لدعوته بل تجاهلوها تماما، وصحيح أنّ هذا الأمر قد أحبطه بلا شك إلا أنّ القنوط لم يساوره للحظة، ولأنه يؤمن قطعا أنّ سبيل خلاص البشرية هو بإعادة إحياء الإسلام الصحيح وبأنّ الله عزّ وجلّ قد عهد إليه بهذه الرسالة فلا بدّ إذا من التبليغ، وخير وسيلة لتحقيق هذا الأمر هي تقديم محاسن الإسلام وأنواره أمام أعين أكبر

قدر من الناس في أكبر عدد من الفرص المتاحة لهذا. ولأنّ فكرة انعقاد مؤتمر تحت رعايته أمرٌ لم يحظَ بالقبول، فَلينعقد المؤتمر تحت أي رعاية طالما أنّ كمالات الإسلام الصحيح وأنواره سوف يطّلع عليها الناس. وبالفعل حمل أحمد فكرة المؤتمر وطرق بها أبواب جميع الرعاة المحتملين في لاهور ولم يُفتح لها سوى باب عالم الدين الهندوسي السيد (سوامي شوغن تشاندرا) الذي استجاب للفكرة وقدّمها، وعليه فقد تم التخطيط لانعقاد "مؤتمر الأديان العظمى" في مدينة لاهور في ٢٦ و٢٧ و٢٨ من شهر كانون أول/ديسمبر عام ١٨٩٦، وعلى المشاركين الالتزام بمجموعة القواعد التي كان قد اقترحها وقدمها أحمد من قبل؛ وخاصة بأن لا يتضمن هذا المؤتمر نقاشات وجدالات بين الأديان بل أن يقدّم كل خطيب أو متحدث باسم دين ما محاضرة تمّ تحضيرها سابقا وتحتوي رأي دينه في خمسة مباحث هي:

- حالات الإنسان الطبعية والأخلاقية والروحانية.
- حالة الإنسان بعد الموت.
- الغاية الحقيقية من الحياة الدنيوية للإنسان، ووسائل تحقيقها.
- تأثير الأعمال على حياة الإنسان في الدنيا والآخرة.
- وسائل العلم.. أي المعرفة الحقيقية (معرفة الإله).

قرّر أحمد عدم الحضور بنفسه إلى المؤتمر وذلك لتجنب أي جدال حول شخصه، وأنّه سيرسل مندوبا عنه من جماعته يقوم بإلقاء المحاضرة التي كتبها بنفسه حول المباحث الخمسة التي كان قد أتمّ كتابتها في عدة أسابيع وجمّعها على هيئة مقال واحد في قاديان، حيث سيختار مِن أتباعه مَن سيخطب بالنيابة عنه. كان كمال الدين محاميا من أتباعه وكان مِن ضمن المرشحين لهذا الأمر، لكنّ كمال الدين أبدى امتعاضا واضحا حين سمع المقال من أحمد بل وعبّر عن خيبة أمله قائلا بأنّ هذه المحاضرة — أي محاضرة أحمد – سطحية ولا تجذب اهتمام سامعها، فسيكون في المؤتمر رجال دين ووعاظ وزعامات

دينية مرموقة من كلّ الهند، ولا شكّ بأنهم قد وظفوا الكتاب الأفذاذ وفرق عمل جادة لإعداد خطاباتهم، ذلك أنّ الآلاف من الناس سيحضرون وهذه المحاضرة ليست على المستوى المطلوب بل سيضحكون منها إذا كانت هذه فقط هي كلّ ما سيُقدم لهم عن الإسلام.

أدهشت كلمات كمال الدين الأشخاص الحاضرين وأثارت ضيق أحمد، الذي لم يرَ بدًا من إعلان الإلهام الذي تلقاه حول هذه المحاضرة وبأنها ستكون غالبة في هذا المؤتمر، ويقينا منه بصدق وعود الله تعالى فقد قرر نشر إعلان حول هذا الأمر وطلب من كمال الدين أن يقوم بتوزيع ملصقات هذا الإعلان في شوارع لاهور قبل المؤتمر، وكان الإعلان بعنوان: "بشرى عظيمة لطلاب الحق" وكان نص هذا الإعلان: "لقد دعا السيد سوامي شوغن تشاندر في إعلانه المنشور الزعماءَ الدينيين المسلمين والمسيحيين والآريين (الهندوس)، وناشدهم بالله أن يبيّنوا مزايا دياناتهم في هذا المؤتمر. وها نحن نخبر السيد سوامي أننا –احترامًا وتبجيلا لهذا القَسم العظيم– على استعداد لتحقيق مطلبه. وسوف يُتلى مقالُنا إن شاء الله في المؤتمر لأن الإسلام دين يحضُّ المسلمَ الصادق على الاستجابة الكاملة إذا دُعي إلى عمل ما باسم الله تعالى.

وسوف نرى الآن مدى إخلاص إخوانه الآريين الهندوس لشرف إلههم (برميشور)، ومدى تعظيم القساوسة لإلههم (يسوع)، وما إذا كانوا مستعدين لحضور المؤتمر باسم الإله القدوس العظيم.

في مؤتمر الأديان العظمى الذي سوف يُعقد في قاعة المدينة بلاهور.. سوف يُتلى مقالٌ لهذا العبد المتواضع يتناول بيان كمالات ومعجزات القرآن الكريم. إنه يفوق الطاقات البشرية؛ وهو آية من آيات الله، وقد سطَرته بتأييد إلهي خاص. إنه يتضمن من حقائق القرآن ومعارفه ما سوف يُثبت – كالشمس في كبد السماء– أن القرآن حقا كلامُ الله وكتابُ رب العالمين.

وإنني على يقين مِن أن الذي سوف يستمع للمقال من أوله إلى آخره، وينصت لجوابي على الأسئلة الخمسة سيتولد فيه إيمان جديد، وسيلمع بداخله نور جديد، وسيفوز بتفسير جامع لكلام الله القدوس. إن خطابي خالٍ مما يأتي به البشر من كلمات فارغة، ومنـــزه عن شوائب الهتافات الزائفة.

إن الشفقة الخالصة على بني آدم دفعتني الآن لكتابة هذا الإعلان لكي يشاهدوا حُسن القرآن الكريم وجمالَه، ويدركوا كيف أن معارضينا - بظُلمٍ منهم - يحبون الظلام ويكرهون النور.

لقد أخبرني الله العليم بوحيه أن هذا هو المقال الذي سوف يتغلب على المقالات الأخرى كلها، وأن فيه من نور الحق والحكمة والمعرفة ما سيجعل الأمم الأخرى يندمون ويخجلون. شريطة أن يحضروا قراءته ويستمعوا له من أوله إلى آخره؛ ولن يستطيعوا أن يخرجوا من كتبهم كمالات كهذه سواءً أكان هؤلاء من المسيحيين أو أتباع ديانة (سناتن دهرم) الهندوس أو غيرهم؛ ذلك لأن الله تعالى أراد أن تتجلى في ذلك اليوم عظمةُ كتابه الكريم.

لقد رأيت في عالم الكشف بشأن هذا المقال أن يدًا من الغيب حطت على قصري، فخرج منه نورٌ ساطع انتشر فيما حوله، ووقع هذا النور على يدي أيضا. وعندئذ هتف شخص واقفٌ بجواري بصوت عال: "**الله أكبر، خَرِبَتْ خيْبر**". وتفسير هذا الكشف أن القصر يرمز إلى قلبي الذي هو مهبط للأنوار، وأن النور النازل يعني المعارف القرآنية، والمراد من خيبر هو جميع الأديان الفاسدة الخرِبة التي تشوبها شوائب الشرك والبدعة، والتي رفعت البشرَ إلى مقام الله تعالى أو حطت الصفات الإلهية من محلها الأعلى. فقد تكشف لي أن انتشار هذا المقال على نطاق واسع سوف يكشف زيف الأديان الباطلة، وأن حقّانية القرآن سوف تنتشر يومًا فيومًا في الأرض حتى تكتمل دائرتها.

ثم نُقلتُ من حالة الكشف إلى حالة الإلهام حيث أُوحيَ إلي: "إن الله معك. إن الله يقومُ أينما قمتَ". وهذا تعبير مجازي يؤكد التأييد الإلهي.

لا أريد الآن أن أكتب أكثر من ذلك وإنما أحثّ الجميع أن يحضروا المؤتمر في أيامه في لاهور لسماع هذه المعارف، ولو تكبدوا في سبيل ذلك بعض الجهد والعناء. ولو فعلوا ذلك لنالت عقولهم وإيمانهم من البركات ما يفوق تصورهم.

والسلام على من اتبع الهدى.

توقيع:

العبد المتواضع ميرزا غلام أحمد

قاديان ٢١- ١٢- ١٨٩٦م"

وطبعا لم يُنتدب كمال الدين وإنما اختار أحمدُ المولوي عبد الكريم السيالكوتي من بين صحابته.

وفي الوقت المخصص له في المؤتمر، كان من المفترض أن يبدأ الساعة الواحدة والنصف بعد الظهر تقريبا وأن ينتهي من كل خطابه بعد ساعتين، لكنّ الوقت المخصص لم يُتح لعبد الكريم الفراغ من قراءة جواب أحمد عن السؤال الأول أي الحالات الطبعية والأخلاقية والروحانية للإنسان، ثمّ قام المتحدث التالي لعبد الكريم معلنا أمام جميع الحضور أنّه يرى أنّ تعليق أحمد حول الموضوع بالغ الأهمية وأنّه سيكون مسرورا إذا تابع المولوي خطابه، وأشاد الحاضرون المنصتون بهذا واستمر عبد الكريم حتى الرابعة والنصف أي الوقت الذي تنتهي فيه فعاليات اليوم الأول.

اقترح الحاضرون على اللجنة المنظمة أن تمتد مدة اليوم الأول من المؤتمر لوقت أطول حتى يستكمل الموضوع الأول، ووافق المنظمون، وهكذا استمع الحاضرون باهتمام بالغ إلى الخطاب المتعلق بالموضوع الأول حتى الساعة الخامسة والنصف مساء، ولأنّ المواضيع الأربعة الباقية لم تستكمل قراءتها بعد

فقد وافقت الإدارة وبناء على اقتراح الحاضرين أن تتّخذ الترتيبات اللازمة لتمديد فعاليات المؤتمر في جلسة خاصة يوم ٢٩ كانون أول/ ديسمبر تكون مخصصة لهذا الأمر. وقدّر عدد الحاضرين بين سبعة آلاف وثمانية آلاف شخص حضروا المؤتمر.

وبالطبع تابعت الصحف مجريات المؤتمر في تلك الفترة، وفيما يلي بعض ما كتبته:

جاء في جريدة الصحيفة المدنية والعسكرية (Civil & Military Gazette) الصادرة من لاهور ما يلي:

كانت لدى الجمهور في هذا المؤتمر رغبة قلبية خاصة في مقال ميرزا غلام أحمد القادياني الذي يتمتع ببراعة كاملة في الدفاع عن الإسلام. حضر لسماع هذا المقال جمعٌ غفير من أتباع الديانات المختلفة من أماكن قريبة ونائية. ولما لم يستطع المرزا المحترم حضورَ المؤتمر بنفسه قرأ مقالَه أحدُ مريديه الأفاضل المولوي عبد الكريم السيالكوتي.

استمرت قراءة هذا المقال ثلاث ساعات متتالية يوم ٢٧ ديسمبر (كانون الأول)، والجمهور مُنصتٌ إليه في صمت وسرور، ومع ذلك لم يكتمل منه إلا الرد على السؤال الأول.

ولمّا تُرجمت محاضرة أحمد إلى اللغة الإنجليزية تحت عنوان "فلسفة تعاليم الإسلام" تلقت المزيد من المدح، إذ كتب الكونت ليو تولستوي – الفيلسوف الروسي المشهور– بعد أن قرأ نسخة من المحاضرة: "أوافق الكاتب تماما بخصوص ما أورده في كيفية التخلص من الخطيئة والحياة الآخرة"، وأضاف: "إن الأفكار المطروحة في هذه المقالة عميقة الأغوار وصادقة جدا".

وكذلك علقت مجلة (ثِيُوسوفِيكاْل بُك نُوتْس Theosophical Book Notes) وهي واحدة من أكثر الصحف الدينية احتراما في وقتها: إنها أحسن ما قُدّم وأكثر المقالات التي صادفناها إثارة للانتباه عن الدين المحمدي.

وعلقت مجلة (إنديان ريفيو Indian Review) بما يلي: كانت قراءة أثارت سرور الحاضرين إذ يشتمل هذا الكتاب على أفكار نيرة شاملة ومتكاملة من الناحية الفلسفية، ولا يسع القارئ إلا أن يثني عليه، إنّ هذا الكتاب يستحق أن يكون في يد كل متبع للديانة المحمدية بل وفي مكتبة كل من يهتم بمعرفة الإسلام.

وعلقت مجلة (مسلم ريفيو Moslem Review) بقولها: سوف يجد القارئ في هذا الكتاب أفكارا صادقة، وحقائق دقيقة تغذي الروح همّ المسلمين وغير المسلمين على حدٍّ سواء، وإننا ننصح بشدة بقراءته.

وقالت جريدة (سبريتيُوال جورنال Spiritual Journal) من بوسطن- الولايات المتحدة الأميركية: كان الخطاب إنجيلا خالصا -أي بشارة خالصة. أما صحيفة (تشيكاغو ديلي نيوز Chicago Daily News) الأميركية فقد أوردت: إنّ شخصية المؤلف التي يميزها الورع والجدية ظاهرة جلية في كل الكتاب.

وفي بريطانيا كذلك وجد الكتاب طريقه إلى أيدي القراء المهتمين بالمطالعات الدينية ومنهم محلل ديني غربي يكتب في صحيفة بريطانية أسبوعية كتب معلقا: لقد كان من الواضح أن الشخص الذي أدلى بهذا الخطاب الذي يخاطب الغرب ليس بشخص عادي.

الفصل التاسع عشر

فلسفة تعاليم الإسلام

تُرجمت المقالة التي أعدّها أحمد والتي قُرأت في "مؤتمر الأديان العظمى"، إلى العديد من اللغات وأعيدت طباعتها عدّة مرات كذلك. وصدرت في عام ١٩٧٩ ترجمة إنجليزية جديدة للمقالة قام بها السير ظفر الله خان وطبعت في العام نفسه في كتاب يقع في مئة وخمس عشرة صفحة. ولأهمية هذه المقالة نرى أن نورد فصلا عنها، فهي تناقش الحالات الطَبْعية والأخلاقية والروحانية للإنسان التي كتب أحمد أنّ القرآن الكريم قد عالجها وبيّن الحالات الثلاث للنفس البشرية:

فالحالة الأولى هي النفس الأمّارة وهي التي تميل بالإنسان إلى السيئات التي تُغاير الأخلاقَ وتُنافي الكمال، وتدفعه إلى السير في مسالك السوء ومذاهب المنكر. فخروج الإنسان عن حد الاعتدال وجموحُه إلى السيئات، حالةٌ تسبق حالتَه الأخلاقية وتستولي عليه طبعًا.

إنّ النفس الأمارة في جوهرها حالة طَبْعية ما لم يمشِ الإنسان في ظل العقل والمعرفة، وإنما يتبع –كالبهائم– النوازعَ الطبْعية في الأكل والشرب والنوم واليقظة والغيظ والغضب وما شابه ذلك من الميول والأهواء. أما إذا تصرف في حالاته الطبْعية على ضوء توجيه العقل والعرفان، وراعى فيها حد الاعتدال المطلوب، فلا تبقى هذه الحالات طباعًا، بل تصير أخلاقا.

أمّا الحالة الثانية التي ذكرها أحمد وقال إنّ القرآن الكريم قد قدّمها أيضا فهي النفس اللوامة: وقد سماها الله "اللوامة" لأنها تلوم الإنسان على إتيان السيئة، ولا ترضى له أن يسترسل في دوافعه الطبْعية استرسالَ الأنعام المطلَقة القيود وأن يعيش عيشة البهائم، بل تريد ألا يصدر منه إلا خيرُ الحالات

وصالح الأخلاق، وألا يتجاوز حد الاعتدال في جميع لوازم الحياة، وأن يلبي رغباته وأهواءه الطبْعية باسترشاد من العقل. وبما أن النفس تلوم الإنسان على ارتكاب السوء فلذلك وصفها الله باللوامة، أي كثيرة اللوم.

والنفس اللوامة وإن كانت تمقت الانصياعَ للنوازع الطبْعية، ولا تنفك تلوم نفسها فإنها مع ذلك لا تكون قادرةً كل القدرة على عمل الصالحات، بل إن النوازع الطبْعية تصرعها أحيانا، فتتعثر وتسقط كأنها طفل ضعيف يحاول ألا يسقط، إلا أنه يسقط بسبب ضعفه، ويأسف على عجزه هذا.

وخلاصة القول، إن هذه حالة أخلاقية تجمع بها النفس في ذاتها مكارم الأخلاق، وتكره الطغيان والفسوق ولكنها لا تستطيع بعد أن تتغلب على النفس الأمارة حق الغلبة.

أما الحالة الثالثة للنفس البشرية فهي النفس المطمئنة. ذكر أحمد في كتابه: النفس المطمئنة هي المقام الروحاني الذي تتخلص فيه النفس من كل ضعف، وتمتلئ من القوى الروحانية، وتتصل بربها اتصالا لا تكاد تحيا بدونه. وكما أن السيل ينحدر متدفقًا في جريانه تدفقًا شديدًا بسبب غزارة مياهه وانعدام العوائق، فكذلك النفس المطمئنة تنطلق مندفعةً إلى الله، فالنفس تتبدل تبدلا عظيمًا في هذه الحياة، كما بعد الموت، وتجد نوعا من الجنة في هذا العالم، كما في غيره. إنّ النوازع الطبْعية تصبح عند الإفراط خطرًا عظيمًا، وكثيرا ما تُفسد أخلاقَ الإنسان وتتلف روحانيته، فالأنانية مثلا تقود إلى الكثير من الشرور.

ويقول أحمد إنّ القرآن الكريم قد وضع العديد من الضوابط التي تُرشد الإنسان لأجل إصلاح الحالات الطَــبْعية، فوِفق هداية القرآن إنّ الجسد يؤثر في الروح ويتأثر بها، فالإنسان عندما يضحك وإن يكن تكلّفًا - يكتسب الفؤاد فرحًا وانبساطًا. وكذلك نرى أن السجود الجسماني يولد في نفس الساجد حالة من التضرع والخشوع. كذلك الأغذية المتنوعة تؤثّر أيضا في

الوظائف الفكرية والقوى النفسية دون شك. انظروا مثلا إلى الذين لا يأكلون اللحوم أبدا كيف تضمحل فيهم قوة الشجاعة شيئا فشيئا حتى إنهم يصبحون جبناء للغاية. فالمطلوب إذا هو تحقيق حالة من التوازن لأنّ الإفراط والتفريط كليهما يؤذي الجسد وبالتالي الحالة الأخلاقية والروحانية للإنسان، إنّ الروح والجسد مترابطان وكلاهما يؤثر في الآخر تأثيرا عظيما.

أما في ما يتعلق بخَلْق الروح، فيقول أحمد أن بين الروح والجسد علاقة ليس في وسع الإنسان أن يكشف سِرّها المكنون وأنّ الله تعالى قد خلق كل فرد منّا متميزًا عن الآخر، فلا شخص يطابق الآخر أبدًا.

إنّ الارتقاء التدريجي للإنسان هو الذي يؤدي إلى النشأة الثانية للروح؛ بمعنى آخر إنّ الكلام والأفعال والتصرفات الصادرة عن الإنسان بإخلاص النية لله تعالى تؤدي إلى نشوء روح أخرى في نفس الإنسان وتجذب الآخرين إليه. إنّ الله تعالى أراد من الإنسان أن يرتقي فوق النوازع الحيوانية وأن يتحلى بالأخلاق فتنتظم أمور حياته، إنّ الله تعالى يريد من الإنسان أن يحبّه ويبحث عنه وأن يسعى لنيل رضاه؛ بمعنى آخر أن يكون كلّه مخلصا لله تبارك وتعالى ويكون كلّه تنفيذا لمشيئته ومُسلما نفسه تماما له عزّ وجل. لهذا قد سُمي دين الله الإسلام؛ أي التسليم الكامل لله تعالى، وهو كذلك دين السلام.

أمّا في موضوع النجاة والخلاص، يقول أحمد إنّ الإنسان الذي يهب نفسه كلية لله تعالى ولمشيئته ويجاهد نفسه في سبيل الله لابد وأن يخلُص وينال النجاة، ودعم قوله هذا بآيات من القرآن الكريم:

﴿بَلَى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة ١١٣]

﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ * لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾ [الأنعام ١٦٣-١٦٤]

﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [الأنعام ١٥٤]

﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [آل عمران ٣٢]

ويوضح أحمد أنّ هناك فارقا بين الإنسان المتواضع بشكل طَبْعي ولا يؤمن بالله تعالى وبين إنسان يسعى إلى اكتساب خُلُق التواضع مرضاة لله وحبًّا فيه عزّ وجل. إن الهدف من تعاليم القرآن الكريم هو تحويل البشر المتوحش إنسانا متحضرًا، ومن الإنسان المتحضر إنسانا ذا خلق، ومن الإنسان المتخلق إنسانا ربانيا.

إن الأخلاق الصالحة أو غير الصالحة تستلزم النضج العقلي للإنسان حيث يستطيع التمييز بين الخير والشر، أو بين شرين أو خيرين، ويجد في نفسه حسرة متى حاد عن طريق الخير، ويندم ويأسف عندما يقترف السوء، ولكي تكون هذه الأخلاقُ حقيقية لابد من المعرفة الإلهية ومعرفة الإله الحق، فلكل عمل أو خُلق نتيجةً تورث صاحبه في الدنيا نعيما روحيا أو عذابا روحيا، ثم تنكشف تلك النتيجة في الحياة الآخرة انكشافا كاملا.

ثمّ فسّر أحمد أنواع الأخلاق المختلفة كالطهارة والاعتدال والعدل، وكيف أنّ تعاليم الإسلام تحض على إطعام الآخرين وخاصة المحتاجين والمحرومين وحتى الحيوانات كالكلاب والطير والحيوانات الأخرى التي تعتمد على الإنسان في غذائها. كما بيّن أنّ الأخلاق قسمان: قسم يمكن الإنسان من ترك الشر، وقسم آخر يمكنه من إيصال الخير إلى الآخرين؛ فالأخلاق التي قدرها الخالق لترك الشر لها أربعة أسماء في اللسان العربي الغني بكل ما يحتاج إليه من مفردات للتعبير عن جميع خواطر الإنسان وأوضاعه وأخلاقه. فالخُلُق الأول يسمى الإحصان، والمراد به ذلك العفاف الذي يختص بالشهوة الجنسية

بين الذكر والأنثى. فالمحصن أو المحصنة هو من يجتنب الفجورَ أو حتى مقدماته.

والقسم الثاني من أقسام ترك الشر هو ذلك الخُلُق الذي يُعرَف باسم الأمانة أي تجنب إيذاء الغير بالاستيلاء على ماله بسوء النية وابتغاء الشر. ففي التجارة لابد أن نوفّر للناس البضائع الجيدة ولا نغش، ولا نبدد مال الآخرين ولا ننشد مالهم أو نعطي الرِّشى، وأن نكون عادلين مع من هم تحت مسئوليتنا.

أما القسم الثالث من الأخلاق التي تندرج تحت ترك الشر فهو ما يسمى في اللغة العربية بالهُدنة والهَوْن، أي الكف عن إلحاق الأذى بأحد ظلمًا، والابتعادُ عن الشر، والعيشُ بصلح وسلام. ويشمل أيضا وفق القرآنٍ الكريم الابتعاد عن الجدل على أتفه الأمور، بل إذا سمعنا عبث القول مما قد يؤدي للقتال والحرب لابد من معالجته بلباقة، والانصراف في وقار مكتسبين بذلك أصدقاء لا أعداء.

وأخيرا القسم الرابع من أقسام ترك الشر هو الرفق والقول الحَسن. والحالة الطبْعية التي ينشأ منها هذا الخُلُق هي الطلاقة، أي بشاشة الوجه. ويأمر هذا الخلق، حسب ما أرشد القرآن الكريم إليه، أن ينظر الإنسان إلى غيره نظرة ودّ لا نظرة شك وأن يمتنع عن التنابز بالألقاب والسخرية وسوء الظنّ، وأن يردّ الإحسان بالإحسان، فبهذا يكسب حسن الثواب عند الله تعالى.

ثم قدّم أحمد أقسام الأخلاق التي تتعلق بإيصال الخير إلى الآخرين، أوّلها العفو عن صاحب الذنب؛ فالذي يصفح عن المسيء إليه إنما يصله بخير شريطة أن يكون العفو مناسبا، فمن عفا عن ذنب أحد عفوًا يترتب عليه إصلاح ولا يؤدي إلى مزيد من الشر فإنه يُثاب على ذلكٍ. يأمرنا الله تعالى ألا نعتاد العفو الأعمى، بل يجب أن نتبين موضعَ الخير الحقيقي أهو في العفو

أم في العقاب، ثم نحكم بما يوافق الحالَ والمقام بما لا يشجع المذنب على أن يسدر في غيّه.

والخُلُق الثاني من أخلاق إيصال الخير هو العدل؛ أي أن الله يأمرنا بأن نقابل الحسنة بالحسنة. والثالث هو الإحسان؛ أي أن نـــزيد فوق العدل إحسانا إن كان في محله، وأن يكون خالصا لوجه الله تعالى لا محض تباهٍ زائف ورياء. أما الخُلُق الرابع فهو إيتاء ذي القربى، ونـــزيد على الإحسانِ إذا اقتضى الموقف فنفعل الخير خالصا بعاطفة فطرية كعاطفة ذي القربى تماما كما تعطي الأم أبناءها. غير أن الله تعالى قد جعل جميعَ أقسام إيصال الخير هذه منوطةً بمراعاة المحل والمقام، فكل هذه الحسنات إن لم توضع في مواضعها تصبح سيئات، وهذا كما المطر إذا كان في موضعه وأوانه أغاث الزرع، وإلا كان وبالا عليه وأهلكه. إنّ أهل البرّ الحقيقي، الذين كبتوا نوازعهم الخبيثة وصاروا أنقياء البواطن تسري فيهم طمأنينة العرفان الإلهي الحقيقي، سيسقون في الآخرة من نبع عذب يحفرونه في الدنيا بأخلاقهم وأعمالهم. وقال أحمد: "وهنا سر عميق عن حقيقة الجنة، فليفهمه من شاء". إن من خصال أهل البر الحقيقي أهم - ابتغاءَ حبِّ الله - يُطعِمون المساكينَ واليتامى والأسرى أطعمةً هُم يحبوها لأنفسهم، ويقولون لهم: إننا لا نُطعمكم مَنًّا وإحسانا، وإنما نفعل ذلك حبا لله وابتغاءً لمرضاته، إنّ الله يحب هذه الخصال، ولا يحب من لا يهتم بغيره ولا يفكر إلا لنفسه، كما أنه تعالى لا يحب من كان بخيلا ويأمر الآخرين بالبخل.

وقد ذكر غلام أحمد خُلق الشجاعة وقال ما معناه إنها لشجاعة زائفة تلك التي تدفع الإنسان إلى القيام بأفعال هياج وحماسة دون النظر إلى العواقب، إنّ الشجاعة الحقيقية هي الصبر والتمسك بالإيمان حين الشدائد دون الهرب منها. الشجاعة الحقيقية هي مواجهة جذبات النفس والدفاع عن الحق لمرضاة الله تعالى. وبالأسلوب الرائع نفسه فسّر غلام أحمد خصلة الصبر، حيث ذكر

أنّ الثبات عند الشدائد يصبح خصلة أخلاقية حقيقية حين يقبَل الإنسان باستسلام كامل لله تعالى المصائب التي قد تحلّ عليه؛ فإذا فقد الإنسان شيئا عزيزا نفيسًا كالابن مثلا فلا يتفوه بكلمة شكوى إيمانا منه أن ما فقده كان أمانةً عنده من الله تعالى، ويقول: كان أمانةً لله فاستردها مني وإني راضٍ برضاه. ومن الحالات الطبْعية التي تلازم فطرةَ الإنسان حماسُه لمواساة الخلق. إن الحماس للمواساة تجاه أبناء الأُمة موجود عند أهل كل دين كطبيعة فيهم، وإنما تُعَد هذه العاداتُ من الأخلاق الإنسانية إذا تصرف فيها الإنسان مراعيا العدَل والموضع الملائم وشاملا الناس جميعا بغض النظر عن انتمائهم، وعندئذ تتحول إلى خُلُق عظيم يسمى في العربية المواساة.

ثمّ انتقل غلام أحمد ليبين أنّ الوحي الإلهي وكلام الله عزّ وجلّ المتمثّل في القرآن الكريم هو النعمة الإلهية الكبرى، وهو الذي ميّز الفرق بين الحالات الطَــبْعية والأخلاق الفاضلة. فالقرآن وحده هو الكتاب الذي أحسَنَ إلى العالم وأخرج الإنسان من الحالات الطبْعية إلى ذروة الأخلاق السامية، ولم يكتف بذلك، بل قطع المرحلة الباقية؛ وهي الوصولُ إلى مقام الحالات الروحانية. والقرآن الكريم – كما كتب أحمد في كتابه– هو الذي علّم بأنّ الحياة الآخرة أو الحياة بعد الموت ليست شيئا جديدا يتلقّاه الإنسان من الخارج بل هي تجلٍّ لأعماله في الدنيا، فللإنسان الظالم تبدأ الجحيم من حياته الدنيا على الأرض. كذلك إنّ لكل عمل نعمله صالح أم طالح انعكاسه في قلب الشخص الذي عمله ووجهه وعينيه.

وفي نهاية الكتاب تطرّق غلام أحمد إلى مسألة الدعاء ولفت النظر إلى أنّ الله تبارك وتعالى كان قد علّم الناس دعاءً رائعا وجعله في فاتحة كتابه ألا وهو سورة الفاتحة:

﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ (١) الْحَمْدُ لِلَّه رَبِّ الْعَالَمِينَ (٢) الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ (٣) مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ (٤) إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ (٥) اهْدِنَا

الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ (٦) صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ (٧)﴾

وختم بالحديث عن الوحي قائلا ما تعريبه: إنه مكالمة القادر القدوس مع عبد من عباده الأخيار أو مع من يريد أن يصطفيه بكلام حي ذي قدرة. فإذا ابتدأ هذا الحوار بقدر كاف وعلى نحو مُرض شاف، بحيث لا تخالطه ظلمة الأفكار الفاسدة، ولا يعيبه كونه غير كاف أو مشتملا على كلمات قليلة غامضة، بل كان على العكس كلاما لذيذا ذا حكمة وجلال فذلك كلام الله الذي يريد به أن يُطَمْئِن عبدَه ويُظهر عليه نفسه. غير أن كلام الله مع العبد قد يكون على سبيل الاختبار فقط، ويفتقد إلى البركة والكفاية، ويراد به اختبار العبد في حالته البدائية ليذوق لذة قليل من الوحي، فإما أن يجعل به حالَه وقالَه كمثل الـمُلهَمين الصادقين، وإما أن يتعثر. فإن لم يسلك كالصادقين طريق السداد الحقيقي أصبح محروما من استيفاء تلك النعمة، فلا يبقى في يده إلا هتافات زائفة.

لقد تلقى الوحيَ الملايينُ من عباد الله الصالحين، لكن منـزلتهم لم تكن واحدة عند الله. بل حتى أنبياء الله الأطهار الذين يتلقون وحيا من الطراز الأول بكل صفاء وجلاء ليسوا سواء في المرتبة. يقول الله تعالى: ﴿تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾ [البقرة: ٢٥٤]. فثبت من ذلك أن الوحي فضلٌ محضٌ من الله تعالى وليس هو في ذاته دليلا على الفضل، لأن الفضل إنما يكون على قدر الصدق والوفاء، وهي أمور لا يعلمها إلا الله وحده. نعم، قد يكون الوحي أيضا من ثمرات تلك الصفات بشرط أن تتوافر في الوحي شروطه المباركة. وأكون قد ظلمت بني جنسي إن لم أعلن لهم في هذه الساعة أن هذا المقام الروحاني الذي وصفتُه هذا الوصف، وأن مرتبةَ التشرف بمخاطبة الله ومكالمته التي فصلتُها الآن، مُـيَسرة لي بفضل الله وعنايته لكي أمنحَ العميان البصيرة، وأدلّ الباحثين على ضالّتهم المنشودة، وأبشّر – مَن

يقبل الحق - بتلك العين الصافية التي يتحدث عنها الكثيرون ولكن قليل هم الذين يجدونها... الحق والحق أقول: لو تولَّد في الأرواح رغبةٌ صادقة وفي القلوب ظمأ حقيقي، لبَحثَ الناس عن هذا الطريق، وسعوا للعثور عليه.

ولكن كيف يُفتح ذاك الطريق، وأنى يُرفَع ذاك الحجاب؟ إنني لأؤكد للطالبين جميعا أن الإسلام هو الدين الوحيد الذي يبشر بهذا الصراط، وأما الأمم الأخرى فقد خَتَمتْ على وحي الله من زمان بعيد... فيا أيها الأعزة، ويا أيها الأحباب، لا أحد يستطيع أن ينازع اللهَ في مشيئته وإرادته. فاعلموا يقينا أن وسيلة العرفان الكامل هي الوحي الرباني الذي أوتيه أنبياء الله الأطهار ثم من بعدهم لم يُرِد الله -وهو بحر الفيوض- أن يوصد بابَ الوحي في المستقبل فيُهلك العالَمَ، بل إن أبواب وحيه ومكالمته سبحانه لمفتوحة للأبد. ليس عليكم إلا أن تلتمسوها من سُبلها وسوف تجدونها عندئذ بسهولة."

وللأسف الشديد، وعلى الرغم من دعوة أحمد إلى مواساة الخلْق جميعهم، إلا أنّ أعداءه كانوا يتّحدُون ضدّه ويجتمعون عليه، ولمـّا لم يستطيعوا إسكاته بطريق المحاورات والمناظرات قرروا أن يفعلوا هذا بطريق آخر.

الفصل العشرون

الأدعية والنبوءات

تحدث أحمد كثيرا عن علامات صدق المبعوث السماوي، وقال إنّه ينبغي توافر أربعة أركان للمبعوث السماوي الصادق، وأحد هذه الأركان هو استجابة الدعاء. بيد أنّ هذا لا يعني أنّه إذا استجيب دعاء أو اثنين لشخص ما فقد صار نبيا، كما لا يجوز أن يُكذّب مبعوث سماوي إذا ظهر أنّ دعاءً له أو اثنين لم يُستجابا؛ فقد يكون الشخص الذي طُلب الدعاء لأجله من قبل المبعوث قد وقع تحت قضاء الله الـمُبرم ولا تنفعه صلوات وأدعية أي شخص كان. بمعنى آخر ينبغي أن تكون غالبية أدعية الشخص المعني وابتهالاته مستجابة حتى يُحكم عليه بأنّه مقبول الدعاء.

ولإثبات هذه النقطة، ولكي يُبيّن صدق بعثته، اقترح أحمد تكوين لجنة أو هيئة تشرف على اختيار أشخاص من ذوي العلل الخطيرة ومِمّن ألـمّت بهم بلايا كبرى. وذكر أنه مع هذا النوع من البلايا لاشيء ينفع كالدعاء، فالدعاء سينفعهم كثيرا وسيزيح عن كواهلهم الكثير من معاناتهم، وأضاف أنّ الدعاء في ظروف معينة قد ينقذ مريضا شارف على حافة الهلاك. غير أنّ هذا لا يعني أبدا أنّه يمكن الدعاء لإعادة الميت إلى الحياة؛ ذاك أنّ للحياة والموت قضاء إلهيا خاصّا لا يُتجاوز.

اقترح غلام أحمد أن يدخل في هذا الاختبار مع معارضيه من المسلمين ومن الديانات الأخرى أيضا، ليضع دعوى أنه مبعوث من عند الله على محك الاختبار وأمام عيونهم. كما كان اقتراحه يتضمن أن تتولى اللجنة المشرفة إعداد قوائم بأسماء ومواصفات أشخاص يعانون من العلل أو مصابون بالبلايا الخطيرة. وتختار اللجنة المشرفة – التي يُوافق عليها كل من الأطراف المختلفة– مَن سيتقدمون

منهم أمام رجال الدين المختلفين المشاركين في هذا الاختبار. ثم تقدِّم اللجنة القوائم النهائية بأسماء ومواصفات المختارين إلى المشاركين دون تخصيص الدين؛ بمعنى أنّه قد يدعو رجل دين مسلم طالبا شفاء مسيحي أو يدعو رجل الدين المسيحي طالبا شفاء الهندوسي، وأن تكون فترة الاختبار سنة بمعنى أن يستمر رجل الدين المشارك في الدعاء على مدى عام كامل طالبا كشف البلاء ورفع المعاناة عن الأشخاص المصابين المحددين له في قائمته، وإذا حصل أنْ مات المصاب الذي يدعو له رجل الدين خلال فترة اثني عشرة شهرًا أي فترة الاختبار فإنّ هذه الوفاة تقوم دليلا على فشله — أي فشل رجل الدين الذي دعا له– لأن الوفاة تعني أنّ الله بقضائه الخاص قد أزاحه من استكمال المشاركة في هذا الاختبار تدليلا على كذبه. وستقوم اللجنة المشرفة بتقييم نتائج أدعية كل رجل دين بناء على حال غالبية المصابين الذين في قائمته والذين طلب لهم الدعاء. واقترح أحمد كذلك أن يكون عدد المصابين كبيرا كفاية حتى يكون الحكم النهائي أقرب للصواب، فلو كان في كل قائمة مصابيْن أو ثلاثة فمن الجائز جدا أن يكون مصابهم قد سبق في قضاء الله المبرم وأنه لا يمكن أن يرده دعاء مهما كان. وقال أحمد في هذا الموضوع ما تعريبه: "لقد اقترحت إدراج أسماء أشخاص يُعانون من علل وبلايا مختلفة، وذلك حتى تتجلى الرحمة الإلهية في صور متعددة، وبذلك يستطيع الناس ذوي الطبائع المتباينة أن يصلوا إلى تقدير النتائج من وجهات نظر متعددة"، وأضاف أنّه لو فشل في هذا الاختبار: "وإنني أعد، بل إنّني أقسم على ذلك بأنّه إذا ثبت فشلي في هذا الاختبار فسوف أتولّى بنفسي إعلان هذا الفشل وأقر بكذبي... ولكنّني على إيمان يقيني بأنّ الله تعالى لن يقدّر لي هذا المصير ولن يُسْلمني لهذا الفشل".

ولكن وللأسف لم يتقدم أحد من رجال الدين سواء من المسلمين والمسيحيين والهندوس والبوذيين والسيخ ممّن كانوا يعارضون أحمد إلى هذا الاختبار. فبعد المناظرة التي حصلت بينه وبين عبدالله آتهم قام مبشرو الكنيسة

الإنجليزية المسيحية المختلفة بإصدار تعليماتهم إلى أعضائهم بعدم المشاركة في أي نوع من أنواع المناظرات أو الحوارات العلنية مع أحمد أو أتباعه.

في الواقع، إنّ الحكم على صدق نبوءة أو معجزة ما ليس أمرا بسيطا. فكيف يمكن أن تكون هناك قواعد أو أسس معينة يمكن على ضوئها معرفة نجاح أو فشل النبوءة؟ بل ما هي المعجزة أصلا؟

ذكر أحمد كما ورد سابقا أنّ هناك أربعة أنواع من المعجزات: العقلية، العلمية، البركات الروحانية، وما يتعارض ظاهريا مع قوانين الطبيعة المعروفة. وبيّن أن الأنواع الثلاثة الأولى أهمّ من النوع الرابع. ولكنّ قوله هذا قد بدا أنّه يقلل من شأن المعجزات المنسوبة إلى المسيح الناصري، وينكر المعجزات المنسوبة إلى القديسين الذين نُسب إليهم شفاء المرضى والحديث إلى الطيور أو أنهم أنفسهم قد طاروا.

وهنا لابد أن نذكر أوّل وحيّ يحمل نبوءة بعيدة قال أحمد أنّه تلقّاه من الله تعالى: "*سأبلغ دعوتك إلى أقصى أطراف الأرض*"، وقد ذاع صيت هذا الوحي ولاقى السخرية والتهكم من معارضيه حيث كان في ذلك الوقت دارسا مغمورا لعلوم الدين قابعا منسيا في قرية صغيرة نائية.

توالى بعد ذلك الوحي على أحمد بخصوص انتشار دعوته ونذكر هنا بعضا من هذه الإلهامات:

فهناك وحي تعريبه: *"إنني سأزيد عدد أصحابك المخلصين الذين يحبونك من أعماق القلوب وأبارك حياتهم وما يملكون فينمو عددهم وسيكونون إلى يوم القيامة غالبين على حزب الحسّاد والمعاندين من المسلمين الآخرين"* [مجموعة الإعلانات، ج١، ص ١٠٠- ١٠٣]

وآخر معناه بالعربية: *"... وبحسب وعده في نبوءاته المقدسة سوف يضاعف هذه الجماعة أضعافا كثيرة حتى يُدخل فيها ألوفا من الصادقين وهو*

بنفسه سوف يربيهم وينميهم حتى إنّ كثرتهم وتقدمهم سوف تبهر الأبصار". [المرجع السابق]

وهناك وحي آخر بخصوص قاديان: *"يأتيك من كل فج عميق... ولا تصعر لخلق الله ولا تسأم من الناس ووسّع مكانك"*

"أريك بركات من كل طرف... ...إنّا أعطيناك الكوثر"

ويجدر بالذكر أنّ هناك بعض الإلهامات لغلام أحمد كانت باللغة الإنجليزية علما أنها لم تكن لغة يتقنها، منها هذا الوحي:

"I shall give you a large party of Islam"

ومعناه أنّي سأعطيك حزبا كبيرا من المسلمين.

وهناك وحي آخر بالإنجليزية كذلك:

"A party out of the first and a party out of the latter"

ومعناه ثلة من الأولين وثلة من الآخرين.

ويفيد الوحيان أنّ أعدادا كبيرة من أنصار دعوة الأحمديين سوف يكونون من أتباع ديانات أنبياء آخرين سابقين فضلا عن عدد كبير من المسلمين كذلك.

أمّا الوحي القائل: "يا نبيّ الله كنت لا أعرفك" فقد فسره بأنّه على لسان الأرض – أي العالم- والمقصود منه أنّ الناس سوف يبدون مشاعر الندم على فشلهم في تصديق المسيح الموعود عند بعثته والإيمان به.

وفيما يتعلق بنمو الجماعة الأحمدية وانتشارها في الأرض فقد تلقى وحيا آخر يقول: "إنّا نرث الأرض ننقصها من أطرافها" [تذكرة الشهادتين، ص٥] وفي الحقيقة فإنّ هذه النبوءة قد تحققت بالفعل. ففي عام ١٩٨٩ أي بعد مرور مائة عام على قبول أول بيعة لأحمد كانت الجماعة الإسلامية الأحمدية موجودة فعليا في ١٢٨ بلدا.

وبالنسبة لنبوءاته المتعلقة بنمو قاديان التي لم يتوقف معاصروه عن السخرية منها، فقد قال أنّ قاديان سوف تنمو وتزدهر عاما بعد عام حتى يأتي وقت

تكون فيه مدينة كبيرة وأنها سوف تمتد شرقا حتى تصل ضفاف نهر بياس الذي كان يبعد وقتها تسعة أميال عنها. وبالفعل ففي عام ١٩٢٠ تضاعف تعداد سكان قاديان وبُنيت معظم البيوت من الحجر كما بنيت المدارس الابتدائية العديدة وثلاث مدارس ثانوية قصدها الطلاب من جميع أنحاء الهند. وبحلول عقد التسعينات، وعلى الرغم من الفقر والاضطهاد اللذان عانت منهما الجماعة الأحمدية هناك، إلا أنّ قاديان ما زالت تنبض بالحياة وزاد على وسائل اتصالها بالعالم طريقا يربطها بمدينة بطالا تم إنشاؤه وتعبيده. وبدأت أسعار الأراضي هناك ترتفع نظرا لأنّ الأحمديين من جميع أنحاء العالم بدؤوا يهتمون بإنشاء المباني هناك.

لا ينتهي الحديث عن نبوءات ودعوات أحمد، فهناك وحيٌ تلقّاه بخصوص أدعيته وقبوليتها عن شخص كان مشرفا على الموت. حدثت هذه الواقعة عام ١٩٠٧؛ كان هناك شخص اسمه عبد الكريم والذي صار لاحقا أحد أتباعه — لم يكن هذا عبد الكريم السيالكوتي الذي ألقى محاضرة فلسفة تعاليم الإسلام– إذ كان عبد الكريم هذا فتى عمره ١٢ عاما أرسله والداه إلى قاديان من مدينة حيدر آباد في جنوب الهند وتبعد ألف ميل عن قاديان. وحدث أن عضه كلب مسعور مصاب بمرض الكلب، وهُرع به إلى معهد باستور في كاسولي لتلقي العلاج ولكن بعد عدة أيام من عودته إلى قاديان بدأت تظهر عليه علامات واضحة تبدي خوفه المرَضي من الماء؛ وهذه إحدى علامات مرض الكلب البينة، فأبرق من يقومون برعايته حينها إلى معهد باستور طالبين المساعدة وعمّا يمكن فعله لإنقاذ الصبي. غير أنّ المعهد ردّ عليهم: "نحن نعتذر لأن لا شيء يمكن عمله لعبد الكريم"، ولـــمّا أُخبر أحمد عن ردّ المعهد تأثر كثيرا، ودعا الله دعاءً حارًا أن يشفي الصبي ويعافيه، وبالفعل وفي خلال أربع وعشرين ساعة بدأ عبد الكريم بالتعافي وشفي بعد ذلك تماما.

في تلك الأيام، أي في القرن التاسع عشر، لم يكن يتوافر أي دواء ينفع مع المريض إذا ما ظهرت علامة رُهابِ الماء عليه، وكان احتمال الشفاء ضئيلا جدا بحيث كان يُقال إن الشفاء من هذا المرض متعذر، غير أنّ هذا الوضع مختلف الآن فيمكن أن يشفى مرضى الكلب إذا ما عولجوا فورا في المستشفيات وتلقّوا الرعاية اللازمة وفق تعليمات الأطباء.

ولاتزال تلك البرقية — التلغراف- التي أُرسلت من معهد باستور محفوظة إلى اليوم في أرشيف الجماعة الأحمدية.

أخبر أحمد عن كثير من النبوءات المتعلقة بأمور دنيوية، وقد كتب السيد ظفر الله خان في هذا الخصوص: "في تلك الأيام كانت إمكانية الوصول إلى العالم بالنسبة إليه محدودة جدا، فهو لم يكن يجيد بجوار اللغة الأردية — لغته الأم- سوى العربية والفارسية. لم تكن لديه أي فكرة عن اللغات أو الثقافة أو العلوم أو المؤسسات الأوروبية. لم يسافر قط خارج حدود بلده أو مقاطعته سوى مرة واحدة حين قصد (عليغره)، لذا لم يخطر ببال أحد أنّ هذا الشخص يمكن أن يقدم نفسه إلى الغرب، بل يكون له أتباع من تلك البلاد. كذلك لم يتخيل أحد أبدا أنّ أناسا من بقاع منعزلة في أفريقيا سيقبلون دعوته. لقد وقفت الكثير من العقبات المهولة في وجه كلمة الله ووعده لكنها تحققت وتمّت. لقد سجّل تلك الكلمة وكلمات أخرى من عند الله تعالى رجل وحيد وهو يتمشى في باحة صغيرة في مترله البسيط".

إحدى تلك النبوءات التي تلقاها بخصوص العالم هي أنّ أنهارا من الدم سوف تفيض وسيعم الخوف والاضطراب وسيغيب الأمن وسيكون الدمار هائلا وكبيرا لدرجة أنّه سينال الطيور والحيوانات والشجر أيضا. قد يبدو أنّ هذا الوحي يتنبأ بحدوث زلزال هائل، غير أن أحمد الذي كان قد تلقى إلهامات أخرى بخصوص الزلازل لم يفسره بزلزال هائل وإنّما قال أنه قد يصف كارثة أخرى؛ حيث بيّن بخصوص الوحي المذكور ما معناه: من الممكن أن يكون

هذا الوصف متعلقا بكارثة أخرى مميتة مهلكة بخلاف الزلازل بحيث تشابه أهوال يوم القيامة وتكون غير اعتيادية لأنها لم تحدث من قبل.

وأوضح بمزيد من الشرح: ستكون هزة كبرى تجلب الدمار للناس والبيوت والحقول وتكون مباغتة لدرجة أنّ العاري لا يجد الوقت ليستر نفسه، وأنها تسدّ السبل على المسافرين وتقطع الطريق على الفارّين، ستتشكل الوهاد في الأرض وستسيل أنهار الدماء حتى أنّ الأنهار المتدفقة على التلال سوف تتلوّن بلون الدم الأحمر... كل العالم سيشهد تلك الكارثة الكبرى التي ستطال وتؤثر على جميع الناس كبيرهم وصغيرهم وستنهار جميع الحكومات تحت وطأتها، وستكون بلاد القيصر ولاية منكوبة حتى الطير في السماء سوف تناله الكارثة وسينسى غناءه العذب.

وجاءه وحي آخر بخصوص هذ الكارثة العالمية يوضح له أنّه لن يشهد هذه المصيبة التي ستحدث بعد ستة عشر عاما من تلقيه الوحي بخصوصها ولن يكون هذا خلال حياته. وأُلهم الدعاء: "*ربِّ لا تريني زلزلة الساعة*". ولـــمّا أعلن تلك الإلهامات طلب من معارضيه ومن يترصدون له أن لا يسارعوا إلى الإنكار والتكذيب وطلب منهم أن يدَعوا الوقت يقرر ما إذا كان كاذبا أم صادقا.

في الواقع إن الكلمة العربية الزلزال أو الزلزلة — كما هو معلوم للعرب- تعني أيضا الحرب، وقد ذُكر هذا في القرآن الكريم، لذا فهم أتباع أحمد المسلمون والذين كانوا يدوّنون أقواله وجميع إلهاماته أنّ الكارثة المقصودة لن تكون هزة أرضية عادية بل مُصابا عالميا لأن الإلهام ذكر أنّه سيعم ّجميع الأمم، وكذلك لا تطال الهزات الأرضية الطير في السماء، وما هي هذه الوهاد التي ستتشكل في الأرض؟ والدم الذي سيسيل مع مياه الأنهار؟ مما لا شك فيه أنه حدث غير عادي لم يعرفه الإنسان من قبل.

إنّ المذابح الرهيبة التي حصلت خلال الحرب العالمية الأولى نتيجة القصف العنيف على الجبهة الغربية بين جيوش الحلفاء – بريطانيا وفرنسا– من جهة وبين ألمانيا من جهة أخرى والذي طال البشر والشجر على السواء حتى إنّ الحياة البرية قد اختفت تماما من تلك البلاد وامتلأت الأرض بالحفر نتيجة القصف وملأت الدماء مياه الجداول، تشبه كثيرا وإلى حد التطابق ما أخبر به أحمد.. إنّها مذابح دموية لم تُشهد منذ كان الإنسان. كذلك كان ما حلّ ببلاد القيصر وبالعائلة القيصرية الروسية يطابق إلى حدّ مذهل ما وصفه الوحي الذي تلقّاه بخصوصهما.

وفي مناسبة أخرى قال أحمد: لقد رأيت في حالة الكشف أن صولجان القيصر في يدي وأنّ أبا علي ابن سينا يقف بجواري. وكان سقوط بلاد القيصر تحقيقا كاملا لهذا النبأ. ولكن في عام ١٩٩٠ جاء سقوط الاتحاد السوفيتي تحقيقا لباقي النبوءة وتأكيدا على الوحي الذي تلقّاه.

أعلن مرزا طاهر أحمد الخليفة الرابع لغلام أحمد أنّ واحدا من أهم مناطق إشعاع الإسلام للعالم كله ستكون مناطق الإمبراطورية الروسية القديمة، وجاء إعلان طاهر أحمد في وقت كان الاتحاد السوفيتي ما زال قائما وكان يعدّ قوة عالمية كبرى، بل إن الخليفة الرابع طلب من الأحمديين أن يوقفوا أبناءهم غير المولودين بعد لمهمة تبليغ الإسلام لبلدان الإمبراطورية الروسية... تلا ذلك الإعلان بوقت قصير انهيار الاتحاد السوفيتي وتحققت نبوءة أحمد!

ولكن ماذا عن أبي علي ابن سينا،؟ إن ابن سينا معروف للعالم الغربي بأفيسينا وهو تحريف عبري للفظ اسمه. إن ابن سينا هو عبقري بشهادة الغرب والشرق وهو معروف ومعتبر لدى المسلمين والعالم الغربي أيضا، لقد كان فيلسوفا وعالما وطبيبا كما كان عالم رياضيات وفلكيا وشاعرا فضلا عن توليه بعض المسئوليات الإدارية في عصره. كل هذه الصفات بلا شك أمور مطلوبة لإعادة بناء الإمبراطورية الروسية القديمة وتحويلها للإسلام.

وعلى القدَر نفسه من الوضوح كان الوحي الذي تلقّاه أحمد بخصوص سقوط الإمبراطورية الفارسية والذي أعلنه في ١٥ كانون الثاني/ يناير ١٩٠٥: لقد هُزّ عرش كسرى. في ذلك الوقت كان شاه إيران يبدو مستقرا على عرش الطاووس الشهير على إمبراطورية تعدّ من أقدم الملكيات في العالم، ولكنّه ما لبث أن قُتل في أقل من سنة في ثورة قضت كذلك على ابنه ووريث عرشه ومسحت حكمه عن عرش الطاووس إلى الأبد...

وكان لأحمد نبوءة متعلقة بتقسيم ولاية البنغال، حيث كان حاكم الهند اللورد كورزون قد دعا إلى هذا الأمر الذي أنكره وشجبه معظم الهنود حينها؛ حتى إنّ المؤتمر الوطني الهندي — الذي كان قد أنشئ حديثا– قام بحملة سياسية واسعة ومكثفة لمنع هذا التقسيم. وعلى الرغم من تأجج الموقف فإنّ الحاكم الجديد الذي وفد إلى الهند وهو اللورد "منتو" أعلن أنّه وحتى بعد أن لقي المعارضة على قرار سلفه، أعلن أنّ قرار التقسيم لن يُلغى أو حتى يُعدّل. ومن جهة أخرى رفض وزير خارجية الهند ورئيس الوزراء البريطاني — الذي كان مسئولا عن جميع الشئون المتعلقة بالهند– بشكل قاطع جميع الشكاوى المرفوعة إليه، لقد بدا كأنّ التقسيم أمرا واقعا وعليهم القبول به. تلقى أحمد في شباط عام ١٩٠٦ وحيا بالأردية يقول ما معناه: بخصوص الأمر الصادر المتعلق بالبنغال، إنهم سيرضون الآن (أي سيحدث ما يؤدي لرضاهم).

تلقى الهندوس الذين بدأوا يقبلون التقسيم هذا الإلهام بالسخرية والاحتقار وحسِبوا أن التقسيم هو أمر لا يمكن تغييره، ولكنّ السنوات التي مرّت، والتي دأب أعداء أحمد من الهندوس والمسلمين على ذكر نبوءته تلك بالسخرية والتهكم، قد شهدت تحقق نبوءة أحمد، ففي كانون الأول/ ديسمبر عام ١٩١١ وعشية تتويجه إمبراطورا على الهند أعلن جورج الخامس إلغاء قرار تقسيم البنغال.

الفصل الواحد والعشرون

غضب اللّه

إنّ نبوءة أحمد المتعلقة بموت البانديت ليكهرام محددة جدا، وكانت ظاهريا تضع غلام أحمد في مأزق كبير، إذ جاءت بعد نشر البراهين الأحمدية بوقت قصير وبعد أن أعلن أحمد أنّه قد تلقى الوحي من الله وأنّه مجدد القرن.

البراهين الأحمدية التي قد تناولناها في فصل سابق- هي كتاب ضخم قام أحمد بتأليفه وتناول فيه محاسن الإسلام وكمالاته وقارنه بالأديان الأخرى، وقد تحدى غلام أحمد الهندوس والمسيحيين والديانات الأخرى وطلب منهم أن يقارنوا نصوصهم المقدسة بالقرآن الكريم. ولأنّه أدرك أنّ عليه جذب الانتباه بشيء غير اعتيادي حتى يستقطب أكبر عدد من الناس ويوصل لهم دعوته، فقد أضاف إلى هذا التحدي جائزة عشرة آلاف روبية هي قيمة كل ممتلكاته ومترله لمن يتصدى له ويفند دعواه، وكان مبلغ الجائزة مغريا وكبيرا جدا. وبالفعل تقدّم عدد من الأشخاص للردّ على أحمد ولكنهم سرعان ما تلاشوا واختفوا. أما البانديت ليكهرام — واحد من زعامات طائفة الآرياسماج الهندوسية- فقد ألّف كتابا أسماه "الردّ على البراهين الأحمدية" وعلى الرغم من أنّه لا يعدو كونه جعجعة ونقدًا لاذعًا سخيفًا للإسلام كدين ولشخص أحمد ولا يرقى إلى مستوى الرد المقرون بالحجج والقرائن العقلية إلا أنّه ما كان ليمرّ دون انتباه. حتى إنّ صحيفة مسيحية اسمها (نور أفشان) كتبت عنه: لا شك أنّ المؤلف قد تفوق على أكثر المتعصبين في استخدام تعابير الذم والقذارة والكذب والادّعاء. إنّ كتابه بمجمله سخيف سطحي لا مغزى له ولا يستطيع أي إنسان متحضر أو متعلّم أن يقبل بترديد ما جاء فيه، إنّه أدنى بكثير من أن ينشر. وصحيح أنّ كتاب

البانديت قد افتقر إلى النوعية غير أنّه لم يفتقر إلى الكمية، لقد بلغ عدد صفحاته ستمئة وخمس وعشرين صفحة طُبعت في ثلاثة مجلدات. كان البانديت طيلة أيام حياته، وبعد هذا الموقف، من أشدّ أعداء أحمد ضراوة وأمرّهم عداوة. للبانديت، فضلا عن كتاب الردّ على البراهين الأحمدية، ما مجموعه ثلاثة وثلاثون كتابا خصص منها تسعة كتب لمهاجمة الإسلام.

وهنا لابدّ أن نعطي نبذة عن البانديت ليكهرام، فلقد وُلد عام ١٨٥٦في سيّدبور من أعمال شاكوال في مقاطعة جهلُم وانتقل منها إلى بيشاور عندما بلغ سن الخامسة عشرة ليعيش مع عمّه. ولــمّا بلغ سن العشرين التحق بالشرطة. عُرف كرجل ذي ذكاء متميز لذا ترّقى بسرعة إلى رتبة رقيب. عكف على دراسة الديانة الهندوسية من خلال أعمال رجلي الدين الهندوسيين (غورموخي) و(غيتا) وأشرف عليه أحد أصدقاء عمّه في هذه الدراسة الدينية التي ابتدأها منذ وصوله إلى بيشاور. ثمّ انتقل لاحقا إلى أعمال إندرمان مراد أبادي. تعرّف إلى سوامي ديانند سيرسفاتي، مؤسس طائفة الآرياسماج، والتحق بها حتى أسس مقرا لها في مدينة بيشاور عام ١٨٨١. وعلى الرغم من أنّه قد عرف بالذكاء، غير أنّــه كان يطلق للسانه العنان في المناظرات أو حتى النقاشات الدينية في ساعات العمل أو خارجه وكانت تعابيره أشبه بقصف لفظي على الآخرين، حتى اشتهر عنه مناقشاته الدينية مع المسلمين في بيشاور على الطرقات. لكن ما كان مقبولا أو على الأقل مسموحًا به في حياته الخاصة كان مرفوضا تماما في مركز الشرطة. إذ تسببت نقاشاته الدينية الحادة مع رؤسائه بتسريحه من خدمة الشرطة عام ١٨٨٤ وانتقل بعدها بفترة وجيزة إلى لاهور.

نعود إلى جائزة غلام أحمد البالغة قيمتها عشرة آلاف روبية التي كان قد أعلن عنها عام ١٨٨٥ من خلال رسالة بعث بها إلى عدد من الزعماء الدينيين في الهند كلها، وكان نص الرسالة ما معناه: "تصلكم هذه الرسالة

لأنكم زعيم معروف ومحترم لدى أفراد ديانتكم، ولأني أرغب في أن أضع أمامكم حقيقة أنّ الدين الحق الذي استحق رضا الله تعالى هو الإسلام وأنّ الله عزّ وجلّ قد أنزل كتابا حفظه بقدرته وهذا الكتاب هو القرآن الكريم. فإذا كان لديكم شكّ في دعواي هذه فإنّني أدعوكم للقدوم إلى قاديان والنـــزول فيها ضيوفا علي مدة عام لتقيموا بصحبتي وتشهدوا كل التأييدات الإلهية بأم أعينكم. إنّ الشرط الوحيد الذي أضعه أمامكم هو خلوص النية وطهارتها في البحث عن الحق. وأضمن أنكم ستجدون بإذن الله تعالى في قاديان الحقيقة، هذا ليس من عندي بل هو ضمان أُعطيته من عند الله تعالى الذي لا يُخلف وعده. وإنّنا نزيد كذلك بأنّ القادم إلى قاديان والذي يمكث المدة المحددة ويفشل في إيجاد أي علامة صدق سأمنحه مبلغ مئتي روبية شهريا جزاءً أتحمله على هذا الفشل وسيكون هذا المبلغ نظير وقتكم المهدور والوعد الذي فشلنا في تحقيقه، أمّا إذا شعرتم أنّ هذا المبلغ أقلّ مما تنفقون فنحن مستعدون لدفع المبلغ الذي ترونه مناسبا بشرط أن يكون ضمن استطاعتنا".

لم يكن البانديت ليكهرام ضمن الزعامات الدينية التي وجه غلام أحمد رسالته إليها، ومع ذلك فقد أعلن عزمه على زيارة قاديان لا بل وطالب بمئتي روبية عن كل شهر يمكثه هناك، فردّ عليه أحمد بأنّ الرسالة قد وُجّهت إلى طائفة مختارة من الزعامات الدينية وأنك – أي ليكهرام – لستَ من ضمن من وُجِّهت إليهم ولست ذا تأثير على أي فرقة معينة ولست كذلك ذا دخل كبير. ولكن إذا كان بمقدور ليكهرام أن يحضر شهادة أو إفادة خطية تفيد أنّه زعيمٌ معترف به لطائفة الآرياسماج الهندوسية في لاهور وبيشاوَر وأمريتسار ولُدهِيانه فإنّ أحمد على استعداد تام لأن يستقبله بكل رحابة صدر.

لَم يستطع ليكهرام أن يحصل على هذه الحجة التي تقدّمه كرجل دين معترف به لطائفته، غير أنّ هذا لم يثنه عن القدوم إلى قاديان... وقد منحه غلام أحمد بدلَ معيشة مبلغا يعادل ضعف ما كان يتقاضاه عندما عمل

كرقيب في شرطة بيشاور وكان الاتفاق أن يتقاضى هذا المبلغ مدة عام ثمّ قلصت هذه المدة إلى ستة أشهر. إلا أنّ ليكهرام رفض، وطلب أن يُــودع أحمد مبلغ ألفين وأربعمئة روبية كاملة في البنك، فردّ أحمد بأنّه موافق على أن يفعل هذا شريطة أن يحذو ليكهرام حذوه، كان أحمد واثقا أنّ الله تعالى سيمنحه الغلبة في النهاية. رفض ليكهرام وقال أنّ آخر عرض لديه هو قبول مبلغ ثلاثين روبية في الشهر وأن يناظر أحمد علنا – الأمر الذي رحّب به شرط أن يتم الالتزام بمقتبسات القرآن وكتاب الهندوس المقدس أي الفيدا في دعم حجج المناظرة. إنّ هذا الالتزام هام جدا لغلام أحمد، لأنه لن يسمح لليكهرام بأنّ يصب جام حقده ويكيل الشتائم بحق نبي الإسلام، خاصة وأنّ ليكهرام قد فعل هذا من قبل وصدر منه ما يسيء بحق نبي الإسلام بشكل يثير مشاعر الغضب عند المسلمين، وهذا كلّه ضد القواعد التي يتبعها أحمد عندما كان يُعلن قبوله المناظرات الدينية العلنية مع أي زعيم ديني من أي ديانة كانت.

مرة أخرى، رفض ليكهرام. وغادر قاديان بعد خمسة وعشرين يوما قضاها فيها، وكتب رسالة عند مغادرته يطلب من غلام أحمد أن يُظهر علامة إلهية تبيّن الصادق من الكاذب. وكان ردّ غلام أحمد أنّ الوحي ليس اختيارا من عنده بل هو من الله تعالى، إنّه ليس صنبور ماءٍ نفتحه أو نغلقه وفق أهوائنا، وأنّ الوحي كله ليس بالضرورة أن يكون أنباءً سارة وبشارات؛ فقد تلقّى أحمد أكثر من وحي تضمّن أنباء عن أشخاص معينين سواء من الأصدقاء أم من المعارضين وكان فيها ما لا يسرّ، وأنّه لن يُذيع هذه الأنباء دون إذن أصحابها، لذا فمن يرغبون أن لا تَذيع الأنباء المتعلقة بهم أن يطلبوا منه السكوت عنها. للأسف كان ردّ ليكهرام تسفيها آخر وسخرية أخرى من أحمد حيث قال ما معناه: أنت حرٌّ في أن تُذيع عني أي نبأ تشاء. أنا أسمح لك، وأنا لا أخاف. فلم يجد غلام أحمد بُدًّا من إذاعة وحي تلقاه بشأنه وهو

أنّه سيموت ميتة قاسية. فأجاب ليكهرام باستخفاف طالبا موعد وفاته وبإصرار، بل زاد أنّه يريد كيفية الوفاة بالضبط، ورافق رفضه واستخفافه بالنبوءة تصعيد من نبرة هجومه على الإسلام ونبيه.

وخلال فترة قصيرة حصل ما طلبه ليكهرام، إذ تلقّى غلام أحمد وحيا به التفاصيل التي أصرّ ليكهرام عليها إذ جاء فيه: "... ثمّ لـــمّا توجّهتُ إلى الله تعالى اليوم، الذي هو يوم الاثنين ٢٠ شباط/ فبراير ١٨٩٣، لمعرفة موعد عذاب الله، فألقى اللهُ في روعي أنّه في خلال ستّ سنين من اليوم سينال هذا الرجل عذابا عظيما عقابا له على الأسلوب المتهتك الذي كان يستعمله في حقّ الرسول صلى الله عليه وسلم. والآن بإعلاني هذه النبوءة، فإني أودّ أنْ أُخبر كل المسلمين والمسيحيين وأتباع جميع الديانات الأخرى إنّه إذا لم ينل هذا الشخص في خلال ست سنوات من يومنا هذا عذابا يكون مختلفا تمام الاختلاف عن أنواع البلايا التي تصيب الإنسان عادة، بل يكون خارقا للعادة ويتضمن هيبة إلهية واضحة، فيكون من حقكم آنذاك أن تقرروا أنّي لستُ مرسلا من عند الله تعالى وأنني لا أتكلم بروح منه..." وفَوْر إعلان أحمد هذه النبوءة ثارت الانتقادات عليه، حيث قيل مثلا أنّها لا تعدو كونها حدسا، فيمكن أن يعتري الإنسان أي مصاب خلال فترة ست سنوات. فأوضح غلام أحمد في موضع آخر ذي علاقة: "إذا لم يحدث نتيجة لهذه النبوءة سوى الإصابة ببعض الحمى أو بعض الآلام العادية أو الهيضة ثمّ استُعيدت الصحة بعدها فإنّ هذا لا يُعتبر تحقيقا للنبوءة، وفي هذه الحالة يثبت أنّ النبوءة ليست إلا مكرًا ودجلا، لأنّه لا يسلم أحد من تلك الأمور، فإننا جميعا نمرض بين حين وآخر. وحينئذ فإنني حتما أستحق العقاب الذي ذكرتُه. ولكن إذا تحققت النبوءة بشكل يظهر فيه بكل وضوح آثار العذاب الإلهي فافهموا أنّه من عند الله تعالى. وليس من الصحيح بتاتا أنني أحمل عداوة شخصية تجاه ليكهرام، بل الحق أنني لا أكن عداوة تجاه أي شخص كان. إنّ هذا الرجل

قد عادى الحق وتكلم بأسلوب منحط عن أكمل خلق الله تعالى وأطهرهم الذي هو يَنبوع كل الحق ومصدره، لذلك فإنّ الله قد قضى بأن يظهر شرف حبيبه صلى الله عليه وسلّم في العالم".

ثمّ قال أحمد أنه تلقى أكثر من وحي بخصوص ليكهرام، كان من أكثرها وضوحا أنّ رجلا غاضبا ذا عينين حمراوين سيقتله. وهناك وحي آخر أعلنه أحمد: "في هذا الصباح[10] وأثناء غفوة خفيفة، رأيتني جالسا في حجرة كبيرة مع بعض صحابتي حين دخل رجل عملاق مرعب الشكل لدرجة وكأن الدم يقطر من وجهه وجاء ثم وقف أمامي، فلما رفعتُ وجهي إليه أدركت أنّه كائن له جسم ومظهر غريب، كأنّه لم يكن آدميا، بل كان أحد الملائكة الغلاظ الشداد.كان مظهره يثير الفزع والرعب في القلوب، وبينما أنا أنظر إليه سألني: أين ليكهرام؟ وذكر أيضا اسم شخص آخر وسأل عن مكانه. وحينئذٍ فهمتُ أنّ هذا الرجل قد أُسندت له مهمة عقاب ليكهرام والشخص الآخر، ولكني الآن لا أذكر اسم الشخص الآخر غير أني أذكر أنّه واحدٌ من الذين نشرتُ عنهم إعلانا. وكان هذا في يوم الأحد الساعة الرابعة صباحا، فالحمد لله على ذلك. "[الخزائن الروحانية، ج٦، ص٣٣]

لقد أشار أحمد في موضع آخر إلى هذا الأمر من خلال أبيات فارسية معناها ما تعريبه: "احذر أيها العدوّ الجاهل الغبي الضال... وارتعد خوفا أن ينالك السيف القاطع لمحمد". وحتى نُجمل موضوع النبوءة المتعلقة بليكهرام نورد ما كتبه أحد مؤرخي الجماعة الإسلامية الأحمدية فيما يتعلق بموت ليكهرام:

١. سيلقى نهاية مروّعة.
٢. سيلقى حتفه خلال فترة ست سنوات من النبوءة.
٣. سيكون تاريخ هلاكه قرب العيد، بُعيده أو قُبيله.

---

[10] بتاريخ ٢ نيسان/أبريل ١٨٩٣

٤. سيتمزق جسده خلال عملية موته.

٥. سيكون قاتله شخصا أحمر العينين.

٦. ستكون النهاية بسيف محمد.

ولما سمع ليكهرام بهذه النبوءة وكعادته طرحها جانبا ولم يُلقِ لها بالا، لقد كان واثقا من أنّه لن يصيبه شيء. وفوق ذلك قام ليكهرام بإعلان وحي ادّعى أنّه تلقاه وأورده في أحد كتبه يدّعي فيه أنّ أحمد سوف يلقى حتفه خلال ثلاث سنوات بسبب داء الكوليرا. واستمر كدأبه في إهانة وتشويه سمعة الإسلام ونبيه محمد. لكنّ أحمد لم يقبل بهذا ولم يتجاوزه أبدا أو يعتبره جزءا من الخلاف في الرأي الذي لا يفسد للود قضية.

هناك حادثة توضح هذا الأمر وإلى أي درجة كان أحمد يَعُدُّ مسألة المساس بشخص الرسول أمرا لا مساومة فيه: كان أحمد في انتظار وصول القطار في محطة لُـــدهيانة حين حان موعد الصلاة، فقام ليؤديها وبعد ذلك بوقت قصير وصل ليكهرام إلى المحطة ورأى غلام أحمد، فحاول أن يلفت نظره بأن يتمشى قبالته وأن يتحرك من رصيف لآخر، غير أنّ غلام أحمد تصرف كأنّه لم يرَه، ولكن واحدا من أتباعه كان قد رأى ليكهرام وخاطب معلمه بأنّ ليكهرام يريد أن يسلم عليك فردّ أحمد: "يسبّ نبينا ويريد أن يصافحني! أنا لا أريد حتى أن أرى وجهه".

مرّت السنوات الثلاث ولم تتحقق نبوءة ليكهرام المتعلقة بموت أحمد بالكوليرا، فالرجل بقي حيًّا يُرزق. غير أنّ الأمر لم يكن كذلك بالنسبة لليكهرام. ففي يوم السبت الموافق ٦ آذار/ مارس عام ١٨٩٧ — الذي كان اليوم التالي ليوم العيد- وفي بيته المؤمَّن والمحاط بالحرس حيث كان ليكهرام في غرفته في الطابق العلوي التي خصصها كمكان للبحث والدراسة، تعرض ليكهرام لطعنة خنجر من رجل ضخم البِنية. لقد أغمد القاتل خنجره في صدر ليكهرام ثمّ عمل طعنا في جسده فمزق أحشاءه في مواضع متعددة

وعدة مرات كأنما أراد أن يتأكد من تحقق فعلته. سمعت كلٌّ من أم ليكهرام وزوجته الصوت وكانتا في غرفة مجاورة فهرعتا إليه، غير أنّ القاتل فرّ بعد أن طرح أمّه أرضا، قالت الأم أنّ القاتل كان أحمر العينين. لم يرَ أحد من الأشخاص الكثر الذين كانوا أمام منزل ليكهرام هذا القاتل ولا رآه أحد من الناس الذين تدافعوا إلى طابق المنزل الأرضي بعد أن علا الصراخ والضجيج عقب حادثة الطعن هذه. قالت المصادر المعنية بالتحقيق في حادثة القتل أنّ القاتل كان شخصا قد عاش في منزل ليكهرام لفترة كافية صار فيها صديقا موثوقا.

لقد أثارت نهاية ليكهرام المأساوية ضجة كبرى، حتى إنّ أتباعه ادّعوا أنّ أحمد متورط بشكل ما في جريمة القتل هذه التي تمّت بحسب نبوءته بدقة بالغة. ردّ أحمد على هذه الادّعاءات بالنفي فلا يمكن لأي رجل دين يطلب الاحترام من أتباعه أن يحثّهم على ارتكاب فعل كالاغتيال. وأضاف بأنّ مقتل ليكهرام كان عملا بيد الله تعالى وأنّ اليد التي أنهت حياته كانت وسيلة من أسباب الله الخفية التي لا حيلة لبشرٍ فيها،"لو وُجِدتُ في بيته ساعة وقوع الحادثة لحاولت إنقاذه لأنّ هذا هو واجبي الإنساني".

تحققت نبوءة غلام أحمد بدقة وعلى وجه التمام: فلقد قتل في مهلة السنوات الست وبعد العيد بيوم واحد، وتمزق جسده حتى إنّ أحشاءه قد قُطّعت، وكان الشخص الذي قام بقتله رجلا أحمر العينين وكان سلاح القتل سيفا حادّا بتّارا؛ سيف محمدّ البتّار.

لم يُعثر على القاتل أبدا ولم يُستدل عليه على الرغم من التحقيقات التي أجريت حول الحادثة. وفي الذكرى السادسة عشرة لاغتيال ليكهرام أي ٦ آذار/ مارس ١٩١٣، كتب محامٍ من الآريا سماج هو (بابو غانس رام) أنّ حادثة اغتيال ليكهرام كانت صدفة طابقت نبوءات غلام أحمد: "...لقد وقعت هذه الجريمة في لاهور عاصمة مقاطعة البنجاب، ولكنّ الشرطة فشلت

تماما في تتبع أثر القاتل، وكان من مصادفات الأمور أن تحققت نبوءة غلام أحمد فاستُشهد بذلك الپانديت ليكهرام، والله وحده هو الذي يعلم إذا كان ذلك عقابا من عنده أم أنّه كان نتيجة لتخطيط البشر".

كان من نتائج مقتل ليكهرام أنّ على أتباع أحمد بذل مزيد من الجهد في حراسته، إذ إنّ جمعية سرية هندوسية تشكلت عقب اغتيال ليكهرام خصصت جائزة لمن يثأر لمقتل الزعيم الهندوسي ويقتل غلام أحمد ووصلت الجائزة – حسب ما أشيع – إلى مبلغ ثلاثين ألف روبّية وهو مبلغ هائل في تلك الأيّام. لقد كان أضعاف مبلغ الثلاثين روبّية التي كان ليكهرام مستعدا لقبولها راتبا شهريا له خلال حياته.

من جهة أخرى، ولدحض أي ادّعاء ضدّ أحمد بالتآمر على اغتيال الپانديت ليكهرام بشكل نهائي، أعلن غلام أحمد في ١٥ آذار/ مارس ١٨٩٧ الإعلان التالي: "إذا كان هناك أحد لا يزال يساوره الشك ولا يزال يحسب أني متآمر في هذا القتل- كما يُشاع في بعض الصحف الهندوسية- فإنني أتقدّم باقتراح معقول يمكن به كشف حقيقة هذا الأمر. فليتقدم أي شخص متشكك ويُقسم أمامي ويقول: إنني أعلم يقينا أنّ هذا الشخص له يد في مؤامرة القتل أو أنّه قد تمّ بناء على توجيهاته وإذا كانت شهادتي هذه ليست صحيحة فإنّي أدعو الله القادر أن يصيبني بعقاب يكون جدّ مهيب ولا يكون من فعل إنسان ولا يمكن أن يكون ذلك من تخطيط أحد من الناس. فلو لم يهلك هذا الشخص لمدة عام بعد دعائي عليه فيثبت حينئذ أنني مذنب وأستحق تلك العقوبة التي يستحقها القاتل. والآن، إذا كان هناك أحدٌ من الآريا الشجعان يريد باتّباع هذا المسلك إنقاذ العالم أجمع من الشكوك، فليتقدم".

الفصل الثاني والعشرون

تهمة قتل

توفي عبد الله آتهم يوم السابع والعشرين من شهر تموز/ يوليو ١٨٩٦ أي بعد مرور سنتين وثلاثة أشهر على نبوءة أحمد عن موته التي أعلنها في ختام المناظرة التي جرت بينهما[11]، حيث أعلن أنّ الله تعالى قد أوحى إليه بأنه في غضون خمسة عشر شهرا – أي باعتبار مهلة شهر مقابل كل يوم من أيام المناظرة– سيهلك الطرف الكذاب في نار جهنّم وأنّ هذا وعد من الله تعالى حتى يتبين للناس من هو المدّعي الكاذب، ولكنّ تحقُّق هذا الوعد قد يُرفع إذا تراجع الطرف المذنب عن موقفه الخاطئ الذي استحق بسببه العقوبة.

فهل تراجع عبد الله آتهم عن الجملة التي أطلقها في كتابه "حقيقة الإنجيل الباطنة" التي أشار فيها إلى رسول الإسلام بأنّه دجّال؟

يقول غلام أحمد موضحا النبوءة التي قال إنّه تلقاها من الله؛ إذا استمرّ عبد الله آتهم على موقفه المسيء إلى الرسول فإنّ العقوبة ولا شك نافذة وسيلقى حتفه هالكا في نار جهنم، أمّا إذا تراجع واعتذر عن موقفه المذكور آنفا فإنّه وعلى الرغم من أنّ عمره البالغ خمسًا وستين سنة الذي يتجاوز معدل العمر في الهند فإنّه سيعيش على الأقل خمسة عشر شهرا أخرى. فالله تعالى يغفر له ولا ينفذ فيه عقوبة الهلاك لأنّه أبدى الندم والأسف وتكون حياته دليلا على رجوعه عن إساءته لرسول الإسلام.

---

[11] أعلن المسيح الموعود عليه السلام هذه النبوءة في آخر المناظرة التي كانت في حزيران من عام ١٨٩٣، فكان بين ذلك وبين موت آتهم ثلاث سنوات وشهر تقريبا. ولكن النبوءة مرت بمراحل وتحققت في هذه المراحل. (المترجمة)

قد يبدو للوهلة الأولى أنّه مهما آلت إليه الأمور سيدّعي غلام أحمد أن نصر الله كان حليفه، ولكن فيما يتعلق بهذه النبوءة فإنّ أحمد أضاف أنّه إذا ما عاش عبد الله آتهم وحاول الادّعاء أنّ الغلبة كانت من نصيبه فعليه أنّ يُدلي بهذا في إعلان رسمي على الملأ أنّه قد انتصر وأنّه لم يتراجع عن موقفه.

وهنا لابد من ذكر موقف القس الدكتور مارتن كلارك الذي تناول المناظرة بين عبد الله آتهم وغلام أحمد ووصف المسلمين في التقرير السنوي للجمعية التبشيرية التابعة للكنيسة بعبارات تبدو اليوم جارحة وقاسية حيث وصفهم بأبناء الظلام، وأضاف بأنّ المسيحيين لم يكونوا يرغبون في الدخول في مناظرة كهذه مع أحمد لأنهم أتباع "أمير السلام" وبالتالي لا ينبغي لهم اللقاء مع أبناء الظلام.

ولـــما انقضت مهلة الأشهر الخمسة عشر ولم يمت عبد الله آتهم، لم يستطع الدكتور مارتن كلارك كتم سعادته وغبطته العارمة لأنّ هذا سيعني أنّ أحمد أطلق نبوءة كاذبة، فسارع إلى التعليق في تقرير الجمعية التبشيرية السنوي لسان حال الكنيسة الأنجليكانية التي يترأسها لعام ١٨٩٥ متخليا عن رفضه للمناظرة؛ بل صار الآن يريد أن يستفيد مما ظنّه هزيمة لأحمد. بالإضافة إلى ذلك وبعد أن كان يقول عن أحمد إنّه مهرطق ولا يمثل الإسلام صار الآن يريد أن يعدّه ممثل الإسلام... ونورد فيما يلي تعريب ما قاله الدكتور كلارك: "من الصعوبة بمكان التعبير عن المناظرة التي استحوذت على الاهتمام العام. إنها قضية واضحة بسيطة جلية: لم تعد القضية حربا كلامية أو مباراة جذب انتباه.. إنها علامة سماوية على وشك الظهور إذ سيقضي الله تعالى بنفسه في هذا النـــزاع".

كانت المناظرة محور الحديث والانتباه خلال العام المنصرم، من مِدْراس إلى بيشاور في طول الهند وعرضها..الآلاف والآلاف من الرجال وجهوا أنظارهم وأفكارهم وقلوبهم إلى تلك المدينة القاصية في الطرف الشمالي

ليشهدوا المعركة التي راهن عليها الإسلام والتي سيكون الله وحده هو الحكم فيها.

أدلى الدكتور مارتن بالإعلان المذكور في اليوم الذي انتهت فيه المهلة المحددة كما كان ظاهرا، وكان المسيحيون متهللين مبتهجين، ولكنّ غلام أحمد قطع عليهم هذه البهجة بأن أعلن أنّ النبوءة تضمنت عفوا، وأنها كانت مشروطة، وأنّه إذا ما تراجع عبد الله آتهم عن موقفه فإنّ العقاب المتضمن في النبوءة لن يحدث. ولكن، هل تراجع آتهم عن معتقداته السابقة؟ وأين كان عبد الله آتهم في مدة الخمسة عشر شهرًا؟

في الحقيقة، وكما تبين الشواهد، توقف آتهم عن ممارسة أي نشاط تبشيري مسيحي، حتى إنّه ظهرت إشاعات تقول بأنه صار مدمنا على تعاطي الخمور. طُلب من عبد الله آتهم أن يُعلن مقسما على الملأ أنّه لم يغير أي شيء من مزاعمه ونظرته السابقة حول الإسلام، إلا أنّه رفض رفضا باتا أن يقوم بهذا وأصدر إعلانا يقول فيه أنّه ما يزال يعتنق الديانة المسيحية وأنّه يعتقد أنّها الدين الحق ولكنّ اعتقاده في ألوهية السيد المسيح يختلف عن مفهوم بقية المسيحيين. ولأنّ الاعتقاد بألوهية السيد المسيح هو لبّ العقيدة المسيحية فقد كان هذا الإعلان مثيرا للانتباه وبطبيعة الحال لم يرُق للدكتور مارتن كلارك.

أعقب هذا الإعلان طلبٌ وجّهه أحمد إلى عبد الله آتهم يسأله أن يقسم بأنّه لا يضمر في نفسه أي شكوك حول ما يُعلِن من معتقداته الدينية المسيحية، وأنّه لم يتزعزع البتة عنها، وأنّ الإسلام لم يخلّف في نفسه ولو انطباعا بسيطا خلال فترة الخمسة عشر شهرا المنصرمة وأنّه ما زال باقيا ثابتا على عقائده التي دخل بها المناظرة. رفض عبد الله آتهم أن يفعل هذا، وحتى عندما حاول أحمد أن يراوده عن صمته بأن يطلب منه الإدلاء بهذا الإعلان أو القسم حتى يُبتّ في استحقاقه للعقوبة الواردة في النبوءة التي أعلن غلام

أحمد أنها إن لم تتحقق في العام التالي فإنه يكون مدّعيًا كاذبا، إلا أنّ عبد الله لم يستجب وبقي صامتا. ثمّ أعقب غلام أحمد هذا الطلب بإعلان جائزة مقدارها ألف روبية إن أدّى عبد الله القسم المذكور، ولكن مرة أخرى رفض عبد الله آتهم أن يُلزم نفسه بالقسم معللا رفضه هذه المرة بأنّ الحلف والقسم شيء ممنوع في المسيحية، وعندما رُدّ عليه أنّ كل مسيحي في الهند مَثَلَ أمام المحكمة أو استدعي للتوظيف في الدوائر الحكومية قد أدلى بقسم، أصرّ عبد الله على عدم فعل هذا وبقي صامتا. واستمر غلام أحمد في زيادة قيمة الجائزة تدريجيا حتى وصلت إلى أربعة آلاف روبية، وبدأ المسلمون في الهند يشعرون بالارتياح إزاء الموقف الانهزامي للمبشرين المسيحيين، فالمبشر الذي تبنى وجهات نظر مغايرة بخصوص ألوهية المسيح لم يكن ذاك البطل المقدام الثابت على عقيدته.

وبالطبع كانت المجريات الحاصلة كفيلة بإثارة سخط الدكتور مارتن الشديد، فهو من كان قد اقترح المناظرة ظنا منه أنها ستؤدي إلى انضمام الكثير من المسلمين إلى المسيحية، ومن جهة أخرى كان هناك غاضبون آخرون بقدر الدكتور مارتن؛ وهم الهندوس من طائفة الآريا سماج والمسلمون المعادون المعارضون لأحمد. ولأن جميعهم اتفقوا على معاداة أحمد فكان نتيجة تلاقيهم تدبير مؤامرة تُسكت أحمد إلى الأبد كما ظنوا. ومن الجدير ذكره هنا أنّ الدكتور مارتن كلارك كان المحرض على هذه المكيدة وكان اللاعب الرئيس فيها.

ولابد من الإشارة في هذا المقام إلى أنّ الجماعة الإسلامية الأحمدية تذكر هذه الحادثة في أدبياتها مع بيان التشابه بين المكيدة التي دبّرها الفرّيسيون والكتبة ضد المسيح الناصري- حيث أوغروا عليه بيلاطس البنطي ومُثُل للمحاكمة- وهذه المكيدة المدبرة ضد أحمد، إذ تآمر عليه معارضوه لدى قاضي تحقيق غورداسبور واتهموه بتدبير جريمة قتل. ولكنّ القاضي اقتنع لدى

مراجعته حيثيات الاتهام -الذي وجهه واتفق عليه كلّ معارضي أحمد من مسيحيين وهندوس ومسلمين - بأنّه ليس إلا اتهاما كيديا الغرض منه إسكات أحمد عن طريق زجّه في السجن.

وكانت تفاصيل الحادثة أنّ الدكتور مارتن كلارك تقدّم بتاريخ الأول من آب/أغسطس عام ١٨٩٧ بملف شكوى تضمنت اتهام أحمد بالتآمر لقتله وذلك أمام محكمة أمرتسار، ولدعم اتهامه الخطير أحضر شابا مسلما اسمه عبد الحميد ليُدلي بشهادته تحت القسم أنّ غلام أحمد قد حرضّه على الذهاب إلى أمرتسار لقتل مارتن كلارك. فأصدرت المحكمة قرارا فوريا باعتقال غلام أحمد وإلزامه بدفع مبلغ عشرين ألف روبية وإيداعها كضمان لدى المحكمة وكذلك بتدبير كفيلين يودع كل منهما المبلغ نفسه لدى المحكمة. انتشرت أنباء أمر الاعتقال بسرعة وسرّ بها الأعداء، وصار يتوافد على محطة قطار أمرتسار جموع من الناس الذين كانوا يرغبون في مشاهدة أحمد مقيّد اليدين في الأصفاد مُقتادا إلى المحكمة، إلا أنّ رغبتهم هذه باءت بالخيبة إذ إنّ قاضي التحقيق أدرك سريعا أنّه لا يملك السلطة القضائية لإصدار هذا الأمر، فقاديان لا تتبع قضائيا قطاع أمرتسار وبالتالي تمّ تــحويل ملف قضية مارتن كلارك إلى محكمة غورداسبور حيث تفتح المحكمة أبوابها للإجراءات القضائية بعد أسبوع أي سيتم تحويل الطلب هناك بتاريخ الثامن من آب/أغسطس. ثمّ سارت بعد ذلك كل الإجراءات بخطى حثيثة نتيجة مساعي الدكتور مارتن كلارك الدؤوبة، الذي طلب من قاضي التحقيق الشاب هناك الكابتن دوغلاس أن يصدر أمر اعتقال أحمد دون تأخير وأن تبدأ محاكمته على وجه السرعة.

بعد سنين لاحقة يتذكر الكابتن دوغلاس هذه الحادثة، بعد أن تدرج في المناصب القضائية الأعلى وتقاعد في النهاية، يقول الكابتن أنّه قد أخبر القس مارتن بأنّ هذا النوع من الاتهامات بالغ الخطورة ولابد من إحالته بداية إلى

الشرطة للتقصي ولبدء دورات التحقيق المطلوبة فالمحكمة يأتي اختصاصها بعد استكمال التحقيقات. ولكنّ الدكتور كلارك رد حينها بأنّه رجل مريض ويرغب في أخذ إجازة ويخشى أن يتم العبث بشهادته أثناء تغيبه ويريد أن يفرغ من هذه القضية بأسرع ما يكون. ويذكر الكابتن دوغلاس أنّه قد أخبره كذلك بأنّ طلبه مستحيل تحقيقه وأنّه لا يستطيع أن يحكم على أحمد بأي حكم ما لم يأخذ التحقيق مجراه وأنّه حتى تلك اللحظة لم يتوافر دليل إدانة دامغ. وبعد مناقشات عديدة بين القس والقاضي وافق القس مارتن كلارك، وعليه فقد أصدر قاضي تحقيق غورداسبور أمرا بالقبض على أحمد ليَمثل أمام المحكمة الواقعة في مدينة بطالا بتاريخ العاشر من آب/أغسطس حيث سيكون القس مارتن كلارك هو الشاهد الأول في هذه القضية وسيكون هناك مجموعة دعم من معارضي أحمد تتضمن محمد حسين البطالوي.

رسميا، غاب الهندوس عن مشهد الاتهام، غير أن المحامي الهندوسي المعروف وهو البانديت رام باج دوت تطوّع ليكون المستشار القانوني لهذه القضية حيث قدم مساعدته للادّعاء. وهكذا يمكن القول إنّ طائفة الآرياسماج الهندوسية قد لحقت بالركب من خلال حضور قانوني قوي. اجتمع في هذه القضية ثلاثة من ألدّ أعداء غلام أحمد؛ ألا وهم القس الدكتور مارتن كلارك ممثلا عن المسيحية، ومحمد حسين البطالوي ممثلا عن رجال الدين المسلمين، وأخيرا المحامي دوت ممثلا عن الآرياسماج الهندوس. حتى إنّ الدكتور مارتن أجاب بخصوص سؤال وُجّه إليه في المحكمة حول المبلغ الذي دفعه للمحامي البانديت دوت بما معناه أنّ جميعنا – يقصد المدّعين في هذه القضية– نقوم بعمل تعاضدي متفق عليه ضد شخص نعتبره عدونا المشترك.

إنّ الإجابة الآنفة التي أوردها الدكتور مارتن، فضلا عن السرعة التي استطاع بها حشد الشهود الكثر من مناطق مختلفة من البلاد تتناقض والإقرار

الذي قدّمه في المحكمة بأنّه لم يتمكن حتى الواحد والثلاثين من تموز/ يوليو من تقديم شكوى أو توجيه اتّهام ضد أحمد بمحاولة قتله. استغرق الادّعاء ثلاثة أيام حتى يرسي أسس الدعوة، وكان القاتل المأجور المزعوم أي عبد الحميد البالغ من العمر سبعة عشر عاما، شابا طويل القامة نحيل الأطراف، فاجأ الذين حضروا المحكمة بكسله وقلة حيلته. في الواقع كان شخصا متطفلا مستعدا ليلتقط الطعام أو الملبس أو حتى يتطفل ليبيت كلما سنحت الفرصة وكلما نأى به ذلك عن الحاجة إلى العمل. لم يكن بالتالي شخصا متعصبا مسيحيا كما علّق القس المسيحي الأميركي الدكتور غراي. أما فبما يتعلق بكلامه عن المسيحية فقد عدّه الدكتور غراي دجالا. ادّعى عبد الحميد في مواقف مختلفة أنّه مسلم تارة وتارة أخرى نسب نفسه إلى الهندوسية. ووفقا للقس غراي، فإنّ عبد الحميد ترك أمرتسار فور وصول غراي إليها ذلك أنّ القس الأميركي لم يوفر له المأكل والملبس والمأوى الذي كان يتأمله عبد الحميد الذي سرعان ما قصد الإرسالية التي يديرها مارتن كلارك وأعوانه.

من الجدير ذكره أنّ عبد الحميد مكث في قاديان أربعة عشر يوما في دار الضيافة عند الجماعة الأحمدية ولكنّ سوء خلقه ودناءة طباعه دفعت أحمد إلى إبعاده عن دار ضيافته. فهل من أرسله بادئ الأمر إلى قاديان هو الدكتور كلارك ومعاونوه بنية التخريب على أحمد؟ هل حاد عبد الحميد عن الخطة المرسومة التي تطلب من عبد الحميد التوجه إلى إرسالية الدكتور مارتن بالنية المزعومة لقتله- كما ادّعى الدكتور كلارك أن غلام أحمد عزم ونوى؟ أم أنّه حين وصل عبد الحميد إلى الدكتور مارتن كلارك وعرف منه أين قضى الأربعة عشر يوما السابقة على وصوله وجد فيها الدكتور مارتن الفرصة السانحة للقضاء على غلام أحمد؟

مما لا شكّ فيه أنّ الدكتور مارتن أمل أن تعرض القضية في أمرتسار ليس فقط بسبب كونه معروفا وواسع النفوذ فيها بل كذلك لأنّ له أصدقاء في السلك القضائي التابع لها. ويمكن أن يستدل بسهولة من خلال السرعة التي صدر بها الأمر بالقبض على أحمد على قوة علاقات الدكتور مارتن بالقضاء في أمرتسار، أما بعد أن حصل ما حصل بما يتعلق باختصاص المحكمة وما إليه، وآل أمر القضية إلى مدينة بطالا، صار القس مارتن قلقا بخصوص مجرياتها والسرعة التي سيستدعى بها الشهود إليها.

أما الكابتن دوغلاس، فقد كان حينها صغير السن قليل الخبرة نسبيا؛ إذ قبل من جهة عرض المحامي الهندوسي بالمساعدة، ومن جهة أخرى ودون تمحيص، حينما أفاد عبد الحميد أنّ حياته كانت في خطر، وعرض الدكتور مارتن تقديم الرعاية والحماية له، وافق القاضي دوغلاس. إلا أنّ حداثة السن والخبرة لم تمنعه وبعد انقضاء اليوم الثالث من جلسات القضية من إدراك حقيقة أنّ شيئا ما ينقص دليل إدانة غلام أحمد المطروح أمامه، حتى أنّه وأثناء انتظاره القطار على رصيف المحطة صرّح بشكوكه لكاتب المحكمة الأكثر خبرة ودراية بما كان يُتناقل من شائعات حول القضية، واقترح عليه الكاتب أن يستجوب عبد الحميد على انفراد بعيدا عن الدكتور مارتن. يقول الكابتن دوغلاس في ذكرياته عن هذه القضية بعد سنين لاحقة، ما معناه: لقد اعتقدت في نفسي أنّ قصة عبد الحميد لم تكن ممكنة ووجدت الكثير من التناقضات بين روايته في أمرتسار وما أدلى به أمامي وسجلته بنفسي. كما لم يعجبني مسلكه أثناء تقديم إفادته. وبالإضافة إلى ذلك بدأت ألاحظ أنّه مع طول مكثه تحت رعاية الإرسالية في بطالا صارت دلائل شهادته وافرة المعلومات وزاخرة بالتفاصيل بينما لم أفهم الكثير من شهادته الأولية أمام قاضي تحقيق المقاطعة بعد اطّلاعي عليها والتي تختلف كثيرا عمّا أدلى به أمامي في اليوم التالي من تفاصيل كثيرة. لذا فالاستنتاج المنطقي – والكلام

للكابتن دوغلاس- أنّ عبد الحميد قد لُقّن ليلة بعد أخرى ما الذي ينبغي أن يُدلي به في المـــحكمة. وعليه فقد قرر الكابتن دوغلاس أن يصدر أمرا يوكل تنفيذه للشرطة ويقضي بإبعاد عبد الحميد من رعاية الدكتور كلارك وإرساليته وأن يستجوب منفردا.

كان السيد (ليمار تشاند) كبير مفتشي الشرطة ومفتش آخر هُما من قاما بإحضار عبد الحميد أمام الكابتن دوغلاس.

تمسك عبد الحميد بشهادته بشدة؛ أي أنّ أحمد أمره بقتل كلارك وأنّه وافق على فعل ذلك. فصرّح المفتش عندها بأنّه ما من فائدة من إبعاده عن القس كلارك فالغلام – أي عبد الحميد- متمسك بكلامه ولذا فمن الأجدر إعادته. ووافق كبير المفتشين ليمار تشاند إلا أنّه اشترط قبل إعادة عبد الحميد أن يتمّ تدوين وتسجيل نتيجة الاستجواب إذ لا بدّ من توافر السجل المكتوب لأقواله، وفور بدء المفتش هذا الإجراء وبعد أن تم تسجيل صفحتين من الأسئلة والأجوبة التي كانت توافق مع ما تمّ الإدلاء به سابقا، إذ بعبد الحميد ينفجر في نوبة من البكاء ويرمي بنفسه على قدمي السيد ليمار تشاند. لقد أقرّ الفتى أنّه كذب سابقا في كل تصريحاته وأنّ كل شيء كان كذبا ملفقا، وأنّه لم تكن هناك أي خطة أو نية من قبل أحمد وجماعته لقتل القس مارتن كلارك، وأنّ القصة كانت من إخراج القساوسة، وأنّ القساوسة دأبوا على تلقينه وتحفيظه الإفادة التي أدلى بها على مدى عدة أيام حتى حفظها وأتقنها، حتى إنّهم كانوا يضطرون إلى تغيير بعض الكلمات من شهادته الأولى حتى لا يكون بها ثغرة وحتى تصبح دليل إدانة دامغ. و ذكر عبد الحميد أنّه لما فرغ من حفظ الإفادة أو الشهادة فإنّ أحد القساوسة شكره قائلا: شكرا، لقد تمّت مهمتنا.

يُذكر كذلك أنّه وأثناء مجريات القضية ومن ضمن ما وُجّه إلى عبد الحميد من أسئلة، قال له أحد المحامين: أنت لست بطائر حتى تختفي مباشرة من

ساحة الجريمة، فكيف كنت تنوي الإفلات بعد قتل الدكتور مارتن كلارك؟ ولأنّ هذا خارج ما لُقّنه عبد الحميد، فقد أخذ القساوسة الموجودون الذين كانوا يدربّونه ملاحظاتهم ودوّنوا هذا السؤال حتى إذا ما أُثير هذا التساؤل المنطقي مرة أخرى تكون الإجابة حاضرة- وكانت الإجابة التي لقّنوها هي أنّ الخطة كانت تقضي أن يحضر رجلٌ معه تكون مهمته تهريبه إلى قاديان، حيث سيكون بمأمن هناك. وحتى لا ينسى عبد الحميد هذه الإجابة المهمة فقد كتبها أحد القساوسة على باطن كف عبد الحميد! وكأنّ كل ما اعترف به عبد الحميد لم يكن كافيا لتبيان الفساد الذي غلّف القضية من لحظة تقديم الاتهام، إلى الدليل، إلى الطريقة، التي وجّه بها أمر إلقاء القبض على أحمد، إلى دروس تلقين الإفادة التي قام بها القساوسة. وأضاف عبد الحميد أنّ الإفادة التي كتبت على باطن كفه كانت بقلم مستشار القس كلارك.

يقول الكابتن دوغلاس في ذكرياته عن هذه القضية الغريبة، بأنّ أول ما أثار شكوكه هو الطريقة التي أدلى بها عبد الحميد بإفادته فلقد كان حديثه متدفقا غير متقطع وغنيا بالتفاصيل التي تدين أحمد، على عكس إفادات الشهادة الصادقة الأخرى التي يحتاج الشاهد فيها إلى التوقف والتذكر، فتكون جمله مبعثرة بعض الشيء. وعندما صرّح عبد الحميد بأنّه ذهب أولا إلى الإرسالية الأميركية، على الرغم من أنّه كان قد جاء أولا إلى أمرتسار على وجه السرعة لاغتيال القس مارتن، قاطعه الكابتن دوغلاس قائلا بأنّ هذا يكفي، لأنّه وعلى حدّ قول الكابتن دوغلاس: "هذه الإجابة أعطتني الذريعة أن أقرر في نفسي أنّه لم تكن هناك نية لقتل الدكتور مارتن وعليه فقد أخليت سبيل أحمد فورا". حتى إنّه وقبل انعقاد المحكمة أعلم الكابتن دوغلاس أحمد بأنّه إن كان يرغب في مقاضاة الدكتور القس مارتن كلارك بتهمة الاتهام الكيدي فإنّ المحكمة تعطيه إذن المغادرة لاستكمال تلك الاجراءات. كان ردّ غلام أحمد بأنّه لا ينوي أن يقاضي القس مارتن كلارك

أمام محكمة أرضية، لقد قدّم شكواه أمام أعلى هيئة قضائية؛ أمام الحاكم العادل سبحانه وتعالى. وأمام محكمة السماء كان الدكتور القس مارتن كلارك مسئولا عن كل ما فعل، ومات في السادس عشر من أيّار/ مايو ١٩٠٠.

تخلل هذه المحاكمة القاتمة لحظات قليلة من الفكاهة من جهة ومن العزة والشرف من جهة أخرى، فالجمهور الذي كان يحتشد أمام المحكمة يوميا ليطّلع على مجريات الأمور سنحت له فرصة معرفتها عن طريق الاستماع إلى بعض أولئك المحظوظين القليلين الذين سُمح لهم بالدخول إلى قاعة المحكمة، وكانوا من كلا الفريقين. يجدر بالذكر أنّه حتى المسلمين الذين كانوا معارضين لغلام أحمد من حيث العقيدة قد اشتموا رائحة المؤامرة الواضحة. من جهة أخرى كان المولوي محمد حسين البطالوي – ألدّ أعداء أحمد – واحدا من شهود الادّعاء الخمسة وكان في بداية المحاكمة يجلس على مقعد خاص على شرفة قاعة المحكمة ثمّ طُلب منه المغادرة بناء على أمر قضائي بشكل غير مشرِّف، وعلى أثر ذلك قدّم أحد الحاضرين شاله لمحمد حسين والمعروف أنّ الشال هو قطعة من القماش تستخدم للحماية من الشمس أو المطر لحماية الرأس والكتفين أو للجلوس عليها في بعض الأحيان، وظنّ الشخص الذي قدّم شاله أنّه يسدي له معروفا إذ يمكن أن يجلس على الشادر على الأرض إن شاء، وأضاف أنّه قدّم هذا لمحمد حسين عندما تصوّر أنّه قد جاء يقدم شهادة تعضّد موقف غلام أحمد، ولـمّا علم أنّه من شهود الادّعاء الخمسة أجبر محمد حسين على الوقوف وإعادة الشال له!

الطريف في الأمر أنّه لما نُودي على محمد حسين ليدخل القاعة ويدلي بأقواله صار يزمجر غاضبا لما رأى أحمد جالسا على مقعد في حين لم يحظ هو بواحد! من المعروف أنّ أحمد كان واحدا من زعامات البنجاب المحترمين فكان من الطبيعي أن يحظى بمقعد، إلا أنّ محمد حسين لم يكتف بإبداء

الامتعاض بل أشار إلى أنّه هو نفسه (كرسي ناشن) *أي ممن يعطون الكرسي* كما كان والده، وأن هذا لقب فخري يمنح صاحبه مقعدا في أي مكان حكومي يحضره، ولكنّ الكابتن دوغلاس لا يعرف أي شيء عن هذا الأمر وبالتالي تعامل مع الأمر بجفاف وحدة، ولما طلب الدكتور القس مارتن كلارك من الكابتن دوغلاس توفير مقعد لمحمد حسين رفض الكابتن بحدة وقال ما معناه: "التزِم الهدوء، لم يقدَّمْ أي مقعد لأبيك من قبل كما لم يقدم أي مقعد لك". ولما أدّى هذا الكلام إلى المزيد من امتعاض محمد حسين ووقف بتمايل أمام الكابتن دوغلاس ما كان من الأخير إلا أن طلب منه بهدوء وحياد: "قف مستقيما أثناء إدلائك بشهادتك أمام المحكمة". وفي الواقع لم تكن شهادته ذات قيمة كبرى، لم يكن قادرا على أن ينطق بشيء خلاف التعبير عن كراهيته الشديدة لأحمد، فصرفه الكابتن دوغلاس وسجّل المقطع التالي في سجلات المحكمة: لقد عاينت من الشاهد ما يكفي ليقوم دليلا على عدائه الشديد لمرزا صاحب (غلام أحمد) وليس من الضروري أن نحيد عن مسار القضية الأصلي. كما كتب أحمد بهذا الخصوص بأنّ محمد حسين البطالوي حينما قدم إلى المحكمة كان يعتقد أنّ التهمة الموجهة ضدّ غلام أحمد هي التآمر لقتل القس مارتن كلارك وكان يرجو أن يراني مقيدا في الأصفاد غير أنّ ما حصل هو أنّه أُهين على الملأ. وأضاف ما معناه: لقد شعرت بالشفقة على المولوي محمد حسين في تلك اللحظة حيث اعتراه شحوب الموت مما لحق به من الإهانة التي ارتجفت لها أعضاء جسده من قدميه إلى رأسه، عندها تلقيت الوحي: *"إنّي مهين من أراد إهانتك"*. إنها كلمات مباركة من الله العزيز سيبارك الله من يحفظها ويعيها في قلبه.

لم يكن قرار البراءة مفاجأة لأحمد ولأتباعه، فالسيد (شير علي) الذي كان واحدا من أتباع أحمد الثلاثمئة وثلاثة عشر الأوائل كان معه في تموز/يوليو في تلك السنة قبيل تقدم القس مارتن كلارك بشكواه. كان السيد شير علي

شخصا متعلما خريج جامعة. ويورد شير علي أنّ أحمد كان عندما يتلقى أي وحي يقوم بالدعاء والصلاة قبل أن يبلغ حوارييه، باستثناء يوم من أيام تموز/ يوليو في ذلك العام حين كان أتباعه مجموعين عنده صباح ذلك اليوم وكان يقرأ لهم ما كان قد دوّنه من دفتر ملاحظاته حيث كان قد سجّل فيه ما جرى معه تلك الليلة من مشاهدات روحانية وأنّه كان قد شاهد نورا يأتي من قِبَل المغرب إلى بيته وكلّما كان النور يقترب كان يراه متشكلا في نجم حتى أُلقي في روعه وحي معناه: هذا تهديد من السلطات ولكن الله سيبرئك وينصرك. وعرف أحمد عندها أنّ أمرا قانونيا سيثار ضده عمّا قريب غير أنّه سيمر بسلام. حتى إنّ أحمد كان قد أخبرهم بتفاصيل تتعلّق بالادّعاءات التي ستلفق ضدّه.

في الحقيقة كانت دماثة أخلاق أحمد خلال المحاكمة قد حازت إعجاب الناس وتقديرهم، أولئك الذين لم يكونوا من أتباعه. ومن أمثلة هذا المسلك المتميز ما حصل مع محاميه نفسه، فمحاميه قد أراد أن يضعف الادّعاء عن طريق الإساءة إلى شخص المدّعي وكان لا بد طبعا أن يعود إلى موكله غلام أحمد قبل أن يقوم بهذا العمل، فالمحامي أراد قبل شهادة محمد حسين البطالوي أن يشير إلى أمه وإلى منبته حيث كانت أمّه مومسا. إلا أنّ غلام أحمد رفض الأمر بتاتا وقال ما معناه إنّ الله لا يحب الفحش في القول. وتجدر الإشارة إلى أنّ محاميه لم يكن أحمديا، إلا أنّه ظلّ يذكر هذا الأمر سنين لاحقة: أنا كنت أحاول أن أبعد عنه تهمة التآمر والتحريض على القتل وهو يراعي أن لا يجلب العار والإساءة على من يشهدون ضدّه.

إنّ هذه المحاكمة التي كان الغرض منها القضاء على أحمد والإساءة إليه جاءت بنتائج عكسية، فأحمد الذي لم يحد عن قول الحق قيد شعرة طيلة مجريات المحاكمة هل يمكن أن يكذب على الله تعالى عندما يقول إنّه قد تلقى

وحيا من لدنه؟ لقد زاد بعد هذه المحاكمة عدد الناس الذين يفدون إلى قاديان للاستماع إليه وزادت مكانته كثيرا عند الناس.

ولم يترتب على هذه المحاكمة أي ضرر على مسيرة الكابتن دوغلاس الوظيفية؛ فقد انتهى به الأمر كعقيد وككبير المفوضين في إحدى ولايات الهند يحمل الكثير من الأوسمة كوسام نجمة الهند ووسام قائد الإمبراطورية الهندية. لم يكن لدى الكابتن دوغلاس أيّ شكوك في صحة حكمه وفي أنّ العدالة قد أخذت مجراها. يقول الكابتن دوغلاس بعد تقاعده: "فور بدء جلسات المحاكمة وفور جلوس أحمد على كرسي الشهادة ونظري إلى وجهه أدركت أنّ هناك خطأ ما يشوب الاتهام الموجّه إليه، لقد أدركت أن وجه هذا الشخص لا يمكن أن يكون وجه كاذب وأنّه يستحيل أن يكون قد اقترف ما نسب إليه، لقد كان دائما مبتسما هادئ القسَمَات".

أمّا بالنسبة للمولوي محمد حسين البطالوي فإنّ عداوته لغلام أحمد استمرت على ما هي عليه ولكنّ صوته خفت وضعفت شوكته كثيرا وخبا صيته حتى إنّه صار مضطرا لكسب عيشه بامتهان التدريس بدخل قليل جدا في مناطق فقيرة، فيما التحق أولاده بعد فقره بمدارس الجماعة الإسلامية الأحمدية في قاديان.

وأمّا عبد الحميد الذي لم يكن سوى دمية تحركها يد القساوسة في هذه المؤامرة فقد تمّت ملاحقته قانونيا بتهمة شهادة الزور والتآمر. لم تتمكن السلطات من العثور عليه في بادئ الأمر ولكن تمّ القبض عليه في النهاية وحُكم عليه بعقوبة صارمة هي السجن مدة تسعة أشهر منها أربعة وأربعين يوما في الحبس الانفرادي.

الفصل الثالث والعشرون

الأسقف يتراجع

مرة أخرى وُجِّهت التعليمات إلى الإرساليات التبشيرية المسيحية بعدم التورط مجددًا في نقاشات أو مناظرات علنية مع أحمد، فلقد ذاع صيته ومعرفته واطلاعه الديني العميق والواسع على مختلف الديانات والعقائد، وبعد لقاءات ومساجلات، فإنّ أحد القسس الأوروبيين المعروف بتعصبه الشديد لمسيحيته، وإيمانه الكامل بتفوقها، لم يجد بُدّا من الإقرار والاعتراف بهذه المعرفة والعلم لديه - وسيتمّ التطرق إلى قصته مع غلام أحمد في هذا الفصل- بل حتى إنّه في أوساط المبشرين المسيحيين ذاع عن أحمد قدرته على الاقتباس من نصوص الإنجيل بالسهولة نفسها التي يستطيع بها الاقتباس من الآيات القرآنية.

إنّ أوضح مثال على الإيمان الكامل بتفوق المسيحية على كل الأديان هو نيافة الأسقف جورج ليفروي مطران مقاطعة لاهور، الذي أشرنا إليه في مقدمة الفصل والذي قدّم سلسة من المحاضرات الدينية للعامّة في تلك المنطقة، كان الأسقف ليفروي واسع الاطلاع والمعرفة وكان يتقن اللغات العربية والعبرية والفارسية والأردية ببراعة، ولكنّه كان يكنّ مشاعر الازدراء تجاه الدين الإسلامي ونبي الإسلام، و لم يكن قد سمع بغلام أحمد بعد.

قبل بضعة سنين في لندن، في اجتماع لجمعية (إشاعة الإنجيل)، تجرّأ واحد من المتحدثين، وكان رئيس الأساقفة، على معارضة الأسقف ليفروي الذي تناول الإسلام بصورة سلبية في حديثه، وقال رئيس الأساقفة بأنّ الإسلام ليس بتلك السلبية: "فلا يستطيع أحدٌ زار واحدا من المساجد الإسلامية أن ينكر ما يجده من السكينة والوقار والاستغراق الكامل في العبادة والهيبة التي

تعمّ الـــمُصلّين"، إلا أنّ ليفروي ردّ بصراحة أنّه لا يتفق ووجهة نظر رئيس الأساقفة.

وبعد سنة من هذه الواقعة وفي لاهور، قام الأسقف بإلقاء سلسلة محاضرات دينية في مناطق متفرقة في أرجاء المقاطعة بحثت بشكل رئيس موضوع "النبي الطاهر"، وكما يشير عنوان هذه السلسلة فإنّ الأسقف لا يبدو أنّه قد غيّر وجهة نظره تجاه الإسلام خلال الاثني عشر شهرا المنصرمة. فالأسقف يُعلن دائما أنّ يسوع وحده من بين جميع الأنبياء من يستحق أنّ يُطلق عليه النبي الطاهر، وكثيرا ما كان الأسقف يُقارن بين يسوع وبين أنبياء الديانات الأخرى لصالح يسوع بالطبع وخاصة نبي الإسلام. حدث مرة في إحدى هذه المحاضرات أنّ الأسقف ليفروي وهو يختم محاضرته سأل الحاضرين إذا كان لدى أحدهم أي إضافة أو سؤال يودّ أن يقوله، وبالفعل وقف شخص وقال مقتبسا من الكتاب المقدس: "**لِمَاذَا تَدْعُونِي صَالِحًا؟ لَيْسَ أَحَدٌ صَالِحًا إِلاَّ وَاحِدٌ وَهُوَ اللهُ.**" [إِنْجِيلُ مَتَّى ١٩ : ١٧]. ردّ الأسقف الردّ المناسب واختُتِم اللقاء برد الأسقف.

سكت مسلمو الهند عن الأسقف، وتركوه غير مبالين مدة سنة كاملة وهو يهين دينهم في محاضراته، ولكن هذا السكوت كان نوعا من الصبر إلى أن نالوا كفايتهم منه وبدأوا يعدون عدة الردّ. من جهة أخرى، سمع أحمد بالأسقف وكالعادة عندما يقع أي هجوم على شخص النبي يقرر الرد. قال غلام أحمد مشيرا إلى محاضرات الأسقف ليفروي إلى أنّ مفهوم الخطيئة يختلف باختلاف الأديان، فالمقارنة بين الأنبياء وفق معايير أديان تخالف ديانتهم وشريعتهم ليست ذات قيمة حقيقية، فعلى سبيل المثال يعدّ شرب الخمر كبيرة في دين ما ولكن دينا آخر يعدّ شرب الخمور عملا ذا قيمة دينية، ومثلا تعدّ بعض الأديان أنّ النظر إلى المرأة الأجنبية بشهوة فِعلَ زنا فيما هناك أديان أخرى تعدّ الممارسة الجنسية نفسها أمرا اجتماعيا اعتياديا بل

أحيانا لضرورة دينية. قتل حشرة أو دودة هو خطيئة عند دين ما، بينما ذبح الخراف والأبقار للغذاء لا يختلف عن أكل النباتات. ويضيف غلام أحمد أنّ فكرة طهارة يسوع بمعنى أنّه لم يرتكب أي خطيئة دائما ما يطرحها المبشرون المسيحيون بُغية التمهيد لمسألة ألوهيته، بينما في الإسلام إنّ الخطيئة الكبرى هي عبادة الأصنام وأن يُشرك مع عبادة الله تعالى أي إنسان أو أي شيء آخر. وبالإضافة إلى ذلك – كما يوضح المفهوم الإسلامي- إنّ عدم ارتكاب الخطيئة ليس هو الفضيلة، فاجتناب الشرور ليس الإنجاز المحمود، إنّما الفضيلة الحقيقية هي القيام بالأعمال الصالحة، وعليه فإنّ الأمر الذي يستحق المناقشة هو "النبي الكامل".

بعد عدة شهور من حادثة المحاضرة تلك، جمع المسلمون من كل إقليم البنجاب تواقيعهم على رسالة أسقف لاهور ووزعوا نسخا من هذا الخطاب على جميع الصحف الصادرة آنذاك. كانت الرسالة مكتوبة باللغة الإنجليزية وكانت لغتها بليغة وتراكيبها اللفظية شديدة الأناقة عكست جلال الروح الأدبية الشرقية، كان نصها ما تعريبه: "إنّ حياتنا الدنيوية في هذا العالم المادي الفاني قصيرة سريعة تمرّ كسحابة صيف وسيأتي يوم النهاية وننتقل إلى العالم الآخر الأبدي، لذا فإنّ همّنا وشاغلنا الأكبر هو أن نختم هذه الرحلة على درب التقوى والصلاح ونصل إلى نعيم الآخرة وأن تكون آخر أنفاس نلفظها في هذا العالم في سبيل الحق قبل الالتحاق بالرفيق الأعلى. إنّنا إن لم نكن سائرين على الطريق المستقيم أو أدركنا هذا فإننا جاهزون بقلوبنا وأرواحنا وعقولنا لقبول الحقيقة التي غابت عنا شريطة أن تبين لنا بالحجج الدامغة المقنعة.

فإذا كان هناك من يستجمع شجاعته ويستطيع التقدم ويعلن على الملأ ويبين صدق المعتقد المسيحي وصوابه وإن لم يفعل فهو يضع نفسه تحت إثم كبير.

إنّ قلوبنا تفيض بالرغبة والشوق إلى مقارنة جادة تتناول محاسن وكمالات المسيحية والإسلام، وإننا نظنّ كلّ الظن أنّ من بين جميع المسيحيين في هذه البلاد ليس هناك من يباري نيافة الأسقف ليفروي في عرض العقائد المسيحية، ولسنا نرى هذا الأمر من فراغ بل ممّا اطلعنا عليه من علومكم الدينية الواسعة وإتقانكم للغات العربية والفارسية والأردية وما لمسناه من دماثة أخلاقكم وطباعكم الودودة." هذا كان تعريب الخطاب الذي وجهه جمع من وجهاء المسلمين وعامتهم إلى الأسقف، وعلى الرغم من الألفاظ الودية التي في الرسالة إلا أنها في مضمونها تدعو الأسقف إلى مناظرة مع أحمد لبحث مواضيعَ خمسة في كلا الديانتين.

لفتت هذه الدعوة نظر الصحف في طول البلاد وعرضها وشغلت الرأي العام كذلك، وقد كتبت صحف هامة بخصوصها من ضمنها الصحيفة الإنجليزية The Pioneer الصادرة في مدينة (الله أباد) ما معناه: حمل الخطاب عددا كبيرا من التواقيع التي يكفي قراءة الأسماء الأولى منها فقط ليتبين الاهتمام الكبير والواسع من قبل المجتمع المحمدي وحجم التوقعات التي علقها على هذه المباحثة.

أما صحيفة Indian Daily Telegraph فقد استخدمت لغة أكثر حماسًا حيث ورد فيها: "ننشر في هذا العدد على صفحة أخرى واحدا من أكثر التحديات الدينية إثارة وهو مقدم من قبل المدرسة الدينية الإسلامية في هذه البلاد.

... إنّ الخطاب المشار إليه هو تحدّ في جوهره على الرغم من استخدامه تعابير سلمية مهذبة ورصينة ولكنّه يعكس رغبة صادقة حريصة على أن يحصل حوار بين الطرفين يتبنى معايير عادلة تتيح أن يعرض كلاهما مزايا ومحاسن كل من الديانتين أي المسيحية والإسلام. لقد طلب هذا التحدي عدد غفير من المسلمين الذين لم يقتصروا على منطقة واحدة بل جاؤوا من

كل أرجاء الهند مستحلفين الأسقف ليفروي باسم المسيح الذي يمجده أن يستجيب ويوافق على هذا الحوار.

... إنّنا نرى أنّ على الأسقف أن يحسن صنعا وأن يقبل التحدي، فادّعاء التفوق دون القدرة على البروز في ميدان الحوار والحجج سيكون غلطة فادحة ويحق لطالبي التحدي عندها الاستنتاج أنّ القضية التي طُلب بحثها قد حُسمت لصالحهم لأنها تُركت دون دفاع.

... إنّ حقيقة رغبة المسلمين في وضع مسيحهم — أي أحمد – في مواجهة الأسقف هي أكبر اعتراف من قبلهم بتعاليمه وبهذا عدّوه أكبر مرجعية دينية في الهند.

... إنّنا نودّ أن يقبل نيافة الأسقف التحدي لأننا نرى فيه جانبا كبيرا من الأهمية."

غير أن الأسقف جورج لم يكن القديس جورج ولم يغامر بترك قلعته الأسقفية لقتال أي تنين[١٢]، لقد رد الأسقف: أنا أمتنع عن مقابلة أحمد لأنّ هذا النقاش الذي تقترحونه سيعني علاقة ودّية.

علّق الأسقف جورج كذلك في معرض رفضه المحادثة بأنّ اتخاذ أحمد لقب المسيح المنتظر الذي يبدي له المسيحيون كل تقديس "**إهانة بالغة وازدراء كبير ليسوع المسيح الذي أعبده وأعدّه إلهي وسيدي. فكيف يَرِد عندي إمكانية الموافقة على الالتقاء به وديا؟**" لقد جاء رفض الأسقف إجراء المباحثة في خطاب طويل انتقيت عباراته بشكل أدبي يحاكي خطاب الدعوة

---

[12] إشارة إلى أسطورة القديس جورج أو مار جرجس، الذي ولد بمدينة اللد في فلسطين، وكان ضابطا مسيحيا في الجيش الروماني وعرف بشجاعته، وقُتل بعد تعرضه للتعذيب الشديد بأمر من الأمبراطور الروماني بسبب مجاهرته بالمسيحية. وتنسب الأسطورة له أنه في مرة قتل تنينا كان مسيطرا على نبع ماء، مما أدى إلى اعتناق أهل البلدة المسيحية. (المترجمة)

للمحادثة، وقد أورد فيه فضلا عن امتناعه مقابلة أحمد بأنّه لا يعتقد أنّ غلبة دين على آخر مسألة تحلّ في المناظرات الفكرية ولكنّ نيافته على استعداد للاطلاع ودراسة الكتابات التي تقدم فهما أوضح عن المذاهب الفكرية الإسلامية. ولكنّ المراقب يعرف أنّ هذا يختلف تماما عن المشاركة في محادثة حوارية عامة يبنى على ما يُعرض فيها قبولُ أو رفضُ عقيدةٍ تُعرض مزاياها على يد المتحدث باسمها. كما ادّعى نيافة الأسقف أنّ وقته لا يسمح بالمشاركة في المناظرات العامة وذلك لانشغاله في الأعمال والواجبات الإدارية الأسقفية.

للأسف ناقض الأسقف نفسه في هذا الردّ، فهو من بادر بالمناظرات العلنية ومن حرّك الرأي العام وبدأ بعقد المقارنات وأخذ يدعو المسلمين في محاضراته العامة إلى مناقشة ملاحظاته وتعليقاته، ولقد أشار المسلمون الذين وقعوا على طلب المحادثة إلى هذا الأمر في ردّهم على رفضه:

لقد بادرتم في دعوة المسلمين إلى إثبات طهارة حياة نبيهم مقارنة بحياة يسوع المسيح، فكانت دعوتكم هذه حضا للمسلمين على الطلب من نيافتكم التقدم إلى ميدان الحوار حيث يمكن تقديم محاسن الديانتين والوقوف على صدق مؤسسيهما بشكل عادل. وحتى نَفِي منصبكم الرفيع ومواهبكم قدْرها فلقد رشحنا نظيرا لكم في الحوار لايقل مقاما... وقد أملنا من وراء اجتماع بطلين من ديانتين عظيمتين على مستوى العالم أجمع أن لا يُترك عامة الناس في الظلمات وأن تتم الإجابة عن تساؤلات شغلت بال الكثيرين في كل العصور. كما تساءل طالبو النقاش لماذا اعتبر الأسقف المناظرة نهاية لعلاقات الود وبداية لمشاعر الكراهية، أوَلم يبشر الإنجيل بمذهب المحبة حتى مع الأعداء؟ وبالطبع وكما هو معلوم إنّ من واجب كل المسيحيين وعلى وجه الخصوص من يشغلون مناصب كنسية أن يبشروا غير المسيحيين.

وعطفا على ما سلف من رفض الأسقف اللقاء مع مرزا المحترم، بّين المسلمون أنّ أحمد لم يدّعِ أنّه يسوع المسيح بشخصه وإنما هو مثيل ذلك النبي في الروح والشخصية، بل إنّ أحمد شأنه كجميع المسلمين يحترم المسيح كنبي صادق كريم خلافا للملايين من غير المسلمين الذين لا يعترفون بنبوة المسيح -وكان هذا بلا أدنى شك أكبر إهانة لقدْر المسيح.

وبالإضافة إلى ذلك اقترح كاتبو الرسالة على الأسقف أن يلتقي بهؤلاء الناس الذين لا يعترفون بالمسيح وتساءلوا عما إذا كان يكن لهم مشاعر الكراهية كتلك التي عبر عنها تجاه غلام أحمد. فهل نيافة الأسقف منشغل لتلك الدرجة التي لا يستطيع فيها تخصيص خمسة أيام —كما هي المدة المقترحة للمحادثة- من وقته لما كان متوقعا أن يكون أهم حوار في ذلك الوقت؟ وأعاد الطالبين تذكير الأسقف بأن نيافته هو من بادر بالدعوة إلى الحوار والمناقشة.

بالتأكيد لم يكن تساؤل كاتبي الرسالة عصيًّا على الإجابة؛ لقد كان الهدف مواجهة الأسقف بأنّ الحجة التي طرحها ألا وهي المشاغل الأسقفية الإدارية تبدو غير مقنعة.

ثم قدّم المسلمون الموقعون على الرسالة للأسقف ردَ أحمد على قول الأسقف بأن نيافته لا يستطيع مقابلة أحمد ودّيا، إذ كان رد المرزا: "إنني لا أناصب العداء لأي أحد في هذا العالم، أنا لا أبغض الناس ولكن أبغض العقائد الزائفة الخاطئة التي يؤمنون بها. وأما فيما يتعلق بالأفراد فإنّ مشاعري تجاههم هي مشاعر العطف ورجاء الخير لهم، فكيف أعتبر أحدا عدوي؟ خاصة وأنه يشغل مكانا مرموقا بين أتباع دينه ويحتل مكانا عاليا نظرا لمكانته وعلمه؟ إنني أحبه مع أني لا أحب معتقداته.

... أنا لا أمانع مقابلة نيافة الأسقف مطلقا في اجتماع ودي لأنه من الممكن أن يستفيد كل فريق من ثمرات ذلك الاجتماع، فبذور الإخلاص

لابد وأن تحمل ثمارا طيبة. إنّ من أوْلَى واجبات الإنسان المصلح أو الواعظ أن يستقبل أولئك الذين يختلفون عنه في العقيدة ويؤمنون بأفكار مغايرة لما هو عليه بكل بِشْر وترحاب.

لايستطيع أحدٌ أن يُحسن إلى من يعدّه عدوا له، وأنا أقول بكل صدق أنّه إذا ما أُتيحت لي الفرصة وكان بمقدوري على السواء أن أسبب الخير أو الشر لنيافة الأسقف فإنّني سأختار أن أتوجه إليه بالخير بما قد يُذهل العالم. إنّ القدرة على دعوة الناس إلى الصراط المستقيم والحماس والرغبة الصادقة في قبولهم الحق تنمو في ظل المحبة الصادقة، لأنّ البغضاء والعداوة تحجب بظلمتها الحكمة وتخمد العطف".

نشرت جميع الصحف الصادرة في الهند الرسائل التي تبادلها الطرفان وقد أصبحت هذه الرسائل الشغل الشاغل للناس ومحور العديد من النقاشات والحوارات، لقد أثار رفض الأسقف الجدل الواسع. فعلى سبيل المثال كتبت صحيفة The Indian Spectator ما يلي:

"يبدو أن أسقف لاهور قد انسحب بأسلوب يتسم بالتسرع أكثر مما يتسم بالكرامة من تحدٍّ كان هو من أشعله بادئ الأمر. لقد أخذ نيافته على عاتقه منذ وقت ليس بقصير مهمة البرهان لجمهور المسلمين أنّ يسوع هو المسيح الحق وبدأ بهذا التحدي.

... إنّ نيافته يذكر أنّ أحمد قد تسبب بإهانة بالغة وازدراء كبير ليسوع المسيح بسبب تسمية نفسه مسيحا منتظرا، ولكنّ اليهود قد قاموا منذ ما يقرب ألفي عام بصلب يسوع المسيح لأنهم اتهموه بالتهمة نفسها فهم أيضا شأن نيافته قد شعروا بالإهانة والازدراء لأنّه سمّى نفسه مسيحا، بل من الأغرب أنّ نيافة الأسقف ذكر أنّ الغالبية العظمى من مسلمي البنجاب ينظرون إلى أحمد بازدراء وإدانة كدليل على زيف دعوته. فبيلاطس حينما سأل جموع اليهود عمّن يريدون إطلاق سراحه يوم الفصح أجابت العامة

كلهم بإجماع على أنهم يريدون إطلاق اللص المجرم باراباس فهل هذا الإجماع من قبلهم يثبت كذب إدّعاء يسوع بأنّه المسيح؟ إننا لسنا من أتباع أحمد، وليست لدينا بالطبع أي نية في جعل ادّعاءاته بمكان أعلى من تلك التي ليسوع المسيح ولكننا نعترض على المنطق الذي انتهجه نيافة الأسقف لينسحب من إجراء مباحثات دينية. فإذا افترضنا أنّ العالم الإسلامي بأجمعه قد أيّد المرزا في ادّعاءاته، فهل كان نيافة أسقف لاهور سيغير رأيه فيه؟

إنّ المعتقدات الدينية في هذا البلد تمرّ حاليا بحالة من الذوبان والفناء فمن الحري بأولئك الحريصين على رؤيتها تتبلور حول الحق أن لا يلجأوا إلى الجدل البعيد عن الأخلاق والطبائع الطيبة ".

وبهذا المقال لا يمكن أن يقال ما هو أكثر إدانة لموقف أسقف لاهور.

وقبل أن نختم هذا الفصل، نورد المواضيع الخمسة التي كانت ستكون موضوع المحادثة:

- أي مِن النبيين: المسيح ومحمد، مَن يمكن إثبات طهارة حياته سواء من نصوصهما أو من غيرها؟
- من منهما — وعلى الأسس والمصادر نفسها — من يمكن عدّه "النبي الحي"، ومن يملك قوى قدسية؟
- من منهما - وعلى الأسس نفسها- يمكن أن يُعدَّ شفيعا عند الله؟
- أي ديانة من الديانتين يمكن أن تُعدَّ دينا حيا؟
- أي من التعاليم الموجودة في الكتابين القرآن والإنجيل أحق بالاتباع ويماشي الفطرة: التثليث أم الوحدانية؟

الفصل الرابع والعشرون

إلهامات عن المسيح

لم يكن الغرض من دفاع أحمد عن الإسلام في مواجهة انتقادات أسقف لاهور اللاذعة التقليل من شأن المسيح الناصري كما أكّد بنفسه مرارا، فعيسى هو نبي مرسل من عند الله ولكنه ليس الله. فالله، كما اعتقد أحمد، ومنذ بدءِ الخليقة، بعث الرسل إلى جميع الأمم وفقا لاحتياجاتها الروحانية على مرّ العصور؛ فموسى وبوذا كانوا أنبياء، وكذلك عيسى كانوا جميعا أنبياء أرسلهم الله، كما أرسل كريشنا الذي قدسه الهندوس، وأرسل ميزودربامي للزرادشتيين، وهناك العديد من الأنبياء الذين أسسوا جماعات دينية، كبيرة كانت أم صغيرة، وكان الغرض من بعثتهم هو نجاة الإنسان وإرشاده إلى سبيل الله تعالى.

كذلك أكد أحمد على احترامه جميع الأنبياء لأنهم جميعا تلقَّوا الوحي الإلهي والمعرفة الإلهية، واستدل على هذا بالآية القرآنية: ﴿... وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ وَلَكِنَّ اللهَ يَجْتَبِي مِنْ رُسُلِهِ مَنْ يَشَاءُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَإِنْ تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ [آل عمران: ١٨٠]، ويضيف غلام أحمد أنَّ جميع الرسل قد أخبروا عن مجيء مصلح موعود عظيم في آخر الزمان. وبناء عليه فالسؤال الذي يطرح نفسه، إذا كان لكل دينٍ رسولٌ أو نبيٌّ موعود، ألن ينشأ نزاع فيما بينهم؟ يقول أحمد إنّ هذا لن يحصل، لأنّ جميع النبوءات على اختلاف تفاصيلها والاسم الذي أَسْــمت به ذلك المصلح الموعود تشير جميعها إلى شخص واحد؛ لذا فلن يكون هناك سوى مسيح موعود مخلّص واحد. فالحكمة الإلهية في نشر هذه الأنباء عن المسيح الموعود عند مختلف الأمم بطرق مختلفة وأزمنة متفاوتة أتاحت لكل أتباع

الأديان أن يرتقبوا بعثة ذلك المسيح الموعود. وبحسب ما يقول غلام أحمد؛ وعندما يأذن الله عزّ وجل ويحين الوقت المعلوم يبعث الله تعالى المسيح الموعود ليُظهِر كمال الإسلام على جميع الأديان وليدعو جميع أتباع الديانات الأخرى إلى دين الله الحق. فإذا رجع كل فريق إلى دينهم ودرسوا النبوءات الواردة في كتبهم وعلامات وقت نزول المخلص الموعود، ثمّ درسوا دعوى المسيح الموعود سيدركون أنّه ليس غريبا عنهم، بل هو ما جاءت به كتبهم وأنّه هو مسيحهم الموعود وعندها سيقبلون البينات التي جاء بها والإسلام الذي يدعوهم إليه وسيصبحون مسلمين. إنّه هو المسيح الموعود – كما يقول أحمد – وهو المخلص المنتظر لجميع الأمم.

يقول فيلسوف مسلم حول مسألة المبعوث الواحد لجميع الأمم ما معناه: "إنّ النبي أو الرسول المبعوث من عند الله تعالى لا ينتمي إلى قوم أو مجتمع ما، هو من عند الله وإليه ينتمي، لذا فمن يتبعه إيمانا بما جاء به يتبعه لوجه الله تعالى، ولأنّ المسيح الموعود هو نبي من عند الله تعالى، فهو مُرسلٌ لجميع الأمم، ولهم جميعا أن يعدّوه خاصا بهم فرُقيّهم الروحاني منوط به، وعليهم أن يقبلوه معلما ومرشدا وأن يدينوا بالإسلام ويصبحوا مسلمين كما يرشدهم معلمهم".

فما قصة السيخ؟

من المعروف أنّ الله قد أرسل عددا من الأنبياء هم مؤسسو الديانات المختلفة كموسى وكريشنا وبوذا وعيسى في الأزمنة السابقة ثم محمد مؤسس ديانة الإسلام، وجميع المسلمين يعتقدون أنّ دينهم هو آخر الأديان وأكملها وأنّ الله قد أوحى للنبي محمد أنْ لن يقيم الله شريعة جديدة بعده، ولكن ديانة السيخ التي أسسها (غورو بابانانك) بعد ثمانمئة سنة من وفاة النبي محمد تدعي أنها من عند الله، فوفقا للإسلام لابد وأن يَثْبت زيف هذه الديانة وأن يكون

صدق وكمال مؤسس هذه الديانة أي غورو بابانانك وغيره من (الغورو)[13] الآخرين محل تحقيق.

فماذا كان رأي أحمد في هذا الأمر؟

من خلال دراسته للسيخية ولحياة غورو بابانانك، كان غلام أحمد مقتنعا بأن نانك كان رجلا صالحا وأنّه لا يمكن أن يصنف مع الدجالين والمدّعين، وحتى يحل هذه المعضلة كان لابد له من دراسة أعمق للسيخية حتى تتبين الأمور، وبالفعل فقد ظهر أنّ السيخية في جوهرها لم تكن دينا جديدا وإنما كانت فرقة صوفية أسسها غورو بابانانك وتبعه مريدون من المسلمين بطبيعة الحال ومن الهندوس كذلك. أي أنّ نانك لم يكن مؤسس ديانة جديدة وإنما كان مرشدا دينيا يدعو إلى توحيد الخالق وقد أفنى عمره في هذه القضية ونجح فيها. ويعتقد غلام أحمد أنّ بعد وفاة غورو نانك حادَ السيخ تدريجيا عن الطريق الذي أرشدهم إليه وصاروا جبهة سياسية في البنجاب في مواجهة الحكومة المركزية المغولية في دلهي، وتدريجيا وبسبب هذا العداء السياسي المرير بين السيخ وحكامهم المسلمين، بات السيخ رافضين للمعتقدات الإسلامية. وبالطبع يعترض علماء السيخ على هذا الرأي ويجادلون فيه، حتى إنّ بعض رجال الدين عندهم يعبرون عن امتعاضهم واستيائهم الشديد من هذه المزاعم كما يرونها.

من الطبيعي جدا أن تنشأ مثل هذه الاختلافات في وجهات النظر والتفاسير المختلفة والمتضاربة أحيانا بين الديانات المختلفة، ولكنّ موقف أحمد من السيخية كان فريدا من نوعه لأنّ أحدا لم يتبناه من قبل؛ بمعنى أنّه قد أعرب كثيرا عن احترامه العميق لغورو بابانانك وتقديره لخدماته التي بذلها في سبيل نشر وحدانية الخالق بدون أن يؤثر ذلك على اعتقاده بأنّ الإسلام هو الدين الخاتم الأكمل ولا دين بعده. وبالإضافة إلى ذلك أعلن أحمد بأنّ غورو

[13] كلمة ذات أصل سنسكريتي تعني المعلم الروحاني والحكيم. (المترجمة)

بابانانك كان مسلما، وجاء بالدليل من كتابات غورو نانك نفسه، ومن استدلال نانك المتكرر بآيات القرآن الكريم واقتباسه منها. وحتى وإن رأى العالم أجمع نظرة أخرى إلا أنه لا يستطيع أحد من علماء الفرق الصوفية أن ينكر حقيقة أنّ عبادات غورو نانك كانت على الطريقة الإسلامية، بل يقرّون جميعهم أنّه قد ذهب للحج في مكة.

إنّ دفاع أحمد عن غورو بابانانك وقوله بأنّ نانك كان رجلا صالحا ووليا من أولياء الله جاء بعد دراسة مستفيضة لكتاب (غرانث صاحب) وهو كتاب السيخ المقدس وبعد دراسة كتاب الهندوس المقدس (الفيدا)، فضلا عن دراسته المعروفة للإنجيل. وهذا موقف لم ينتهجه أحد من قبل.

ولد غورو بابانانك قرب لاهور في إقليم البنجاب عام ١٤٦٩ لعائلة هندوسية ولكنّه مال فيما بعد إلى وحدانية الله؛ ما كان يتناقض وتعدد الآلهة الموجود عند الهندوس أو تجسد الإله أو إشراك أحد مع الله كما عند المسيحية، وصار بهذا الميل لوحدة الخالق أقرب إلى الإسلام منه إلى تعدد الهندوس أو تثليث المسيحيين. أما المعبد الذهبي الموجود في أمريتسار – على بُعد ستة وثلاثين ميلا فقط من قاديان — فهو البقعة المقدسة عند السيخ، وتجدر الإشارة إلى أنّ أمريتسار هي المكان الذي تلقى فيه غلام أحمد الوحي القائل "*أليس الله بكاف عبده*" بعد وفاة والده والذي نقشه على خاتمه. ليس غلام أحمد هو الوحيد الذي يرى الأصل الإسلامي للسيخية، فهناك باحث كتب عن الأصل الإسلامي لديانة السيخ في الموسوعة البريطانية وذكر فيها رأيه هذا مؤكدًا على أنّ بابانانك كان مسلما، وأنّ خروج السيخ من عباءة الإسلام كان تدريجيا نتيجة ظروف سياسية دفعت بهم إلى الابتعاد عن تعاليم مؤسس الطريقة.

ذكر غلام أحمد في الجزء الثاني من كتابه (سَتْ بـــچـــن)[١٤]، كل ما قام به من أبحاث مستفيضة في كتب وآثار بابانانك التي استنتج منها أنّ مؤسس

[14] أي: "القول الحق". (المترجمة)

السيخية كان مسلما صادقا اعتنق الدين الحق. فعلى سبيل المثال، وجد غلام أحمد في ما تسرده الكتب والمدونات السيخية، أنّ غورو بابانانك قد عاش بصحبة رجال الدين المسلمين وأمضى جل وقته في العبادة والتفكر فضلا عن أنّه صلى صلاة الجماعة — كمسلم ملتزم- وأنّه قصد مكة حاجًا وزار المدينة وزار أماكن إسلامية مقدسة أخرى.

وأمّا الأثر المادي الموجود شاهدا عيانا على إسلام بابانانك المولود في إقليم البنجاب حيث قضى معظم عمره، فهو بقاياه من ثياب وكتب محفوظة في معابد السيخ على امتداد البنجاب، وأهمّ تلك الموجودات العباءة المقدسة التي تعود له والتي تحتفظ بها عائلة سيخية في بلدة (ديرا بابانانك) في غورداسبور التي تبعد نحو ثلاثين ميلا من قاديان. وكان السيخ يعتقدون أنّ هذه العباءة المقدسة هدية أنزلها الله على بابانانك كدليل على مقامه الرفيع عند الله تعالى ولتحفظه من الشرور وقت الخطر، وعند السيخ روايات كثيرة عن الحفاظة التي حظي بها في مواقف عديدة. كانت العباءة مصنوعة من القطن خفيفة الوزن مقصبة في بعض الزوايا ذات لون ترابي مائل إلى الحمرة في بعض المناطق، وقد طُرزت عليها بالخيوط الذهبية آيات من القرآن الكريم. كانت هذه العباءة أثرا مقدسا يُبدي لها السيخ كل تقدير، إذ وفقا لهم قال عنها بابانانك أنّ الله تعالى قد أنزل هذه الكلمات على العباءة وأمره بارتدائها. وبعد موت بابانانك اعتقد خلفاؤه أنّ الله عز وجل قد بارك هذه العباءة وكانوا يلفونها على رؤوسهم في مناسباتهم الدينية أو عندما كانوا يتعبدون طالبين الهَدْي والمعونة الإلهية الخاصة. تحدث الخليفة الأول لغورو بابانانك باستفاضة في كتابه (جَنَم ساخي) أو مذكراته عن العباءة المقدسة والمواهب العجائبية الكامنة فيها، فيذكر أنّ الله أنزلها من الجنة وأنّ الكلمات المنسوجة عليها هي كلمات وحي الله الحرفية، ويذكر كذلك أنّ هناك ملك حاول سرقة هذه العباءة ولكنه فشل في ذلك.

هناك كذلك قصة حول هذه العباءة وكيف وصلت إلى تلك العائلة السيخية حيث عاينها أحمد؛ ورد أنّه في عهد خليفة غورو بابانانك (غورو أرجونداس) كانت أعمال حفر البحيرة حول المعبد الذهبي تتم على قدم وساق وجاء غورو أرجونداس بنفسه لزيارة الموقع وكان مئات السيخ يعملون بإخلاص وتفان كبير وكان من أكثرهم إخلاصا رجل اسمه (توتا رام) الذي حازت جهوده الجبارة الفردية الثناء والتقدير حتى إنّ غورو أرجونداس خاطبه قائلا: " لقد كان جهدك في العمل استثنائيا وأنا أرغب في أن أكافئك، سلني أي شيء ترغب به". فكان ردّ توتا رام: "امنحني عطية السيخ". وكان يقصد بهذا العطية الهداية الدينية، وفهم غورو أرجونداس أنّه يقصد العباءة المقدسة لأنها تحوي كل الهِداية التي جاء بها مؤسس السيخية بابانانك وعلى الفور خلع غورو أرجونداس العباءة وسلمها إلى توتا رام وقال له: "حقا لقد طلبت عامود بيتنا فكل هداية روحانية هي موجودة في هذه العباءة". ومنذ تلك الحادثة والعباءة تنتقل من جيل إلى جيل في نسل توتا رام. وبُني معبد صغير بغرض حفظها عبر القرون التي تلت حتى إنّ معظم أمراء السيخ المعروفين في التاريخ السيخي قد قاموا بالحج إلى ذلك الأثر في بلدة ديرا بابانانك الصغيرة.

وحتى اليوم أي عام ١٩٩٢، ما تزال تلك البقعة قرية صغيرة تائهة في محيط البنجاب غير ذات قيمة كبيرة ذلك أنها تقع على الحدود الهندية الباكستانية، وإلى اليوم ما زالت العربات التي تجرها الثيران موجودة هناك أكثر بكثير من المركبات الآلية. لكنّ المعبد الصغير الذي يضم العباءة تمّت توسعته وأُلحقت به ساحة كبيرة لتستوعب الزائرين الذين يفدون إلى القرية في بعض المواسم الدينية ليشاهدوا العباءة التي حُفظت في صندوق زجاجي مغطى بثوب ذهبي.

أرسل غلام أحمد أربعة من أتباعه إلى ديرا بابانانك ليستقصوا عن هذا الأثر، فأفادوا أنّ العباءة ملفوفة في أكثر من ثلاثمئة رداء وأغطية ناعمة من

الحرير والقطن بعضها يحمل أسماء ووصف الأمراء والوجهاء الذين أتوا ديرا بابانانك لرؤية هذا الأثر الهام، وقد قدّموا هذه الأَرْدية كعلامة على احترامهم وتقديرهم وكانت هذه الأردية مشابهة للعباءة المقدسة أو (غرانث صاحب) التي كانت تلف كتاب السيخ المقدس. تمكن أتباع غلام أحمد الأربعة من إقناع حارس العباءة أن يرسل في طلب المفتاح الفضي لفتح قفل الصندوق الزجاجي حتى تُحل الأثواب عن العباءة، وبعناية فائقة وتأنٍ فتحت الأثواب واحدا واحدا حتى استطاعوا مشاهدة أجزاء من العباءة ورؤية الكلمات المنسوجة بالخيوط الذهبية على العباءة، لم تكن الكلمات بلغة غريبة عنهم؛ لقد كانت كلمات عربية بل كانت آيات قرآنية! هذا كان كل ما سمح به الحارس العجوز لأتباع أحمد أن يروه من العباءة المقدسة.

وفي الثلاثين من أيلول/سبتمبر عام ١٨٩٥ وبعد أن صلى أحمد صلاة الاستخارة كعادته عندما يطلب العون الإلهي، قام وعشرة من أصحابه بزيارة إلى قرية ديرا بابانانك لمعاينة وتفحص العباءة. وبعد الكثير والكثير من الإلحاح أُحضر المفتاح الفضي ثانية وفتح الصندوق وعند فك الثوب الأول صار حارس العباءة مترددا في أن يكمل ولكنهم تابعوا حثّه وصار العشرة الذين كانوا بصحبة غلام أحمد عشرين رجلا كان معظمهم من علية القوم في تلك الناحية ما أثّر على الحارس وأقنعه باستكمال فتح الأثواب حتى أنّه أتاح لغلام أحمد وأصحابه بفتح بعض تلك الأثواب. وبعد ساعة كاملة وصل الحارس إلى الأثواب القليلة المتبقة أصابه التردد مرة أخرى لكنّ الشيخ رحمة الله الغوجراتي — وهو واحد من صحابة أحمد - قد لاحظ وجود طبقات كثيفة من الغبار على الطيات الداخلية للعباءة فخاطب الحارس قائلا بأنه لابد من تنظيف الغبار حتى تُحفظ العباءة سليمة من التلف وقال له: هيا نفعل هذا الآن وفتح طيات العباءة تماما. وكانت هذه المرة الأولى منذ فترة طويلة ربما لمئات السنين التي تفتح فيها العباءة المقدسة وتظهر كاملة للعيان. مكث أحمد

وأصحابه واجمين لبرهة من رهبة الموقف، ثم كُسر الصمت بالتعليقات حول ما كتب على العباءة. لقد كانت سورٌ كاملة من القرآن منسوجة عليها، منها سورة الفاتحة، بل إنّ أكثر جملة مطرزة بخيوط بارزة كانت الشهادتين: لا إله إلا الله محمد رسول الله، وكانت هناك كذلك آية الكرسي، وسورة الإخلاص كاملة، والآية ﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾ [آل عمران: ٢٠]، ولم تكن هناك أي نصوص من أي كتاب مقدس آخر. رُسمت صورة لهذه العباءة تبين بوضوح المواضع التي طرزت فيها الآيات الكريمة على العباءة.

وبعد العباءة المقدسة، علم غلام أحمد لاحقا أنّ هناك أثرا آخر يعود لغورو بابانانك في معبد (غوردوارا) في قرية (جرو هارساهي) الواقعة في منطقة (فيروز أباد)، كان هذا الأثر معروفا عند السيخ باسم (بوتهي) أو كتاب الصلاة الخاص ببابانانك، وكان ثابتا عنه أنّه كان يحمله معه أينما سافر وانتقل. كان هذا الأثر كذلك ملفوفا بطبقات عدة من الحرير والصوف الناعم قُدمت من قبل الحجاج السيخ كعلامة الاحترام الخالص. فأرسل أحمد ثلاثة من صحابته ليتحروا الأمر وعندما حُلت الأثواب لم يكن كتاب الصلاة الخاص بغورو بابانانك إلا نسخة صغيرة الحجم من القرآن الكريم خُطَّت خصيصا بهذا الحجم لحملها بسهولة أثناء التنقل والسفر، وكانت مغلفة بطريقة تسمح بحملها في جراب خاص يسمى في اللغة الأُرْدية (حمائل شريف). وبهذه الأدلة الدامغة أعلن أحمد أنّ غورو بابانانك كان مسلما صادقا ملتزما بتعاليم الإسلام.

لم يكن هناك كذب في كلمات الغورو على العباءة المقدسة؛ لقد ذكرت كتب السيخ أنّ الغورو سيظهر ثانية في منطقة بطالا، بطالا هي أقرب بلدة لقاديان.

يقول غلام أحمد عن ظهور الغورو الثاني أنّه قد تنبأ ببعثته هو كمسيح موعود، إنّه الموعود للسيخ كما هو الموعود للمسلمين على حد سواء.

الفصل الخامس والعشرون

توثيق الروابط

كنا قد ذكرنا في فصل سابق أنّ عدد الرجال الذين بايعوا مرزا غلام أحمد عام ١٨٨٩ في لُدهيانه كان أربعين رجلا، وحتى بعد سبع سنين لاحقة أي حتى عام ١٨٩٦ لم يدخل في بيعته الكثيرون؛ حيث بلغ أتباعه ٣١٣ رجلا فقط. مما يعني أن عدد المبايعين قد ازداد بمقدار ٢٧٣ مبايعا فقط في سبع سنوات، أو ما يقارب من أربعين مبايعا في كل عام.

ذكر مرزا بشير أحمد – الابن الثاني لغلام أحمد – لاحقا هذه المرحلة من دعوة أحمد وكونها من أشد الفترات وطأة على الجماعة الأحمدية: في تلك الفترة كانت المعارضة في أوجها ومن جميع الجهات، وكان التقدم بطيئا حتى إنّ المعارضين كانوا يأملون أن تنهار الجماعة ويُقضى على الدعوة الأحمدية في مهدها. كانت فعلا مرحلة كربٍ ومحنة حتى بالنسبة للمسيح الموعود فالتقدم البطيء للجماعة كان تجربة مؤلمةً تعتصر قلبه المتوقد بالحماس، ولكنّه كان مدركا أنّ هذا هو الحال مع كل مصلح مجدد، وأن لا مناص من هذا الابتلاء الذي لابد منه لتوثيق عُـــرى الجماعة ولتوطيد إيمانها.

ولتوطيد الأواصر بين أفراد جماعته، دعا مرزا غلام أحمد أتباعه إلى اجتماعهم الأول بتاريخ السابع والعشرين من شهر كانون أول/ديسمبر عام ١٨٩١، كان عددهم قليلا؛ إذ تراوح المجتمعون بين خمسة وسبعين إلى ثمانين رجلا ولكنّ اجتماعهم كان ناجحا إلى درجة أنّ غلام أحمد أعلن أنّه من ذلك الوقت سيُعقد كل عام اجتماع سنوي في قاديان وأنّ على كل واحد من أتباعه أن يبذل قصارى جهده لحضوره: "في هذا الاجتماع سوف نهتم ببيان الحقائق والمعارف الدينية التي هي ضرورية لتقوية الإيمان واليقين

والمعرفة الإلهية". وأنه سيتم بذل كل جهد لدعوة الأصدقاء والمعارف للحضور والدعاء الخاص لهم حتى يأتي بهم الرحمن إلى جماعته وأن يقبلهم ويسبغ عليهم نعمه وأفضاله.

كما قال ما معناه: ومن الفوائد الفورية لهذه الجلسة أنّ الإخوة الذين يكونون قد انضمّوا إلى الجماعة خلال كلّ سنة سوف يقابلون بحضورهم في التاريخ المحدد إخوتهم الذين سبقوهم بالإيمان، وسوف تتقوى علاقات الود والتعارف نتيجة معرفتهم الشخصية فيما بينهم. كما قال كذلك: سوف نعمل في حضرة الله جلّ شأنه لتوحيد الإخوة من الناحية الروحانية ورفع الجفاء والغربة والنفاق فيما بينهم.

في السنة التالية حضر الاجتماع السنوي خمسمائة شخص، على الرغم من معارضة المشايخ الشديدة وإعلانهم المتكرر أنّ من يحضر هذه الاجتماعات يكون قد ارتكب خطأً كبيرا. قدِم ثلاثمئة شخص من هؤلاء المجتمعين، أي معظمهم، من خارج البنجاب. في الواقع لقد بُذل جهد كبير من قبل المرزا وأتباعه لاستضافة القادمين؛ فلقد نُصبت وبسرعة المباني المؤقتة لينزل الضيوف فيها. يجدر بالذكر أنّ مباني أكبر وأكثر تحملا وسعة قد بُنيت للغرض نفسه في الجلسات اللاحقة في قاديان.

أما في هذا الاجتماع- أي الثاني- فقد غلب طابع القرارات الإدارية، بمعنى أنّ مؤسس الجماعة الأحمدية أرسى فيه الأسس التي قامت عليها الجماعة الإسلامية العالمية، فقد أُعلن أنّ الجماعة – أي مجمل التابعين – سوف تموّل أول مبشّر للدعوة الأحمدية وهو السيد (محمد أحسن)، وسوف تموّل بناءِ دار نشر في قاديان تقوم بطبع المنشورات الدعوية والكتيبات وصحيفة فيما بعد. وفي اجتماعات تالية ضِمن الاجتماع السنوي ذاته، تقرر أن تُنشأ مدرسة تابعة للجماعة الأحمدية في قاديان. هذه القرارات الثلاثة كانت أساسا لنجاح الحركة الأحمدية في العالم، فتمويل تعليم أطفال الجماعة عن طريق تبرعات

أفرادها نجم عنه نجاح كبير للجماعة لاحقا، ثمّ كانت المطبعة التي مكّنت الإسلام من تبني الوسائل الحديثة في الدعوة في العالم أجمع، وكذلك تمويل الدعاة فتح للإسلام بابا للمُنضمين الجدد.

وفي ذلك الاجتماع وافق غلام أحمد على التقاط صورة له حتى يتمكن مَن لا يعرفه أو من لم يره شخصيا من أن يعرف هيئته، ومن المعروف طبعا أنّ المشايخ المتزمتين يحسبون التقاط الصور شِركا وعملا وثنيا لأنه تجسيد وتصاوير، إلا أنّ أحمد كان له رأي مغاير؛ فهو لا يرى بالتصوير بأسا إذا لم تكن النية من ورائه تقديس أو عبادة صاحب الصورة، عندها فقط يكون شركا. كان المصور آنذاك يرغب في أن يلتقط صورة كالعادة النمطية المنتشرة آنذاك وهي أن يحدق الشخص في آلة التصوير ولكنّ غلام أحمد فضّل أن يُبقي على نظرته الغضيضة تبعا للأمر القرآني ﴿قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ ...﴾[النور: ٣١]، ولم يجد المصور بُدًّا من النـــزول عند رغبة المرزا والتقط الصورة.

بهذه الحادثة وموضوع المطبعة، نرى أنّ أحمد قد اتخذ موقفا منفتحا تجاه المخترعات الحديثة، فعلى سبيل المثال كان اختراع توماس إديسون للحاكي أو الغراموفون حديثا لم يمض عليه بضع سنين ومع ذلك فقد رأى فيه وسيلة يمكن استخدامها استخداما طيبا لنشر الإسلام.

ومن جهة ثانية كان أحمد شديد الحرص على أنّ لا يُحاط أيّ من مقتنياته أو آثاره بالقداسة، فيُذكر أن واحدا من أتباعه أخذ قميصا له، ومع أنّ غلام أحمد لم يطالبه به، لكنّه أصرّ عليه أن يدفن القميص معه عندما يموت حتى يُتلف بذلك، فالله تعالى هو وحده من ينبغي أن نُبدي له التقديس والعبادة ولا يجب أن يُشرَك معه أحد.

أما بالنسبة للأمور والالتزامات المادية التي أعلن عنها في الاجتماع السنوي، فجميعها كانت ذاتية التمويل من أفراد الجماعة الذين لم يكن من

بينهم أغنياء فاحشي الثراء. فقد كان أفراد الجماعة من مختلف الحِرَف كالأطباء والموظفين الحكوميين وصغار ملاك الأراضي، وتجار من مختلف الأنواع، ولكنّهم كانوا رجالا عاملين عاديين. في الواقع كان كثيرا منهم فقراء وحتى شديدي الفقر ولكنّهم جميعا كانوا ملتزمين بدفع مقدار معلوم من المال كتبرع للجماعة. لم يكن يهم حجم هذا المقدار صغُر أم كبر حتى وإن كان قطعة نقدية واحدة، ولكن المهم أن يكون مستمرا؛ بمعنى أن لا ينقطع هذا التبرع أبدا في أي وقت. لاحقا صار أفراد الجماعة يدفعون نسبة محددة من دخلهم يلتزمون بها جميعهم.

ومع زيادة عدد أفراد الجماعة والضيوف القادمين صار من الضروري وجود إدارة مالية. ففي بادئ الأمر كان الضيوف من أتباع المرزا ومن القادمين للاطلاع على الجماعة يُعطَون كل ما يحتاجون إليه من طعام وسكن، في بعض الأحيان كان المتوافر كافيا وبعض الأحيان لم يكن يكفي لإطعامهم وكان دخل عائلة أحمد يسدّ الباقي. في إحدى المرات أُخبر أحمد أنّ طعام الضيوف قد نفد وأنه لا يتوفر مال لشرائه فأرسل أحمد شخصا إلى بيته لإحضار ما يساعد، فعاد الرسول بقطعة حليّ ذهبية أعطته إياها زوجة أحمد لشراء الطعام للضيوف.

بحلول عام ١٩٠٠، صارت القلة التي تَفِد إلى قاديان لسماع غلام أحمد طوفانا بشريا – بالنسبة لذلك الوقت- إذ كان يحضر أحيانا من سبعين إلى ثمانين بل مئة أحيانا في اليوم الواحد، كان معظمهم يبقى لبضعة أيام في بيوت للضيافة ما تزال إلى اليوم تزيد وتكبر. ومع الوقت زاد عدد أتباعه لا ضيوفه فقط، فصار المؤمنون بدعوته ثلاثون ألفا وظلّ هذا الرقم ينمو يوما بعد يوم ما كان مصداقا للنبوءة التي أعلنها أحمد في مُستهل دعوته بأنّ الطريق إلى قاديان سوف تتخدد بالحفر من كثرة الوافدين إليها.

رُوي ذات مرة أنّ أحمد وجد نجارا يقوم بتلميع لوح خشبي في بناء أقيم للضيوف، فأوقفه قائلا لا حاجة الآن لهذه الرفاهية المهم أن يُقام البناء وينزل فيه الضيوف.

أما في منازل الضيافة هذه كان هناك نحو خمسين إلى ستين متطوعا يقومون بأعمال النظافة والطهي للضيوف ويقومون كذلك بخدمة طلاب مدرسة جماعة أحمد البالغ عددهم مائة وخمسين. ولأنّه لم تكن في المدرسة غرف دراسية كافية، فكانت كثير من الصفوف تُعقد خارج مبنى المدرسة حيث جلس الصبية على الأرض. أما بالنسبة للمطبعة فقد عمل فيها خمسة عشر رجلا متطوعا للقيام بأعمال الطباعة.

الفصل السادس والعشرون

التواضع، والمحبة، والشجاعة

ما الجديد عند غلام أحمد؟

نعم، دائما وعلى مرّ الزمان تعاقَب على البشرية الكثير من المصلحين العظام والقادة الدينيين الكبار في جميع الأمم وفي كل العصور، وعمَروا معابدهم وأناروا شموعها، إلا أنّ هذه الشعلة ما تلبث أن تخبو مع مرور الوقت ومع بُعد المسافة عن نقطة البداية، ثم يحدث فجأة أن تتوهج جذوتها عند النـــزع الأخير وبعد ذلك تنطفئ تماما ويحل الظلام في المعبد الذي كان يوما ما معمورا؛ فما هو الأمر الفريد عند أحمد؟

لعلّ أوّل فارق جوهري يلحظه المتمعن فيه ويجده عنده بشكل خاص متميز عمّن سواه هو يقينه الكامل الذي لا يتزعزع بأنّه هو المسيح الموعود لهذا الزمان وأنّه كما يقول عن نفسه مبعوثٌ من عند الله عزّ وجلّ وإنْ عارضه من عارض وإن قلّ الناصرون وإن هجره كل من في الأرض فإنّه سوف يُكمل مهمته التي بعثه الله تعالى من أجلها.

وبالفعل عارضه الكثيرون واتّفق عليه رجال الدين المسيحيون والمسلمون والهندوس، وأدانوه وحاربوه إلا أنّ الناس العاديين تقاطروا أفواجا لملاقاته.

في الواقع نحتاج لفهم نجاحه ونجاح الحركة الأحمدية حتى اليوم إلى تأمّل ملامح شخصيته وما كان يقوم به من أفعال، والمبادئ التي حكمت تلك الأفعال وسيرت حياته والتي علّم من بايعوه السير عليها وتطبيقها في حياتهم، إذا ما أرادوا أن يكونوا في زمرته ويكونوا بحقٍ منتمين للجماعة الأحمدية، وأن يجذبوا العالم للإسلام الحقيقي.

كانت المحبة الخالصة لوجه الله تعالى، والكرم وحسن الضيافة، والتسامح، والصبر، والمواساة لجميع الخَـــلْق هي أبرز الصفات التي قدّرها غلام أحمد وحثّ عليها، وفوق هذا عمل هو نفسه بها. عدَّ أحمد خُلُق البساطة –بمعنى البعد عن التكلف– والجدية من أهم ما يجب أن يتحلى به المرء، إذ يقول ما معناه: إنّ أولئك الناس الذين يحيون حياة البساطة قريبون جدا إلى قلبي. كان يمقت التفاخر وقسوة القلب وحب المظاهر الفارغة.

في حياته، لم يكن أحمد رجلَ إدارة يُجيد تسيير الأفراد والأموال، ولم يكن يعلّم الناس أن ينغمسوا في زخرف الحياة الدنيوية وأن يسعوا إلى تحقيق النجاحات المادية من زيادة في المال والمأكل والملبس والمسكن وحياة الترف والدِّعة.

كان شخصه ومنطقه وحياته مصداقا لتعاليمه التي فتحت القلوب وأقنعتهم بأنه هو المسيح الموعود. لقد أطلق عليه أتباعه لقب (حضرة) كعلامة احترام وحب كبير، أمّا هو مِن جهته فكان يدعو كل فرد منهم بكل محبة وتواضع: يا أخي.

كثيرا ما حاول أتباعه دفعه إلى ارتداء ثياب أنيقة بحيث يمكن أن يُميز عن عامة الناس ولكنّه لم يكن يفعل، وحدث أن أهداه أحد أتباعه شالا منسوجا ناعمًا غالي الثمن، وكان من النوع الذي يرتديه الناس عادة في المناسبات الخاصة ويحافظون عليه لجودة صنعه ولغلاء ثمنه، ولأنّ غلام أحمد لم يكن ممن يعيرون اللباس تلك القيمة التي يبديها الناس فقد كان يرتديه – كما يذكر أحد أصحابه– كما لو كان شالا عاديا.

هناك مناسبة واحدة فقط طَلب فيها الاحتفاظ برداء وذلك ليُبعد الإحراج عن شخص ما؛ ذات يوم رأى واحدة من الخادمات اللاتي كُنّ في منزله وتبدو عليها أمارات القلق الشديد وهي تحمل بيدها معطفا رجاليا، فسألها ما المشكلة فأجابته بأنّ هذا المعطف جاء به صبي إليها من عمّه ليعطيه إلى واحد

من أتباع أحمد، ولكنّ ذلك الشخص التابع رفض المعطف لأنه لا يرتدي الثياب التي يستغني عنها الناس، فقال لها أحمد: أعطيني إيّاه وقولي للصبي أنّي أظنّ أني أرغب به وإذا لم يكن لديه مانع فأنا أودّ أن أحتفظ به وألبسه. وبالتالي فإنّ عمّ الصبي لن يشعر بإحراج فيمَ لو رُفِضت هديته. لم يكن أحمد غير مهتم بالملابس فقط بل كان في الواقع زاهدا فيها وفي المظاهر تماما لأنّ تفكيره منصرف إلى أمور أخرى. يُحكى أنّه كثيرا ما كان يخطئ في وضع أزرار معطفه بشكل صحيح داخل عرواتها حول خصره، وعندما كانت تنقطع نتيجة ذلك كان يعلق ليمازح أصحابه قائلا إنّ أزرار وسط المعاطف تضيع وقتا كبيرا. وحكي عنه أنّه عندما قُدّم له زوجان من الأحذية الغربية الطراز، أي أنّ الزوج الأيمن يختلف عن الأيسر وضع علامة حتى يميزهما بمجرد النظر ولكنه كان مع ذلك كثيرا ما يخطئ لأنه عادة يرتدي نعاله بسرعة حتى لايضيع الوقت دون جدوى من وجهة نظره، ثمّ عاد إلى الخُفِّ الذي ارتداه طول حياته. مال أحمد إلى البساطة دائما، من الطاقية التي يرتديها تحت عماماته إلى خفه البسيط.

يحكى أنّه ترك طاقيته مرة في غرفة كان ينـــزل بها في منـــزل أحد أصدقائه ثم ذهب ليتوضأ، وعند أداء الصلاة طلب من ابنة صديقه أن تحضرها له، دخلت البنت الغرفة و لم تجد سوى طاقية قديمة بسيطة فقالت في نفسها إنّها لن تكون بالتأكيد لحضرة مرزا صاحب، وعادت وقالت له بأنها لم تجدها، فقال ولكنني متأكد بأني تركتها هناك، فعادت البنت وفتشت الغرفة ثلاثا متجاهلة الطاقية القديمة، عندها ذهب ابنه بنفسه وأحضر طاقية والده القديمة. تقول الابنة — التي روت هذه القصة– لم تتخيل أنه كان يرتدي شيئا بسيطا كهذا. لقد غلب عليه طابع البساطة في كل مظهره كما لو أنّ الأشياء المادية لم تكن ذات قيمة بالنسبة إليه.

يحكي خادمه حامد علي أنّه ظلّ ثلاثة أيام يشتكى ألما في ضلوعه كلما جلس، كما لو أنّ شيئا في ثيابه يقرصه، فاقترب منه حامد علي ومرر يده على ثياب أحمد ليجد حجرا كبيرا في جيبه عند الوسط فقال حامد لغلام أحمد أنّه ربما هذا ما سبب لك الألم. عندها قال: آه، نعم، لقد تذكرت! كان ابنه محمود قد أعطاه هذا الحجر ليحمله له. ربما كان يريد أن يلعب به يوما ما! قال غلام أحمد مبتسما.

أما غرفته الخاصة حيث كان ينام ويعمل، فقد كانت خالية من الأثاث وبسيطة جدا. دعا ذات يوم مجموعة من الزوار عنده، ولكن تصادف أنّه لم يكن على ما يرام في ذلك اليوم، كان جالسا على السرير الخشبي الوحيد في تلك الغرفة والكتب والأوراق التي يكتب عليها تُحيط به، لم تكن هناك مقاعد للجلوس، فلم يكن سوى صندوق خشبي أخضر وقفص حديدي والأرض الخالية من السجاد أو حتى الحصير. يروي أحد زواره في ذلك اليوم أن الغرفة كانت بسيطة لدرجة أنّ اللحاف الذي كان يغطي السرير كان به ثقب والحشو يخرج منه.

في بعض الأحيان لم يكن يعود إلى غرفته لينام فيها، إذ يروي واحد من أصحابه عن واحدة من هذه المرات أنّه كان أمضى مرة الليل معه في الطابق العلوي للمسجد ساهرا، وبعد أن فرغ مما كان يدرسه أو يعمله لفّ نفسه بملاءة ونام على الأرض دون فراش، وقال لصاحبه: يظنّ الناس أنه ليس بمقدورهم النوم دون أسرة، بفضل الله تعالى يمكنني أن أستمتع بالنوم حتى على الأرض. وأردف قائلا: لا يجتمع الزهد وحب الرفاهيات في قلب واحد. يضيف هذا الصحابي أنّ المرء يخيل إليه أنّ المرزا لم يكن ينام أكثر من خمس دقائق دون تقطع؛ فقد كان يستيقظ كثيرا ويفتح عينيه ويتمتم قائلا "الحمد لله رب العالمين" ثم ينام ثانية.

يروي أصحابه وأتباعه أنّه في فترة المناقشات مع عبد الله آتهم كان غلام أحمد وأصحابه يقضون بعض الوقت على سطح منـــزل مضيفهم وكان أحمد يجلس على حصيرة على الأرض ويتكئ على الحائط، لكنّ صاحب المنـــزل رأى ضرورة توفير راحة أكثر لضيفه الكريم فهمّ بإحضار فراش قطني ليجلس عليه لكنّ غلام أحمد رفض قائلا: أنا لم أتكئ كيلا أنام، فالنوم يحول دون أمور كثيرة وليس الوقت وقت نوم.

كذلك كان قليل الاكتراث بالطعام. فمرة كان يحضر اجتماعا في إحدى البلدات، وقد قضى الليلة السابقة عاملا على ملاحظات وأوراق ذات صلة حتى وقت متأخر ثم انتبه لاحقا أنّه جائع وأنّه لم يأكل منذ الصباح، فانتبه أصحابه وشعروا بالخجل من أنفسهم لأنهم نسوا أن يقدموا له الطعام وكان جميعهم قد تناولوا الطعام منذ ساعات، وكانت المتاجر مقفلة، وقتها رفع غلام أحمد كتفيه مبتسما وقال لا يهم لا بد أنّه توجد من بقايا ما أكل الموجودون كلهم بعض كسرات الخبز في السلال. ومشى إلى الغرفة التي أكل بها الجميع وجالَ فيها ووقف مغتبطا وقد أمسك بيده ثلاث أو أربع كسرات من الخبز وقال هذه كافية، وصعد إلى الغرفة ليكمل العمل على مؤلفاته وبين أوراقه.

يتذكر أتباعه بساطة طباعه في جميع المواقف، فمن بين أصحابه هناك السيد عبد الكريم السيالكوتي الذي يروي القصة التالية: حدث ذات يوم في وقت العصر أنّ عبد الكريم كان في غرفة أحمد، وكان الجو حارا في تلك الأيام فاعتاد الناس أن يناموا في تلك الفترة من شدة القيظ، وكان عبد الكريم مستلقيا على سرير المرزا بقصد غفوة بسيطة ولكنه راح في النوم العميق، ولما أفاق بعد مدة وجد غلام أحمد جالسا على الأرض عند طرف السرير فهبّ عبد الكريم من السرير شاعرا بالإحراج، ولكنّ أحمد لوح بيده معتذرا وقال

لعبد الكريم لقد مكثتُ عندك حارسا لأن الأطفال يلعبون في الخارج ويثيرون الضجة وأعلم أنك متعب كما هو واضح.

وفي مناسبة أخرى يرويها أحد أتباعه، كان خادمه غائبا لوجوده في مكان بعيد، فعرض أحد أصحابه بل طلب أن يكون معه ليخدمه في تلك الليلة وأنّه لن يزعجه فهو يريد فقط أن يجلس مستعدا لأي طلب منه. ولكنّ ما حصل بالفعل كما يروي هذا الصحابي كان العكس تماما فبدلا من أن يقوم هو بخدمة المرزا قام المرزا بخدمته! إذ كان أحمد هو من أحضر الماء للوضوء وكان هو من أحضر كوبين من الحليب قبل النوم، وعندما اعترض الصحابي لأنه يريد بدافع المحبة أن يقوم هو بهذه الأشياء حتى يجلس أحمد وَيفْرَغ لعمله، فأجابه أنّ هذا ليس بالشيء الكبير وأنّه يعرف مكان كل شيء.

مرة دعا أحمد أصحابه وضيوفا آخرين على العشاء وكانوا يتحدثون عن أنواع من المخللات وما يحب كل واحد أو لا يحب، ثمّ غادر حضرته الغرفة ثم عاد حاملا بيده إناء فيه نوع من المخللات التي ذكر أحدهم أنّه يحبه وقدّمه له، فتساءل أحد الحاضرين لِـمَاذا لـمْ يطلب من أحد الخدم أن يحضره له بدلا من أن يقوم حضرته بنفسه لإحضاره! فأجاب أحمد أنّه لا يعتبر نفسه أفضل من أحد، بمعنى أنّه يخدم نفسَه بنفسِه. في الواقع لم يُؤثَر عنه أبدا أنّه كان يتصرف كالسيد الـمُطاع الذي يُكثر من الأوامر للخدم. يروي الخدم الذين كانوا في منـزله أنهم عند القيام بأعمال التنظيف، وكانوا يضطرون إلى إزاحة الأسرة أو المقاعد وإذا تصادف مروره كانوا غالبا ما يجدونه عند الطرف الآخر للسرير يحمله ليعاونهم فيه.

بالنسبة للنساء كان يعاملهن بالرحمة والرفق نفسه، ففي أيام وباء الطاعون الفتّاك الذي ضرب الهند كان أحمد يحث الناس بشكل عام على أخذ اللقاح، وفيما يخص النساء فقد حثّهن على أن يخرجن من خبائهن أو ما يسمى بالأُردية (البِردة) ليعاينهن الأطباء. وفي منـزله كان يُعاون أهل بيته للقضاء

على المرض، فقد كان يكنس الفناء ويصب المواد المطهرة في المصارف حول المنـــزل وفي داخله. تجدر الإشارة إلى أنّ أعمال الكنس والتعامل مع مصارف المياه وِفق الثقافة الهندوسية المحيطة السائدة، تُعدّ أمرا لا يقوم به سوى طبقة المنبوذين.

لم يحسب نفسه أعظم من أن يقوم بأي عمل!

وصل ضيف ذات ليلة إلى منـــزله بعد منتصف الليل بمدة وكان جميع أهل البيت نياما، ولم يفِقْ على طرق الباب سواه والحمّال، وقام هو إلى الضيف وقدم له كأس حليب وطلب منه أن يستريح بينما ذهب والحمّال ليُعدا سريرا له، ويقول الضيف إنه ما لبث أن سمع صوت طرق بعد دخول أحمد والحمّال، فذهب وتتبع الصوت ليتفقد الأمر فوجد أحمد والحمّال يعملان بسرعة على صنع إطار للسرير، لأن جميع الأسرة كانت مشغولة، ولم يرغب أحمد في إيقاظ الخدم الذين يقومون بهذه الأعمال عادة، واتفق مع الحمال أن يرتبا هذا الأمر سريعا فيما ينتظر الضيف.

ذاع صيتُ حُسنِ ضيافته وتواضعه، فكان معروفا عنه أنه عندما كان يصل الضيوف منـــزله كان يسألهم عن الطعام الذي يحبونه وكيف يحبون أن يُعَدّ فراش نومهم.

تعامل مع تقصيرات الخدم بالصبر الشديد والعطف، فذات مرة حضر مجموعة من الضيوف إلى داره وكانوا يركبون عربة ويحملون معهم حقائب أمتعتهم، وكان الحمّالون مشغولين بأمر آخر فطلب الحمالون من الضيوف، بطريقة بدا لهم فيها شيء من الجفاء أن يقوموا بإنزال حقائبهم بأنفسهم فاعتبروا الأمر إهانة وأداروا عربتهم عائدين من حيث أتوا، ولما أُخبر غلام أحمد بما فعل الضيوف هبّ من فوره راكضا وراء عربتهم على قدميه واستطاع اللحاق بهم على مسافة خمسة أميال من منـــزله واعتذر لهم على سوء الفهم الذي حصل في استقبالهم وعاد بهم إلى منـــزله في قاديان، وأنزل

بنفسه حقائبهم معهم. ولمـــــا عاد إلى منزله لم يوبّخ خدمه على الموقف الذي تسببوا فيه فلم تكن تلك عادته أبدا، ولكن بعد عدة أيام قال في المسجد أنّه ينبغي على الجميع أن يُبدو مزيدا من الاهتمام والترحاب بالضيوف الذين يأتون من خارج قاديان، وأضاف قائلا لهم أنّ الضيف الذي يأتي مسافرا أميالا عديدة متجشما متاعب ومصاعب كثيرة يجد الراحة في وصوله مقصده، فإذا لم يَلْقَ الترحاب تكون خيبة أمله كبيرة، وعلى الجميع أن يبذلوا قصارى جهدهم حتى لا يجد أي ضيف خيبة أمل.

لم يكن كرمه تجاه ضيوفه مقتصرا على المأكل والملبس، بل كان ممتدًا إلى تطبيبهم والدعاء لهم. نزل عنده مرة رجل دين معروف، ولكنه مرض واشتد عليه المرض ليلا حتى شارف على الهلاك، وكان معه واحد من أصحاب أحمد، وقام صاحب أحمد ليبحث عنه في غرفته، وكانت الغرفة غارقة في الظلام فتوجه صاحب أحمد إلى الزاوية التي يعرف أن بها سريره ونادى عليه فردّ أحمد دون تأخر، فقصّ صاحبه عليه ما كان من أمر مرض الضيف الكبير، عندها توجّه أحمد بالدعاء لله في صمت ثم حضّر مزيجا من دواءٍ ما وناوله لصاحبه وقال له: "دعه يشرب هذا، إنّ الله عزّ وجلّ سوف ينقذه بإذنه تعالى". وفي صباح اليوم التالي كان الشيخ الضيف على طريق التعافي. عندها قال أحمد لصاحبه: الدعاء هو السلاح الحقيقي للمؤمن، والله هو الشافي. إنّ الدواء كان مسكنا.

كان من عادته كذلك أن يأكل مع ضيوفه ليتأكد من جودة ما قُدّم إليهم ومن خدمتهم على أكمل وجه، ولكنه في الحقيقة كان قليل الأكل وكان ينهمك أثناء الوليمة في إحضار الطعام والخبز الطازج لضيوفه ثم يجلس ليتناول بضع كسرات من الخبز وكان يمد يده إلى الطعام حتى لا يشعر الضيف بالإحراج من تناول المزيد.

مهما كان الوقت الذي يحضر فيه الضيف عنده لم يكن يجد إلا كُلّ ترحاب وحفاوة، حتى في الصباح الباكر كان يصل داره المئات – الذين هم حاليًا موجودون هناك– وكان أول من يستقبلهم بنفسه ويحييهم: "السلام عليكم ". ولما كان أي ضيف يغادر كان يودّعه كأنه قريب حميم ويطلب منه العودة مجددا. كثيرا ما كان يحدث أن يطلب بعض الضيوف طلبات غير متوقعة كالمصحف الذي يحبّه كثيرا، فمثلا طلب واحد من الضيوف عند مغادرته منـــزله مصحفه الصغير الحجم الذي يقرأ فيه عادة وعلل الضيف ذلك بأنّه يريده كتذكار منه، فلم يرفض طلب الضيف وأعطاه إيّاه دون تردّد. ولما سأله أصحابه لماذا فعل ذلك أجاب بأنه على الرغم من حبه الشديد لهذا المصحف ولكنّه تذكر الآية القرآنية:

﴿وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ﴾ [الضحى: ١١] لذا أعطاه إيّاه رأسًا.

الفصل السابع والعشرون

بركات الدعاء

لم يكن كرم أحمد وإحسانه مقتصرًا على أتباعه أو المسلمين فحسْب، بل امتدّ وشمل كل الناس بل كل مخلوق.

في تلك الأيام، لم يكن في قاديان كلها طبيب واحد، لذا وبسبب معارفه الطبية كان الناس يحضرون إليه طلبا للعلاج، وكانوا غالبا ما يأتون دونما سابق إنذار طارقين بابه في مختلف الأوقات على مدار اليوم. يروي صديق له أنّه قال له بعد مراقبته في ذلك اليوم، أنّ أحمد أمضى ثلاث ساعات يوزع الأدوية والعلاجات على الناس. زِدْ على ذلك أنّ غلام أحمد كان يدفع من جيبه الخاص لإحضار طبيب إلى قاديان لزيارة الناس للمعاينة الطبية، كما كان يدفع ثمن الدواء من جيبه أيضا.

كان يضع جانبا عُشر ما يدخل إليه من مال لينفقه كصدقات. تروي زوجة أحمد أنه في الواقع كان يتصدق بما هو أكثر بكثير من عُشر ماله. وكان يُعلّم أتباعه عادة حميدة بأن يضع المرء جانبا عُشر دخله حتى لا يدخل هذا العُشر ضمن ما يعدّه الشخص مالا ليتصرف فيه، وإلا فإنْ لم يوضع هذا المال جانبا، وكثُرت النفقات، فإنّ هذا العُشر المخصص للصدقات قد يُنفق أيضا.

ذات يوم ماطر في الشتاء طرق باب أحمد ساعي البريد، وقال معلّقا على حالة الطقس أنّه باردٌ جدا، وكان الرجل بلا معطف، عندها قام أحمد من فوره ودخل عائدا بمعطفين وسأل الساعي: أي معطف تفضل أكثر؟ فرد ساعي البريد أنه يريدهما الاثنين؛ فأعطاه أحمد المعطفين.

حتى عندما كان الموقف يتطلب التوبيخ كان أحمد يجده أمرا صعبا عليه فِعله. يُروى أنه وأثناء مروره سمع صراخا وبكاءً عاليين، فأُجيب أنّ خادمة قَد سرقت كمية من الأرز، فقال بلطف: ربما هي في حاجة إليه أكثر مما نعتقد فلا داعي لأن نعاقبها بقسوة، إنّ الله عَفُوٌّ فاعفوا عن الناس.

أعطى غلام أحمد ذات مرة قصيدة كتبها إلى صاحبه الحكيم نور الدين — وهو أول شخص بايعه– وطلب منه أن يترجمها إلى الفارسية ثمّ يقوم بتسليمها إلى سكرتيره عندما يفرغ من الترجمة، ليرسلها للطباعة. وبعد بعض الوقت اقترب السكرتير من نور الدين وطلب منه القصيدة ليرسلها، ثمّ ما لبث الحكيم أن تغيّر لونه وطفق يبحث في ثيابه ثمّ عرف أنه أضاعها. ولما أُخبر غلام أحمد بأمر ضياع القصيدة، توقّع نور الدين أن ينال منه توبيخا شديدا، ولكنّ كل ما قاله المرزا أنّه واثق بأنّ الله تعالى سوف يُبدله خيرا منها قريبا.

ردة الفعل نفسها على ضياع شيء ما، أعادها أحمد بعد بضع سنوات على ابنه محمود الذي كان وقتها يبلغ الرابعة من عمره، الذي دخل مع أقرانه غرفة والده بينما الوالد مستغرق في عمله، وكان مع محمود علبة ثقاب وجعل يلعب بالأعواد ويشعلها، فأتت الشرارات المتطايرة على مسودة كتابٍ ما وأحرقته، وامتلأت الغرفة بدخان الكبريت المثير للدموع ثم ما لبثت أنْ انطفأت النار من تلقاء نفسها على أرضية الغرفة الخالية من السجاد. كل هذا و أحمد مستغرق في عمله ولم يلحظ أي شيء. ولما احتاج المسودة التي احترقت، بحث عنها فأخبره صبيٌّ بما حدث فقال: حسنٌ، ربما كان هذا الذي ينبغي أن يحدث، أسأل الله أن يهديني بفضله إلى شيء أفضل.

كان مستغرقا تماما في عمله في سبيل الله على الكتابة والبحث، فلم يكن ينتبه إلى أوقات الطعام. رُوي أنّ الطعام كان عادة يوضع بجواره أثناء عمله، وحدث ذات مرة أنّ الطعام وُضِع بجواره وكان منهمكا كعادته، فدخل

كلبٌ وأكل الطعام وخرج و لم يشعر أحمد به، وكان أناس كثيرون يطرقون عليه الباب، ودخل عليه كذلك واحد من أبنائه قرابة العشرين مرة، وكانت أصوات حديث العاملين في بيوت الضيافة خارجا وضحكاهم تعلو أحيانا. كيف كان يستطيع التركيز إلى حد الاستغراق مع هذا كله؟ "إنني لا أُصغي إلى ما يدور من حولي لذا لا أنزعج منه".

كان لطفه وتسامحه مع جميع الخَــلْق دون استثناء. يقول خادمه (حامد علي) أنّه أرسل معه مرة مجموعة من الرسائل المسجلة الهامة ليرسلها من مكتب البريد، ولكن يبدو أنها انزلقت من جيبه عندما كان يرمي بعض القمامة فوجدها صبي صغير وعاد بها إلى غلام أحمد، فما كان منه إلا أن قال للخادم عندما رآه: يبدو أنك صرت تنسى قليلا يا حامد علي.

مع الوقت تنوَّع الضيوف الذين أتوا إلى قاديان من مختلف الملل والنحل. يقول عالم ديني من طائفة غير إسلامية أنّ طائفته قد انتدبته ليزور قاديان ويقف على صحة مزاعم أحمد، ولما وصل هذا الباحث قاديان، كان يتحدث بلغة بليغة وعبارات منمقة هادفًا إلى جذب السامعين أكثر من أن يعرض رأيًا، ثم ما لبث أن غيّر أسلوب خطابه وصار يتهجم على غلام أحمد، وحتى أنه صعّد نبرة الهجوم إلى محاولة الانتقاص من أحمد بأنْ صار يبدي تعليقاتٍ ساخرة على لهجته البنجابية. وكان من ضمن الموجودين في تلك الجلسة الحوارية العالم الأفغاني الجليل- والذي ينتمي لعِلية القوم في بلاده- السيد (عبد اللطيف صاحبزاده) والذي قصد قاديان ليتعرف على أحمد بعد أن سمع عنه، وبالطبع كان ردّ فعل عبد اللطيف على الإساءة التي بدرت من ذلك المتكلم أن غضب كثيرا وصار يتكلم بالفارسية – التي لا يفهمها المتكلم الساخر – وكان أحمد جالسا بجوار عبد اللطيف وقتها ويفهم كلامه الغاضب، فأمسك بيده بقوة مجبرا عبد اللطيف على الجلوس والاستماع في صمت إلى باقي الكلام. قال السيد عبد اللطيف عن تلك الحادثة لاحقا أنّ

الكلام كان مسيئا لدرجة كبيرة بحيث لم يستطع منع نفسه من أن يهِمّ بضرب الرجل الذي تفوّه به، ولكنّ أحمد بإمساكه بيده، منعه من القيام بأي حركة.

ليست هذه الحادثة هي الوحيدة من نوعها التي تعبر عن أخلاق غلام أحمد العالية، فبالنسبة لكل الخصوم يقول غلام أحمد ما معناه: ينبغي أن ندعو حتى لأعدائنا، لأنّ هذا الدعاء يطهّر القلب ويفتحه لاستقبال الأفضال الإلهية ويمنح الشجاعة. وما لم يتبع أفراد الجماعة هذا التعليم فلن يكون هناك فارق بينهم وبين المسلمين الآخرين. إنّ هذا أمرٌ في غاية الأهمية، إنّ عظمة الله تعالى وحلمه تتجلى في غفرانه للمسيء وإدخاله في الصالحين.

ومن جهة أخرى كان غلام أحمد يدافع عن صدقه وصدق دعواه، فكان دائما يُعلن كلما مرت السنوات أنّه لو كان دجالا مُتَقوِّلا على الله لأهلكه الله ولَما عاش هذه الفترة الطويلة؛ فيقول ما معناه: الحمد لله رب العالمين، لم يُصِبْني أي أذى، ووفقا للقرآن الكريم فلو كنت مدّعيا لأهلكني الله تعالى منذ فترة طويلة، ولكنّ بقائي على قيد الحياة واستمراري في دعواي لهذه السنوات لأكبر دليل وأسطع برهان على صدقي وإخلاصي. ويقول كذلك: لو هجرني جميع الخَلْق فإنّي متيقن أنّ ملائكة الرحمن ستنزل لمعونتي، لو حاول كل الناس أن يخفوا دلائل صدقي فسوف تشهد كل حجارة الأرض على أني مبعوث من عند الله تعالى.

وبتصميم الموقن يقول أحمد أنّه لن يتراجع عن الرسالة التي كلفه الله تعالى بها خوفا من الناس ومن معارضتهم، فغاية خَلْقه أن يؤدي رسالته كمسيح موعود للأمة، وإنه عازم يقينا على إتمام هذا الأمر بإذن الله تعالى.

وردًّا على من قد يتهمه بطلب الصيت والشهرة يقول: "وكنت في حيِّة قومي كميْت، وبيتٍ كلا بيت، وكنتُ مستورًا غير معروف لايعرفني أحدٌ في القرية إلا قليلٌ من الطائفة. وكنتُ أعيش في زاوية الكتمان لايجيئني أحد

من الرجال والنسوان. وكنتُ مخفيًّا من أهل الزمان ما قصدتُ بلدة من البلدان وما جُبتُ الآفاق وما رأيتُ العرب وما تقصيتُ العراق. وما كان لي والله سعةُ المال... فبشرني ربّي في تلك الزمن بأنّه سيكفيني في جميع المهمات ويفتح عليّ باب كل نعمة من التفضُلات" [الاستفتاء: ص٣٦].

انتهج أحمد في حياته التسامح، ونصح أتباعه به كذلك؛ حيث أكّد عليهم دائما أنّ كل معارضة أو عداء لاينبغي أن تُجابه بمثلها، وليكن التسامح هو البديل – كمافي قصة الأرز المسروق التي أوردناها آنفا. ونصح أتباعه بما معناه: كونوا صبورين، كونوا متسامحين، واكظموا غيظكم. ستدخلون في مناقشات دينية مع كثير من الناس فينبغي لكم أن تستخدموا تعابير مهذبة وأن تتحلوا بأخلاق كريمة، وحتى إن خاطبكم أحد ما بفظاظة فودّعوه وانصرفوا فورًا، أما إذا خوطبتم ببذاءة فاحذروا من أن تردُّوا بالطريقة نفسها؛ لا ينبغي أن يُــقابل الحُمْق بحمقٍ مثله.

إنّ حُسن الخُلُق مسألة جوهرية عند غلام أحمد، فيقول أنّ مَن سلك سبل الفسق وسوء الظن والفساد والأذى فليس من جماعته. وأنّ مَن لم يَقبل حياة الــمَسْكنة والتقوى والخير والتسامح والصبر ومَن لم يكُنْ حُسن الخُــلق مسلكه فليس من جماعته، ولا يقبل الله تعالى من لم يلتزم بهذه الأخلاق. لذا فاحذروا ولتَسْعوا أن تأتوا الله بقلب سليم، وأن تسلكوا سُبُل التواضع والصدق طول حياتكم.

لقد طبّق غلام أحمد ومارس جميع ما علّمه لأتباعه من تعاليم.

جَمَعت إحدى المناظرات الدينية في مدينة لاهور بين أحمد وعالم دين هندوسي كبير، وكان النقاش جاريا بينهما حين دخل رجل دين هندوسي آخر وصار يحاول أن يــَحُطّ من قَدْر غلام أحمد وأن يكلمه بلغة مبتذلة. شعر رجل الدين الكبير الذي كان النقاش جاريا معه بالخجل من مسلك زميله الذي اقتحم النقاش بكل وقاحة، وطلب منه أن يتوقف، ولكنّ غلام

أحمد أشار له أن يدعه يكمل كلامه. كان أحمد يسمعه ساكتا واضعا يده على فمه كعادته – وكان من عادته كذلك أن يضع طرف عمامته على فمه- ولم ينبس ببنت شفة حتى شعر المتهجم بالخجل وصمت، حينها سأله غلام أحمد بكل هدوء: أخي، إذا كنت تريد أن تقول المزيد فرجاء أكمل. ولكنّ الرجل المذهول مضى منصرفا. وبالطبع، تأثر الرجل الهندوسي الكبير بضبط النفس الكبير الذي شهده والذي يصدّق ما ينادي به فقال: لقد سمعنا عن تواضع المسيح الناصري، أما الآن فقد شهدت بعينيّ مثيل ما سمعتُ عنه، من المستحيل أن يفشل رجلٌ مثل هذا.

من الطبيعي أن يسأله أتباعه عن امتناعه عن الردّ على من يحاولون الحط من قدره أو إهانته، فكان رده: أنا أستطيع ضبط نفسي. والله تعالى بفضله قد وهبني السلام القلبي الذي يجعلني أتيقنّ من أنه لو وجد شخص دأب على الإساءة إليّ بأقذر الألفاظ مدة عام كامل فإنّه حتما هو من سيلحق به العار وسيضطر في نهاية الأمر أن يقر ويعترف بأنه لم يتمكن من هزيمتي أو حتى زحزحتي قيد أنملة. وفضلا عن التزامه هو بضبط النفس والصبر فقد طلب من أتباعه انتهاج ذات السبيل: من واجبكم أن تلزموا الصبر. كم من الوقت يستطيعون أن يسيئوا إليكم؟ سيتعبون في النهاية، إنّ لغتهم البذيئة ومؤامراتهم وسوء ظنهم لا تؤثر فيّ. فإن لم أكن مأمورا من عند الله تعالى لكنتُ خائفا من إساءاتهم ولكني موقن أني من عند رب العزة والجلال فكيف أخاف تدابيرهم الضعيفة؟ من يتأذى من هذه الإساءة؟ هم أم أنا؟ إنّ أتباعهم في تناقص مستمر، بينما يزداد بفضل الله أتباعي المخلصون يوما بعد يوم. إن لم تكن دعواي صادقة فلماذا يزداد المصدّقون بي، ولَمَ تزداد بفضل الله جماعتي؟

زاره في قاديان عالم مسلم مدة ثلاثة أيام وكان ينـــزل في أحد منازل ضيافة أحمد، ولم ينفك هذا العالم طيلة الأيام الثلاثة عن مهاجمة أحمد كلّما جمعه نقاش أو جلسة به، ولقد أبدى أحمد ضبطا عظيما للنفس وكان يحاور

ذلك الرجل بكل هدوء مفندا كلامه، ثم وجّه أحمد في النهاية سؤالا إلى رجل الدين أفحمه وأسكته، فأجاب رجل الدين: لقد عرفت الآن أنّك المسيح الدجال لأنه هو يملك القدرة على إسكات من يعارض إرادته!

ولما غادر هذا الرجل ودّعه أتباع غلام أحمد - كما علّمهم- وكانوا مرتاحين لرحيله، ولكنّ رجل الدين هذا أرسل إلى غلام أحمد بورقة يقول له فيها أنّه رجل معدم فقير ولا يملك نقود رحلة العودة، فماذا فعل أحمد؟ لقد خرج له بنفسه وأعطاه ١٥ روبية ولم يبدِها لأحد من أتباعه. إنّ هذه القصة لم تُعرف إلا عندما رواها رجل الدين هذا في منشور رسمي عن رحلته التي زار فيها قاديان وعن سؤاله أحمد المال.

كثيرا ما كان أحمد يعلّم أتباعه أنّه ليس بالمنطق والعقل يمكن للإنسان أن يشهد صدق الإسلام، وأنّ الرفعة ليست أبدا في احتقار الآخرين والتكبر عليهم ردّا على سخريتهم، إنّ من يفعل هذا يصبح قاسي القلب. إنّ النجاة الحقيقية هي الإيمان بالدين الحق ثمّ انتهاج سبيل التواضع والوقوف بكل ذل على عتبة الله تعالى، فالهلاك يحيق بالفاسقين وجهنّم دار الظالمين ولكنّ من يخرّ أمام الله بقلبه ينجو. وعلَّمهم أن يكونوا كالأطفال في طاعة أوامر الله تعالى، وليكن التواضع والبساطة في قلوبهم، وأن يطيعوا الله سرا وعلانية.

الفصل الثامن والعشرون

حياته العائلية

أمّا في المسجد فكان أحمد وكشأنه دائما غير بادٍ للعيان، فلم يكن في صدر باحته كما كان يتوقع أن يجده الزوّار، بل غالبا ما كان يقف في الزاوية أقصى اليمين في الصف الأول. كان السيد عبد الكريم السيالكوتي هو من يقف في الصف الأول في المقدمة وبالتالي كان هو من يستقبل الزوّار.

قَبْل أن يذيع صيت أحمد، تراوح عدد المصلّين من الستة إلى السبعة، أما وقد اشتُهر أمره بين الناس فصار يحضر الصلاة ألف من المصلين معظم الأحيان. وغالبا ما كان يقف أحمد في الصفوف الخلفية قريبا من المكان الذي يخلع فيه الناس أحذيتهم قبل الدخول إلى المسجد، ثم صار بعد ذلك يؤدي الصلاة في ملحق المسجد بسبب أنّ رجلا معتوها كان يحضر الصلاة وكان يعلق في رقبته عقودا تصدر أصواتا عند الحركة، ولم يرغب أحمد في تشتيت تركيز المصلّين لذا لازم أحمد هذا الرجل المسكين في الملحق حيث لا يمكن أن يتزعج أحد من صوت القرقعة.

لم يغِب كبار الشخصيات عن المشهد في قاديان، وغالبا ما ترددوا عليها، لدرجة أَنّ ممثل السلطان العثماني كان واحدا منهم. وعلى الرغم من وجود علية القوم عنده، لم يغير أحمد من معاملته المتواضعة الرفيقة بالناس العاديين الذين ما شعروا أبدا بالحرج معه، وكانوا يتحدثون معه في شئونهم بكل راحة، وكان يصغي إليهم لدرجة أنّه في بعض الأحيان كان يَنْفَدُ صبر أصحابه، كما حدث عندما جاء مزارع بسيط وظل يتكلم ويتكلم عن محاصيله وقصص أخرى عن الحصاد بعيدة كل البعد عن الأمور الدينية أو

الفكرية، ولكنّ أحمد استمع لهذا الرجل ولمثله بكل حبّ واهتمام حتى إنّ كل واحد منهم كان يعتبر أحمد صديقا حميمًا.

كان أحمد يهتم بشكل خاص بالناس البسطاء التي لا يلتفت إليهم أحد، ففي مناسبةٍ ما في بيته لاحظ أنّ رجلا مسنّا يتحرك صفا إلى الخلف كلما جاء المزيد من الشخصيات الهامة التي كانت تتقدم إلى الصفوف الأمامية من صدر المجلس، إلى أن وصل به أنّه صار فعلا خارج الباب، ولمـّا حضرت وجبة العشاء نهض أحمد من مكانه حاملا طبق الطعام بيده وتوجّه إلى الرجل وجلس بجواره قائلا له: "هيا لنأكل معا".

وبالاهتمام والحب نفسه تعامل أحمد مع الأطفال الذين تعاملوا معه كأنه صديقهم، وكثيرًا ما اعتلوا حجره وظهره ورووا له قصص الأطفال التي يعرفونها عن الضفادع والغربان والحيوانات، وكان هو يروي لهم القصص كما أخبر كثير ممن عايشوه. ومن هذه الحوادث الشاهدة على هذا الأمر، جاءت صديقة زوجته ونزلت ضيفة عندها مدة شهر، وبصحبتها ابنتها الصغيرة، التي كانت تسلي نفسها بأن تأتي إلى غرفته وتصفعه على ظهره لاعبة بينما كان يعمل، ثمّ ملّت الطفلة من هذه اللعبة وأرادت أن تغير فيها بأن يكون قريبا من الشباك فقالت له: "تعال وإجلس هنا لأنّ هذا أسهل علي"، وبالفعل قام من مكانه وجلس حيث طلبت الفتاة الصغيرة.

اعتاد الصبية القاطنون بجواره أن يقصدوه طالبين البركة والدعاء قبل توجههم إلى امتحانات القبول في الجامعة، وكان بالفعل يقف معهم ويدعو لهم، وحصل ذات مرة أنّه بعد لقائه بمجموعة منهم عاد داخلا إلى بيته وإذا بأحد يجذب معطفه بقوة من الخلف ويقول: "سيدي أنا كنتُ خارجا ولم أحضر معهم"، فالتفت مبتسما وصافحه وقال له: "إن شاء الله تعالى ستنجحون كلكم".

أما مع أولاده فقد كان متسامحا ودائم الاهتمام بهم، وكان يردد لمن حوله أنّ دعاء الآباء لأولادهم والأولاد لآبائهم يحظى بقبولية خاصة عند الله تعالى. اعتقد أحمد أنّ خير وسيلة لتربية الأبناء هي القدوة الحسنة، وعمل بنفسه بهذا الأسلوب، كما رفض العقاب الجسدي كوسيلة تربوية، يقول: إنّ ضرب الأولاد في رأيي يندرج تحت الشرك، وكأنّ الضارب الجلف يريد أن يُشرك نفسه مع الله تعالى في الهداية والربوبية... أمّا المطاردة الشديدة والتجاوز في الإصرار على أمر، أعني زَجْر الأولاد وعتابهم في كل صغيرة وكبيرة وكأنّنا نحن نمنحهم الهدى وسنهديهم إلى الطريق الذي نبتغيه، أقول إنّ هذا لَمِن الشرك الخفي الذي يجب على أصحابه تجنُّبه. [الملفوظات، ج٢، ص ٤-٥]

يتذكر أبناء وبنات أحمد أنّه كان يلعب معهم في طفولتهم، وأنّه كان يحملهم على أكتافه حين يأخذهم للتنـــزه، وكان يلاعبهم بلطف قبل أن يخلدوا للنوم. لم يشعر أحمد قط أنّ الاعتناء بالأطفال أمر أدنى من أن يقوم به حتى ولو كان تهدئة طفل في مزاجٍ صعب، يروي واحد من أصحابه أنّه كان مارًّا قرب غرفته في وقت متأخر من الليل وكان ابنه الصغير محمود مستيقظا حينها وكان يبكي، فسمع أحمد يقول لابنه محاولا أن يهدئ من بكائه: انظر إلى تلك النجمة اللامعة. فإذا بالصغير يردّ عليه بمزيد من البكاء: أبي، أنا أريد أن أذهب إلى تلك النجمة. فقال لزوجته حينها: كنت أريد أن أجد طريقة لإلهائه فوجد هو سببا آخر للبكاء!

إنّ الخوف من الله والرأفة بكل مخلوقاته هي من أكثر ما حرص أن يعلمه لأبنائه. فعندما كان بشير الدين محمود صبيا صغيرا مع والده في المسجد، حاول أن يمسك طائر سنونو صغير وذلك بأن يغلق باب المسجد فخاطبه قائلا: لا ينبغي لأحد أن يمسك الطائر الصغير في بيته، من لا يرحم لا يُرحم.

وفي حادثة أخرى مع محمود أيضا، ولكن في سن أكبر في عمر المراهقة تقريبا، عاد مرزا محمود إلى البيت يوما من الصيد مع أصحابه وقد اصطاد

ببغاء فقال له والده: صحيح أنّه طائر حلال أكله ولكنّ الله تعالى لم يخلق كل الطيور لنأكلها، بعض الطيور الجميلة خلقها تعالى لتكون بهجة للناظرين وبعض الطيور جعل الله عزّ وجل أصواتها جميلة لنستمتع بها.

كما أَوْلى اهتماما خاصا بتعليم أولاده وأشرف عليه كذلك. عاد بشير الدين عصر ذات يوم من المدرسة وسمعه أبوه يقول لأخيه ميان بشير الذي يصغره سنا أنّ المعلم في المدرسة طلب منهم أن يكتبوا موضوعا إذا كانت المعرفة أم الغنى أهم، وقال لأخيه أيهما برأيك أفضل؟ فتدخل عندها أحمد قائلا: لا هذه ولا تلك. إنّ فضل الله تعالى ورحمته هو القيمة الحقيقية الوحيدة التي ينبغي علينا أن نسعى لنيلها. وفي مناسبة أخرى روي عنه قوله في هذا الموضوع: إنّ الغنى المادي والمـُلك والعظمة والمناصب ليست الأشياء التي ينبغي أن يُغبط أصحابها عليها، إنّ الصلاة لله تعالى هي النعمة الوحيدة التي يـُغبط صاحبها عليها.

ولأنه كان يؤمن أن الصلاة هي مفتاح كل خير وأنه يحتاج لمن يسانده بالدعاء والصلاة فكان يطلب الدعاء من أهل بيته، إذ طلب من زوجته الأولى أن تدعو له عندما كانا طفلين، وطلب كذلك الدعاء من ابنه بشير الدين محمود عندما كان صبيا في التاسعة من عمره وكان يطلب كذلك من أولاده جميعا أن يدعوا له. وبالإضافة إلى حب الله والرفق بمخلوقاته غرس أحمد في أولاده الحب والاحترام العظيمين لوالدهم مرددا عليهم الحديث النبوي الشريف: الجنة تحت أقدام الأمهات. كانت علاقته بزوجته ووالدها مميزة جدا، ذات مرة اختلفت زوجته مع أمها حتى أنّ كلتيهما كانتا تبكيان كلٌّ في ناحية، فأخذ زوجته من يدها واقتادها إلى أمها، فما كان من زوجته إلا أن حنت رأسها أمام أمها التي رفعت رأسها وعانقتها وبالطبع زال كل اختلاف حينها، ومن دون أن ينبس بكلمة غادر الغرفة وتركهما متوجها إلى غرفته في الأعلى.

كان يرعى أولاده بنفسه على الرغم من انشغاله، فعندما مرضت ابنته البكر (عصمت) كان يمرّضها ساهرا الليالي بكل إخلاص وتفان حتى ماتت، ثمّ مات بعد ذلك ابنه الأصغر، ويقال أنّه بعد أن أخبر الناس بوفاة الطفل لم يذكر أحمد اسمه بعد ذلك أبدا على الملأ، كان أصحابه يعرفون أنّه حزن عليه بصمت في قلبه.

أما بالنسبة لزواجه، فكان أحمد مدركا جدًّا واجباتِه كزوج، وكان دائما يوصي أتباعه قائلا: إنّ المرأة هي أول شاهد على أخلاق الإنسان وصلته بالله فإن لم تكن علاقته بها جيدة فكيف يمكن أن يتصالح مع الله تعالى؟ لقد قال رسول الله خيركم خيركم لأهله؛ أي أنّ أفضلَكم أكثرُكم إحسانا إلى أهله. [الملفوظات، ج٥، ص ٤١٧-٤١٨]. هناك رسالة كتبها أحمد معزيا صديقا له بوفاة زوجته، والحقيقة أنّها تظهر احترامه الكبير للعلاقة الزوجية حيث جاء فيها ما معناه: إنّ الزواج رابطة إنسانية فريدة بحيث أنّ الزوج لا يستطيع أن يُفارق زوجه أكثر من بضعة أسابيع. فالزوجان يلازمان بعضهما كثيرا ويتشاركان في كثير من الأمور بحيث يصبح كلّ منهما جزءا من الآخر، إنّ بركات الزواج تهوّن الكثير من المتاعب والتجارب الحياتية وحتى إنَّها تمحوها. لاشك أنّ الذكريات والانطباعات التي تخلفها الحياة الزوجية في النفس عميقة جدا بحيث أنّه عندما تموت زوجة الرجل فإنّه من الصعب أن لا يتذكر هذه الذكريات دون أن تفيض عيونه بالدموع. والله سبحانه وتعالى قد ذكرنا كثيرا بهذا الحب المتبادل والإخلاص الموجود في الزواج، فالزواج هو منبع كل العلاقات البشرية.

وكان أحمد في حياته العملية مع زوجته لا يتدخل أبدا في الشئون البيتية تاركا حرية التصرف لها، فمرة قال له أحد أتباعه أنّه يختلف مع تغيير في مبنى ملحق بمنـــزله وكان هذا التغيير بناء على أمر من زوجة أحمد، فأجاب أحمد صاحبه بأن الشئون المنـــزلية تحت سيطرة زوجته وأنّ قرارها لا يُناقش. في

الواقع كان زواجه نموذجا للنجاح، فمن بدايته كان أحمد يعتقد بأنّه تمّ تحت عناية إلهية حيث أنّ السنة التي تزوج فيها هي السنة نفسها التي أعلن فيها بأنّه مجدد القرن، وكثيرا ما أشارت (أمان جان)_أي الأم أو أم المؤمنين كما سماها أتباع غلام أحمد_ بفخر أنّ مَقْدَمَها بدأ مرحلة سعيدة في حياة غلام أحمد، ويقول ابنه أنّ أحمد كان يبتسم عندما يسمعها تقول هذا ويردّ مؤكدا: أجل، هذا صحيح.

كانت زوجة أحمد نصرت جهان امرأة متديّنة تؤدي الصلوات الخمس بكل حرص وتعطيها الأولوية الكبرى، كما كانت تحرص كذلك على إقامة صلاة التهجد كلّ ليلة. ويروي أحد أبنائها قائلا أنها كانت تؤدي جميع صلواتها بكل متعة ووَجْد بحيث أنّ كل من حولها تأثّروا بهذه الحالة الروحانية من السعادة الداخلية، وأنّها كانت دائما تستمد القوة والطمأنينة القلبية من الصلاة في كل ساعات الليل والنهار. وأضاف ابنها كذلك أنّها كانت كثيرة الدعاء أثناء الصلاة بشكل عام، لأبنائها وبناتها وذوي القربى ولجميع أبناء الجماعة الإسلامية الأحمدية الذين كانت تعدّهم جميعا أبناءها وترعاهم وتدعو لهم كذوي القربى تماما، أمّا الأدعية التي كانت تجتهد فيها أكثر فهي التي تدعو فيها لتقدم الإسلام ولازدهاره حيث كانت تصلي وتدعو لهذا الأمر بالتوجّه القلبي الأكبر.

فضلا عن كونها امرأة عابدة كثيرة الصلاة فقد كانت محسنة معطاء وبوجوه شتّى، فعندما دُعي إلى جمع التبرعات السنوية لتمويل العمل التبشيري الأحمدي (والتي كان على الأحمديين أن يدفعوها على مدى العام) كانت تُرسل المال كلّه مقدَّما قائلة: لا يدري المرء متى يحلّ الأجل، وسيكون عبءٌ كبير على كاهلي حتى أدفع المبلغ المستحق كله. وكانت كذلك تنفق من وقتها وجهدها في رعاية الأيتام وغالبا ما كان يوجد في بيتها صبيّ يتيم أو فتاة يتيمة تقوم برعايتهم والعناية بهم فكانت تغسّلهم وتسرح شعرهم

وتطعمهم وتغير لهم ملابسهم بنفسها وكانت تقوم بكل هذه الأمور وتربي فيهم الإحساس بتقدير الذات أيضا. استمتعت أمان جان كثيرا بالقيام بالأعمال بنفسها فلقد طهت الطعام بنفسها، ونسجت وحاكت الملابس، وأطعمت وحلبت جواميسها بنفسها، وكان لديها دائما نباتات مزهرة ونباتات متسلقة من البقول الهندية ونباتات طبية كذلك. وعُرف عنها – كما يروي ابنها- أنها كانت شديدة الكرم مضيافة، فقليل ممن زاروهم لم يتناولوا الطعام عندها، وكان من دواعي سرورها أن تدعو جميع أبنائها وأحفادها في العيدين للعشاء وتطهو لهم جميعا على مائدتها.

علّم أحمد أتباعه أنّ برّ الوالدين من أقدس الواجبات على المسلم. جاء مرة إليه المولوي عبد الكريم السيالكوتي شاكيا أنّ عليه الآن أن يقضي وقتا كبيرا في رعاية أمّه التي أصبحت مسنة وضعيفة، فأجابه غلام أحمد على الفور بأنّ واجب رعاية أمّه واحترامها وحبّها هو واجب مقدس ينبغي عليه أن يؤديه وتلا حديث نبي الإسلام: أتاني جبريل فقال: رَغِمَ أنفُ رجل أدرك أبويه أو أحدهما لم يدخل الجنة، قال: قلت: آمين، ورَغِم أنف امرئ أدرك رمضان لم يغفر له قال: قلت: آمين. [البخاري ومسلم]

وجّه أحمد انتباه أتباعه بشكل خاص إلى التواضع والصدق والإحسان مع جميع الخَلْق، وكان من نتيجة التزام أتباعه وصحابته بهذه التعاليم أن انضم الكثيرون إلى الجماعة الإسلامية الأحمدية لأنهم تأثروا بالأخلاق السامية لأصحابه. هناك رجلٌ اسمه (عمر دين) حضر خطبة لغلام أحمد لأول مرة، وكانت الخطبة تتناول بشكل أساسي أداء حقوق ذوي القربى، يقول الرجل أنّه شعر بأن الكلام موجه له بشكل خاص كما لو أنه يتحدث عنه، فلمّا عاد إلى بيته في كشمير قام على الفور بأداء حق أخيه عنده، وهو نصيب من ملكية كان قد اغتصبها من أخيه.

يروي رجل دين هندوسي عاصر أحمد أنّه كان صبورا لطيفا دمث الأخلاق ولكنّه كان أسدا في المناظرات. أما أحمد نفسه فيقول ما معناه: إني أعلن لكل المسلمين والمسيحين والهندوس والآريا أني لا أعادي أحدا في العالم. وأني أحب البشرية كلها كما تحب الأم أبناءها ولكنّي أعادي العقائد الباطلة التي تهدم الحقيقة.

لم يعر أحمد أدنى التفات لكل التهديدات التي تلقاها بالقتل والتي وصلته برسائل مجهولة الـــمُرسِل ولا تحمل طوابع بريدية، لقد كان يتلقى هذا النوع من الرسائل في كل مرة يتسلم البريد فيها. قال عن هذه التهديدات: إني أؤمن إيمانا جازما بأنه لا خطَر عليَّ البتة... إن روحي ليست بروح هالكة، وليس في طبيعتي شائبة الفشل والإخفاق. لقد أعطيتُ من العزيمة والصدق ما تتقاصر دونه الجبال. إني لا أبالي بأحد. لقد كنتُ وحيدا، ولم أكنْ ساخطًا على وحدتي. أيخذلني الله؟ كلا، إنه لن يخذلني أبدا. أيضيّعني الله؟ كلا، إنه لن يضيّعني أبدا. سيصبح الأعداء أذلاء، ويصير الحساد نادمين، وسيكتب الله لعبده الفتح في كل ميدان. إنني معه وهو معي، لا شيء يمكن أن يقطع صلتنا. [أنوار الإسلام، الخزائن الروحانية، المجلد ٩، ص ٢٣-٢٤]

وكان يلفت انتباه أتباعه إلى أنهم سيلقون الكثير من الامتحانات والبلايا بسبب اتّباعهم إياه، وقال لهم: عندما تتركوني وتعودون إلى حياتكم سيقول لكم الناس أنكم بايعتم دجالا أو كذابا، فلا تُبالوا بما يقولون بل ادعوا لهم عسى الله تعالى أن يهديهم كما هداكم وإذا وجدتموهم لا يلقون بالا لندائكم فكفّوا. إذا كان من بينكم من لا يريد أن يتّبعني ويسير على خطواتي فليغادر جماعتي... أنا لا أعرف ما الأدغال المليئة بالأشواك التي تنتظرني، وضعاف النفوس لن يكونوا قادرين على اجتياز الامتحان ولكنّ جماعتي لن تنفصل عني مهما كانت الامتحانات والبلايا... جميع الأنبياء قد قوبلوا بالمعارضة والرفض، وهذا ميراث الأنبياء فكيف أُحرم منه؟ ينبغي عليكم أن

تتحلوا بضبط ثوائر النفس الكامل وكظم الغيظ بحيث لا يمكن للغضب أن يتملّككم، إنّ الله تعالى يحب الصابرين ويحب القانتين الذين يطيعون أوامره، فافهموا وحي الله حتى تَثْبتوا.

الفصل التاسع والعشرون

المنارة البيضاء

لم يُعرف عن أحمد أنّه هرب يوما من مناظرة ما، ولكنّه الآن مُطالَبٌ بحضور مناظرات دينية في جميع أنحاء الهند، ولاحقا سيكون عليه المشاركة في مناظرات في بريطانيا والولايات المتحدة وبلدان أخرى عديدة.

في بادئ الأمر اقتصرت المعارضة على بعض المضايقات البسيطة، ثم بعد وقت غير طويل جاء وقت المعاناة وسقوط الشهداء الأوائل الذين أعدموا بظلم بالغ لرفضهم الارتداد عن عقيدتهم في نبوة أحمد. وكلما نمت الجماعة الإسلامية الأحمدية وزاد تأثيرها واحترام الناس وتقديرهم لها في الهند والعالم، أثار هذا مشاعر الحقد والغيرة للمعارضين في قاديان وغيرها. وشيئا فشيئا، ولج المعارضون لأحمد من المسلمين والهندوس والسيخ بعيدا في إيذاء ومضايقة أحمد وأتباعه ووصلوا حدودا دفعت به إلى التفكير في الهجرة من قاديان. لقد كان حال غلام أحمد في قاديان مصداقا للقول المأثور "لا كرامة لنبيّ في وطنه".

لقد كان أتباعه يلقون الإيذاء لأتفه الأسباب، حتى لو حاولوا جلب الطين من مستنقع القرية لعمل الطوب منه، تجمع حولهم المعارضون ودفعوهم بالقوة مسقطين أحمالهم. ولما كان عبد الكريم السيالكوتي يخطب الجمعة كان واحد من أبناء عم أحمد - والذي يكرهه كراهية شديدة- يحمل بيديه طبلا وعصا وكلّما تكلم عبد الكريم كان ابن العم هذا يقوم بالتشويش عليه بأن يقرع الطبل. وعلى الرغم من أنّ المولوي عبد الكريم كان معروفا بقوة نَفَسه وطبقة صوته ولكنّه اضطر في نهاية الأمر إلى أن يكتفي بترديد جزء من آية قرآنية بصوت خافت: "... وَيْلَكُم ...".

كما ذُكر في فصل سابق، أوصى أحمد أتباعه بأن ينتهجوا سبيل الصبر والتسامح مع المعارضين، إذ حدث مرة وأثناء غياب غلام أحمد عن قاديان أن هوجم واحد من أتباعه بضراوة ودون أن يوجد ما يحدّ من هجوم المعارضين الذين كانوا من السيخ هذه المرة والذين قاموا بالسطو على منـــزل هذا الأحمدي، ثمّ ما لبث أن تطور الأمر إلى قتال شوارع حضرت على إثره الشرطة لتجد آثار أعمال النهب جلية بيّنة، وأُلقي القبض على المهاجمين السيخ وكُـــبّلوا بالأصفاد وتم اقتيادهم إلى السجن في الحال. وما كان من غلام أحمد إلا أن جمع أتباعه وقال لهم في أنفسهم قولا بليغا حول ردّ فعلهم على الاستفزاز وأهم ما كان ينبغي لهم ذلك، ما أثار إعجاب زعماء السيخ وتأثرهم العميق، وبالإضافة إلى ذلك تدخل أحمد لإطلاق سراح السيخ المعتقلين.

للأسف لم يؤدِّ خُلُق غلام أحمد وأتباعه إلى توقف الاضطهاد الذي استمر بل ازداد شدّة بحيث فكّر في الهجرة إلى مدينة أكبر. فمسألة الهجرة ليست بشيء جديد على الأنبياء، فجميع الأنبياء بما فيهم نبي الإسلام محمد قد أُخرجوا من ديارهم؛ وما جرى عليهم يسري عليه أيضا. وبمجرد طرح الفكرة على أتباعه عُرضت عليه البيوت في مختلف مدن البنجاب، ولكنّه آثر في النهاية البقاء في قاديان.

وفي قاديان كان هناك أشرس مبغضي أحمد كراهية وعداوة لا لسبب ديني أو عَقدي بل لدوافع شخصية محضة، من أشد هؤلاء أرملة أخيه قادر. لقد كان من العسير عليها أن تتقبل فكرة نجاح شخص كان يُنظر إليه نظرة دونية كما كانت تفعل معه دائما. فضلا عن هذا، فإنّ وجود غلام أحمد بحدّ ذاته هو طريق عثرة في أن تؤول ملكية ميراث زوجها من عقارات العائلة لها وحدها، لقد كانت تنكر حق أحمد في نصف دخل العائلة العائد من الأراضي والعقارات وكل ما تركه والده، وتحاول إنكار حقيقة أنّه يمكن

لغلام أحمد العيش في منــــزل العائلة بعد أن كان لا يشغل سوى غرفة صغيرة منه. لقد زادت كراهيتها له بعد وفاة زوجها، ولم تكن قد رُزقت وميرزا قادر أي أطفال لا ذكور ولا إناث ما يعني كذلك أن زعامة قاديان سوف تنتقل طبيعيا إلى أحمد ما أجّج مشاعرها السلبية تجاهه. وكانت هي وزوجها قد تبنيا- بمعنى كَفِلا ورَبَّـــيا- ابني غلام أحمد من زواجه الأول. وكان الابن الأكبر لغلام أحمد أي سلطان أحمد قد تزوج ابنة أخيها مرزا نظام الدين الذي كان يعيش في مُلكية مجاورة، وكنتيجة لهذا الزواج فقد تم توريط سلطان أحمد للأسف في مؤامرة ضدّ أبيه.

كان شأن مرزا نظام الدين ولعدة سنوات أن يلاحق زوار غلام أحمد ويضايقهم ويؤذيهم وينابزهم بالألقاب عندما كان يصادفهم أثناء مرورهم بالقرب من منــــزله، ثمّ وبعد رغبة أخته في الاستيلاء على ميراث زوجها، فكر في حيلة أشدّ لإلحاق المزيد من الضرر بغلام أحمد. وبالفعل وفي شهر كانون الثاني/ يناير عام ١٩٠٠ قام نظام الدين ببناء جدار ارتفاعه ثمانية أقدام — أي نحو مترين ونصف- عبر الزقاق المؤدي إلى منــــزل أحمد ما يترتب عليه من الآن فصاعدا أنّ على كل من يريد زيارة أحمد أو أن يذهب للمسجد الذي يوجد فيه، أن يسلك طريقا ملتفا طويلا يمر به عبر أزقة قاديان الخلفية غير المعبدة التي تمتلئ بالطين في مواسم المطر حتى يغمر كاحل المارة، وفوق هذا كان الزائرون يجدون في هذه الأزقة المعارضين الشرسين الذين كانوا يضايقون الزوار بالألفاظ المؤذية ويرشقونهم أحيانا بالطين، وفي أحيان قليلة كانوا يعتدون على الزوار بالضرب. الأسوأ من هذا أنّ هذا الجدار قد منع من ينجحون في بلوغ المسجد من الوصول إلى بئر الماء للوضوء قبل أداء الصلاة. ودون جدوى، حاول أحمد إيجاد حلّ أو نوع من الاتفاق مع ابن عمه حول هذا الجدار، غير أنّ الرفض والضحك المستهزئ

كان الردّ الذي لقيه فاضطر حينها وعلى مضض أن يتخّذ إجراءً قضائيا، وللأسف كان ابنه في جهة الغرماء.

قدمت المستندات والوثائق من قبل المتقاضين إلى المحكمة، وكانت واحدة من هذه الوثائق التي قدمها نظام الدين تؤكد ظاهريا ملكيته للأرض التي بنى عليها الجدار، حتى أنّ محامِي أحمد نصحوه بشراء الأرض التي بُني عليها الجدار لفض النـــزاع، فقد بدا لهم أنّ نظام الدين قاب قوسين أو أدنى من كسب القضية. وكان ردّ نظام الدين على طلب شراء الأرض هو الرفض والاحتقار والتبجح بأنّه سيبني جدارا يحيط بمنـــزل أحمد نفسه بحيث لن يتمكن أحد من الدخول إليه، وادّعى كسب القضية عاجلا وتفاخر بهذا. ولكنّ المحكمة التي بحثت في المستندات المقدمة من قبل الطرفين وجدت أن اسم والد غلام أحمد أي مرتضى، موجود على وثائق الملكية التي قدمها نظام الدين ما يعني أنّ غلام أحمد كوريث لوالده هو مالك أيضا لهذه الأرض، ثمّ أعلن القاضي أنّ الشهود المتقدمين من طرف مرزا نظام الدين ليسوا بأهلٍ للشهادة على عكس الحاضرين من طرف أحمد، وعليه فقد قرر القاضي أنّه على نظام الدين هدم الجدار ودفع تعويضات عن الأضرار التي تسبب بها كذلك. ولكنّ التعويض لم يُدفع، عندها قام محامو غلام أحمد ودون الرجوع إليه بالتقدم بدعوى قضائية أخرى تُلزم نظام الدين دفع التعويضات. ووصل حاجب المحكمة إلى قاديان ليتسلمها وهنا اتضح أنّ نظام الدين غير قادر على توفير المبالغ المطلوبة فباشر الحاجب بالحجز على ممتلكاته لمصادرتها بُغية توفير قيمة التعويضات المالية. في تلك الليلة قام نظام الدين وأخوه — الذي كان مشاركا أيضا في هذه المؤامرة — بإرسال رسالة إلى أحمد طالبين العفو والرحمة. كتب نظام الدين: لا أملك المال. وعليّ أن أبيع ممتلكاتي لأوفر نفقات المحاكمة. فماذا فعل غلام أحمد؟ ردّ عليه فورا بأنّه أعطى توجيهاته بأن يتم سحب الأمر القضائي. ثم شرح لأتباعه ما فعل قائلا: لسنا مهتمين

بهذا النوع من المحاكمات، هذا صنيع الأشخاص الذين لا شاغل لهم سوى المكاسب الدنيوية، والله تعالى لم يُرسلني لهذا. إذا كان ابن عمي قد تعمّد إيذائي فلا ينبغي أن أكيل له بالمكيال نفسه.

ليس هذا فحسب، بل قد تقدم المعارضون بإجراء قضائي ضده لمنعه من بناء (المنارة البيضاء) في قاديان. إنّ المنارة البيضاء ترمز إلى قدوم المسيح الموعود كما أشير له في الحديث النبوي حيث قال نبي الإسلام: "ينـــزل عيسى ابن مريم بشرقي دمشق عند المنارة البيضاء" [أخرجه البخاري]. وكما هو معلوم فإنّ المنارة تعني البناء المنير وتعني وقت انتشار النور، واللون الأبيض هو رمز للطهارة والنقاء والإشعاع[١٥].

يقول غلام أحمد أنّه لا ينبغي أن تؤخذ هذه الأحاديث على حرفيتها وظاهرها، ويقول مفسرا حديث نبي الإسلام محمد بأنّ المسيح الموعود عندما يبعثه الله تعالى سيكون مكانه مصدرا للأنوار الروحانية وأنّ المسافات لن تكون عائقا في وجه تألق هذه الأنوار، وأنّ صدق الإسلام سيظهر ويكون كالمنارة المرتفعة التي تُنير بعيدا بحيث يظهر على جميع الأديان. ولكنّ أحمد رغب كذلك في أن يحقق هذه النبوءة بظاهرها كما كان هو تحقيقا معنويا لها، وكان يريد أن يصدح المؤذن بالأذان خمس مرات يوميا من هذه المنارة معلنا أن لا إله إلا الله وأن لا إله يستحق العبادة سوى الله تعالى. وثانيا، أن تكون بها أضواء تثبت في أعلاها لتنير ليلا وتكون هدى للسالكين في الظلام بحيث تكون رمزا يتنبه به الناس إلى أنّ عصر الأنوار السماوية والرفعة

---

[15] لا شك أن المنارة كانت تبنى قبل الإسلام لإرشاد السفن على الموانئ، ولكنها دخلت العمارة الإسلامية للمساجد لاحقا لترشد الناس إلى مكان المسجد من بعيد فيصلوا إليه لأداء الصلاة، وكذلك للمسافرين الذين يرغبون في الراحة والضيافة أثناء سفرهم. وقد تنبأ النبي ﷺ في هذا الحديث ببناء هذه المنارات بكثرة في المستقبل والتي ستكون من ضمنها منارة المسيح. (المترجمة)

الروحانية قد حان. وثالثا أن تكون بالمنارة ساعة تدق كل ساعة وترمز إلى أنه وفي هذا المكان وفي هذا الوقت تفتح أبواب السماء ولا مجال لحروب بالسيف لنشر الدين.

منعًا لتحقيق هذه الرغبة، اتحدّ معارضو أحمد في قاديان وضافروا جهودهم ليُرفض طلبه لبناء المنارة، فادّعوا تارة أنها بناء مرتفع مُشْرِف سينتهك خصوصياتهم حيث أنّ الناس الذين سيعتلون المنارة سيتمكنون من استراق النظر إلى حرمات البيوت في قاديان، وساقوا هذه الحجج السخيفة وأظهروا المزيد من سوء طباعهم ومشاعرهم العدائية. وللبت في موضوع بناء المنارة، أرسلت الحكومة المحلية موظفا مندوبا عنها ليستطلع الأمور فتقدم له أشرس معارض لأحمد، ألا وهو رجل يدعى (لالا بودا مال)، فاقترب أحمد مشيرًا إليه ومخاطبا الموظف الحكومي: "سَلْهُ إذا كان قد صادف أبدا فرصة لإيذائي وتركها، وسله إذا ما أنا صادفتُ فرصة للإحسان إليه وتركتُها"، فأطرق (لالا بودا مل) رأسه واجما. ثم وصل التقرير حول النـــزاع في مسألة بناء المنارة إلى السلطات المعنية وصدر القرار بأنّه لا يوجد مانع يمنع من بناء المنارة.

ومع أنّه وضع أساساتها إلا أنّ بناءها لم يُستكمل إلا بعد عدة سنين من وفاته.

واليوم، تجدون صورة هذه المنارة على جميع مطبوعات الجماعة الإسلامية الأحمدية وعلى العلم الخاص بالجماعة الأحمدية الذي يرفعونه في اجتماعاتهم السنوية في جميع أنحاء العالم.

الفصل الثلاثون

الإسلام يتوجه غربًا

لا شك أنّ كل تلك الأفعال والمضايقات الصادرة عن المعارضين لأحمد هي تعبير عن أحقاد شخصية ومشاعر حسد. ولكنّ المرحلة التي تلت، أدخلت أحمد في مواجهات سيلتفت إليها العالم كله وستلقى أصداء واسعة كما سنرى.

إنّ المنارة والمؤذِّن الذي ينادي المؤمنين للصلاة هو أمرٌ قائم منذ بدايات الإسلام ويمارس بالطريقة التقليدية نفسها إلى اليوم، ولكن حتى يصل نداء دعوة أحمد لملايين الناس في العالم، لابد من توظيف كل وسائل الاتصالات الحديثة المتاحة في زمنه. كانت الصحف في تلك الأيام الوسيلة الأسرع لمخاطبة الناس في كل أرجاء الأرض وكلٌ بلغته، وكانت الصحف قد وصلت قاديان بالفعل وبمختلف اللغات، كما توافرت كذلك في كل أرجاء الهند. وهنا لابد من الإشارة إلى أنّ لغة الطبقة المتعلمة أو النخبة في الهند كانت الإنجليزية التي انتشرت في كل الأديان والطبقات والمقاطعات من (راجات) و(مهراجات)، فضلا عن ذلك كانت اللغة الإنجليزية الباب الذي يُدخل منه إلى الغرب. وقد أدرك أحمد أنّه يستطيع بها مخاطبة الناس في الولايات المتحدة الأميركية وكل بلد من بلدان التاج البريطاني، وشمل التاج في تلك الأيام معظم بلدان أفريقيا، وأرجاء واسعة من جنوب شرق آسيا، ومناطق هامة من الصين، فضلا عن بلدان قارة أميركا الجنوبية، ولهذا الغرض- أي نشر دعوته- فكّر غلام أحمد في إنشاء صحيفة ناطقة باللغة الإنجليزية تخاطب أصحاب الفكر.

وكما قام أحمد بالدعوة إلى الإسلام وجذب الرأي العام الهندي إليه عن طريق بيان كمالاته ومحاسنه مقارنة بالديانات الأخرى، رأى أن يقوم بهذا

الأمر ولكن على مستوى العالم وليس الهند وحدها من خلال المجلة الإنجليزية التي سمّاها "Review of Religions" أي مقارنة الأديان، واختار لرئاسة تحريرها السيد محمد علي وهو عضو في نقابة المحامين في لاهور. وقد جاء في نشرتها الأولى التمهيدية بأنها سوف:

تقدم ليس فقط عرضا غير منحاز للأديان المختلفة وفرزا للحقيقة من الأغلاط المتعلقة بها، بل ستقدم الحلول للأسئلة الجوهرية المطروحة حول الأديان الموجودة والتعاليم التي تقوم عليها. وسيكون لزاما على رئيس تحرير المجلة أن يستقبل كل المساهمات من السادة الراغبين بالمشاركة بغض النظر عن وجهات نظرهم الفكرية، والذين يميلون إلى الأهداف التي قامت عليها هذه المجلة. نحن لم نؤسس هذه المجلة لتكون مغامرة فكرية، بل بدافع الإخلاص لمهمة أداء واجبنا تجاه الإنسان الباحث عن الحقيقة، وأن نلبي حاجته دون أن نهتم باستحسان مذهب ديني بعينه.

لم يحدث في تاريخ الإنسانية قط أنْ لم يُضايَق أو يُشتَم رجلٌ دعا إلى الحق، ولم يُستثنَ من هذه القاعدة مصلحٌ ولا نبي البتّة. ولأنّ الطبيعة البشرية هي السبب وراء هذا الأمر ولأنها لم تتغير، فنحن لا نتوقع معاملة مختلفة، ولكننا وبمنتهى الإخلاص والصدق ننصح كل باحث عن الحق وكل من يتمنى الخير للإنسانية جمعاء أن يقدّر دوافعنا وأسبابنا قبل إصدار حكمه علينا.

هناك هدفان ننشدهما من وراء إصدار "Review of Religions"، فأولا نرغب في تعريف العالم إلى الحق أي إلى الأخلاق الحميدة الحقيقية وغرس العقائد السليمة ونشرها، أمّا الهدف الثاني فهو حثّ الإنسان على العمل بتعاليم الحق التي يقتضيها هذا الإيمان.

رأى غلام أحمد أنّ معرفة الفضائل وحدها ليست كافية لجعل الإنسان صالحا فاضلا، لذا كان الهدف الثاني للمجلة هو: شدهم بقوة جذب كبرى بدرجة تخلق فيهم طاقة العمل وفق التعاليم التي عرفوها وقبلوها.

ثمّ أجمل رئيس التحرير نشرته التمهيدية بتعريف المجالات البحثية الستة التي ستخصص المجلة لها صفحاتها:

- تبيان من هو الـــمُصلِح الـــمُلهَم.
- إظهار العلامات وبيان الحجج التي تؤيد صِدق زعمه.
- شرح التعاليم الأخلاقية التي يدعو إليها.
- شرح العقائد التي يدعو إلى اعتناقها وتلك التي يدعو إلى تركها.
- عرض الحقائق والمعارف التي تقدمها تعاليمه والكتب السماوية التي تقوم عليها.
- إلقاء الضوء على السبيل التي يُقدمها هذا المصلح للوصول إلى الله تعالى.

وبالفعل كان الإصدار الثاني للمجلة – الذي تلا هذا الإصدار التمهيدي- مصداقا لما وعد به رئيس تحريرها؛ تنوعت المقالات حول المسيح الناصري واليهود، والتبشيريين المسيحيين والموظفين الحكوميين، الدين كعلم، والوحدانية في مقابل التثليث، وعقيدة المسيحية في الخلاص، وشواهد من قوانين الطبيعة، وشواهد من الطبيعة البشرية، وشواهد من الكتاب المقدس، وشواهد حول ألوهية يسوع، ومقارنة بين يسوع ومحمد.

طُبعت المجلة في دار النشر الخاصة بالجماعة الإسلامية الأحمدية في قاديان ووزعت في كل أرجاء الهند، وبريطانيا العظمى، والولايات المتحدة الأميركية، ودول أخرى ناطقة باللغة الإنجليزية.

علّقت مجلة "The Church Family" أي أُسرة الكنيسة، وهي لسان حال الكنيسة الأنجليكانية على مجلة مقارنة الأديان: إننا لن نقوم بأي محاولة لتفنيد ما يُقدم من مقالات تحت توجيه مرزا غلام أحمد، وإلا فإنّه سيقوم بنشر كَمٍّ ضخم من المقالات ضد المسيحية ما قد يؤدي إلى هدم تأثير الكتاب المقدس تماما.

وكما كان غلام أحمد من قبل -داخل الهند- لايترك نقدا ضد الإسلام يمرّ بصمت دون أن يردّ عليه ويفنده، فإنّه سيقوم أيضا بالدفاع نفسه عن الإسلام ولكن هذه المرة في الولايات المتحدة الأميركية أو في بريطانيا. وأوّل رجلٍ ظهر في هذا المضمار هو جون ألكساندر دوي "John Alexander Doe"، وهو اسكتلندي من مواليد إدنبره هاجر إلى أستراليا بعد أن تدرب كــكاهن، واشتهر لدعوى قدرته على الشفاء. هاجر القس دوي إلى الولايات المتحدة عام ١٨٨٨. وفي عام ١٩٠١ بدأ ببناء مدينة في ولاية إلينوي أسماها مدينة صهيون. كَنَّ دوي عداء مريرا للإسلام وفي مجلته التي ليست اسما على مسمى "Leaves of Healing" أي أوراق الشفاء، كتب مرة: أنا أفكر في زيف محمد بكثير من الامتعاض [المجلد ٧، العدد ٥، عام ١٩٠٠]

كما قال أيضا: أنا أُحذر الأقوام المسيحيين في أميركا وأوروبا بأن الإسلام لم يمت، وأنه ما زالت فيه قوة كبيرة، لذا لابد من تدمير الإسلام والمحمديين (المسلمين).

وكعادة أحمد فقد قام للتحدي: نودّ أن نُبيّن بكل احترام أنّه ما من داع للقضاء على ملايين المسلمين حتى يتحقق مراده، فهناك طريقة يسيرة جدا تظهر ما إذا كان إله السيد دوي هو الإله الحق أم إلهنا تعالى. وما من داع أن يُعلن السيد دوي المرة تلو الأخرى نبوءته بدمار جميع المسلمين، وأقترح عليه أن يضعني أنا وحدي في اعتباره ويدعو ويصلي أن يهلك الكاذب من بيننا — أنا وهو- قبل الآخر. إنّ السيد دوي يعتقد أن يسوع إله وأنا أعتقد أنه مخلوق ضعيف ونبي مُكرم. وتابع غلام أحمد: ... إنّني لم أكن البادئ باقتراح هذا الدعاء بل إنّ السيد دوي بإعلاناته المتكررة قد وضع نفسه في هذا الموقف، والله تعالى الذي يرى كل هذا والذي يغار لدينه قد حثّني على هذا التصدي. وليكن معلوما أنني لست مجرد مواطن عادي من مواطني هذا البلد، بل إنني المسيح المنتظر الذي ينتظره السيد دوي، والفرق الوحيد أنّ السيد

دوي يقول أنّ المسيح سوف يظهر خلال خمس وعشرين سنة وأنا أُعلن أنّه قد ظهر فعلا وأنّني أنا هو ذلك الـــمُنتظَر وقد تجلّت المئات من الآيات لتأييدي في الأرض وفي السماء، وقد وصل الآن تعداد أفراد جماعتي إلى ما يقرب المائة ألف ويزيدون باطرادٍ مستمر.

في ذلك الوقت كان عمر السيد دوي ٥٦ عاما وكان موفور الصحة، أما أحمد فكان يكبره بعشر سنوات ومعتل الصحة لأنه يعاني مرض السكري، والدوسنتاريا، والشقيقة، وفقر الدم. والواقع أن مجريات حياته لم تتوافق أبدا مع وضعه الصحي، وإنما كما يقول هو كانت بأمر الله تعالى.

وقال أحمد أيضا: ...فبدلا من القضاء على جميع المسلمين، يمكن أن يتحقق غرض السيد دوي بموتي أنا والذي سيكون علامة كبرى وآية بينة سيؤمن على أساسها الملايين من الناس أن ابن مريم هو الإله الحق.

... والحق هو أنّ عيسى ابن مريم وأنا من عند الله تعالى، ألا بورك من عرفني، وما أتعس ذلك الإنسان الذي حُجِبتُ عن عينيه. [مقارنة الأديان أردو، ج ١، عدد ٩، ص ٣٤٦-٣٤٨]

لقي تحدي غلام أحمد دويا هائلا في الأوساط الإعلامية في مختلف الولايات الأميركية، فمثلا ذكرت صحيفة "The Argonaut" الصادرة في سان فرانسيسكو أنّ غلام أحمد قد قدم تحديا من الصعب جدا تجاهله.

كرَّر غلام أحمد دعوته بأكثر من صيغة بأنّ على السيد دوي هو أيضا الدعاء والصلاة بأنّ يُهلك الله تعالى الكاذب منهما قبل الآخر وأن يموت الكاذب في حياة الصادق، وأنّ من تُستجاب صلاته ودعاؤه سيكون الصادق من عند الله تعالى. علّقت صحيفة "The Argonaut" على إعلان غلام أحمد قائلة: إنّ هذا بحق الأسلوب الأكثر عقلانية وهو موقف عادل لا شك. (كانون أول/ ديسمبر ١٩٠٢)

ولكنّ دوي لم يستجب للتحدي، وبدلا من ذلك قام بالدعاء علانية على صفحات مجلته "أوراق الشفاء" في ١٤ شباط/ فبراير١٩٠٣: إنّني أدعو الربّ أن يختفي الإسلام من العالم في القريب العاجل، يا إلهي استجب لدعائي يا إلهي اقض على الإسلام...

في الحقيقة، كان دوي هو من قُضي عليه؛ إذ تدهورت صحته ثم واجه مصاعب مالية جمّة، حتى أصابته في عام ١٩٠٥ جلطة اضطُرَّ على أثرها للانتقال إلى جامايكا ثمّ إلى المكسيك طلبا للطقس الدافئ والعلاج، وأوكل في سفره هذا أمر مدينته مدينة صهيون إلى واحد من أتباعه الذي ما لبث أن انقلب عليه. ثم هجرته زوجته وأولاده كذلك وأُدين في قضايا ممارسات غير أخلاقية وغير مشروعة. ثم مات ميتة رهيبة بتاريخ التاسع من آذار/ مارس عام ١٩٠٧.

ونورد تعليقات لبعض الصحف الأميركية على وفاة دوي: "يمكن أن يُنظر بعين السماح إلى أحمد وأتباعه إذا ما تفاخروا بما حدث وذلك بسبب الدقة التي تحققت بها النبوءة"

"لقد تنبأ الرجل القادياني بأنّه إذا ما قبل دوي التحدي فسوف يغادر هذا العالم مثقلا بالهموم والآلام، ولكنّه إذا تجاهله فإنّ النهاية ستؤجل بعض الوقت إلا أنها واقعة والموت واقع وسيكون معه كارثة تحل بمدينة صهيون. لقد كانت هذه هي النبوءة العظمى؛ إن صهيون سوف تسقط وسوف يموت دوي قبل أحمد" ["Danville Gazette" دانفيل جازيت، ٧ حزيران/ يونيو ١٩٠٧]

"لقد مات دوي موتا مزريا بينما تتمزق مدينة صهيون بسبب المنازعات الداخلية" ["Herald of Boston" هيرالد أوف بوسطن، ٢٣ حزيران/يونيو ١٩٠٧]

كان أقوى تعليق هو عنوان عريض تصدَّر صحيفة بوسطن:

"عظيم هو مرزا غلام أحمد، المسيح"

الفصل الواحد والثلاثون

الشهيدان الأوليان

إنّ تاريخ الهند لوحة مزدانة بالكثير من الألوان والصوّر؛ فالهند شهدت قيام وسقوط شتى الطغاة والملوك والأباطرة، ودخل عليها الفاتحون بسلام كما غزتها جحافل العسكر المحاربة، وسواء دُحروا أم انتصروا فهم قد تسببوا في حركاتِ تنقُّلٍ بشريةٍ هائلة منها وإليها وتقبَّلَتهم الهند في حضنها جميعا كالأم.

أما بالنسبة للإسلام والتسامح، فالنبي محمد علّم أتباعه التسامح مع الناس كلهم من كل الأعراق والأديان، وأنّ الإسلام ينتصر بقوة الحق وليس بقوة السيف.

من جهة أخرى، طبق الحكم البريطاني في الهند قاعدة قبول الاختلاف والتنوع بشكل عملي، فأحكام القانون كانت منفتحة على جميع الأطياف الدينية. ولكن بما أنّ المسؤولين الحكوميين البريطانيين مسيحيون في معظمهم، فمن الطبيعي أن يكون هناك ميل تجاه الدين المسيحي دون أن يكون هناك أي مساس بحقوق الديانات الأخرى واحترامها، فلكل دين الحق في نشر عقائده والدعوة إليها دون الهجوم على عقائد الغير. وعلى الرغم من تحقق هذه الحرية بشكل عام، إلا أنها لم تُتَّبع بدقة دائما.

هناك سببان محتملان يفسران حرية المعتقد التي نصت عليها القوانين المدنية في الهند والتي اتسمت بالانفتاح والتحرر، السبب الأول هو أنّ هذه الحرية قد وُلدت في الأصل في بريطانيا بعد مخاض طويل، وكان من الطبيعي أن يتمّ تصديرها إلى البلدان التي وقعت تحت حكم الإمبراطورية البريطانية وبالتالي تحت تأثيرها الفكري. أما السبب الثاني فهو مصلحة الإمبراطورية إذ أنّ

الأولوية الأولى للحكومة البريطانية في الهند هي المحافظة على أمن الإمبراطورية ومنع أي مبرر يمكن أن يُثير نزاعات داخلية بين طوائف الشعب.

ولأنّ هذه الحرية تتماشى مع تعاليم التسامح الإسلامية فكان من الطبيعي أن يُقدّر غلام أحمد حرية المعتقد المتاحة. ولكن وكما رفض الكتبة والفرّيسيون المسيح الناصري، رفض المشايخ والـمُلات غلام أحمد القادياني عن طريق إصدار الفتاوى التي تُنكر وتُكفر دعواه، ولكنّهم لم يستطيعوا أن يمنعوه من الاستمرار في دعوته أو منع ازدياد عدد أتباعه. من جهة أخرى، رفض أحمد دعوة الجهاد ضدّ الحكومة البريطانية، فوفقا لغلام أحمد بما أنّ كل مسلم يستطيع ممارسة شعائر دينه وينشر عقيدته دون خوف من الاضطهاد فلا معنى لهذا الجهاد. وحدَه الحكم الظالم هو ما يستوجب الجهاد ضد ظلمه.

ولكنّ وجهة النظر هذه كانت مرفوضة تماما لدى الجارة أفغانستان، ومع أنّ الحاكم الأفغاني قد تقبّل واقع تفوّق الحكومة البريطانية في الهند من حيث القوة العسكرية، إلا أنّه لم يكن أبدا مستعدا لقبول تسرب معتقدات دينية أو سياسية من الهند إلى حدوده، خاصة ما يمكن من شأنها التقليل من سلطته، فتعاليم القتال التي كان ينشرها ويحرض عليها باستمرار المشايخ الأفغان في أوساط الشعب كانت هي الدعامة الأساسية لسلطته على البلاد ولإبقاء البريطانيين خلف الحدود. أما بالنسبة لبريطانيا وبعد أن مُنيت بهزيمة كارثية عند محاولتها غزو أفغانستان، رأت أنّه من الأفضل أن لا تُدخِل أفغانستان ضمن بلدان الإمبراطورية وأن تدعها تحتفظ باستقلالها الظاهري لتكون ذات قيمة أكبر كأرض محايدة بين الهند البريطانية وبين تهديد الإمبراطورية الروسية المحتمل. فالجبال العالية الوعرة التي تغطي معظم أفغانستان شكلت حاجزا طبيعيا بينها وبين الهند، وأمّا الأراضي التي كانت موضع نزاع بين البلدين فقد آل البتّ فيها إلى لجنة دوراند، وكان ممثل الجانب الأفغاني في هذه المباحثات رجل نبيل رفيع المقام اسمه سيد عبد اللطيف.

كان السيد عبد اللطيف زعيما لمنطقة خوست وواحدا من أكثر الرجال ثراء وتأثيرا في أفغانستان؛ إذ امتلك مساحات شاسعة من الأراضي امتدت بين الهند وأفغانستان، وشغل منصب مـــُربّي الملك – عندما كان الملك صغيرا– وفي حفل تتويج الملك كان عبد اللطيف هو من وضع العمامة على رأسه إيذانا باعتلائه عرش ملك أفغانستان.

كان عبد اللطيف رجلا متعلما وعُرف باطلاعه الواسع على علوم القرآن والأحاديث النبوية والفقه الإسلامي، واعترافا بعلم هذا الرجل وتقديرا واحتراما له فقد أطلق عليه لقب (صاحب زاده) و (أخوند زاده)، وأيضا لقب المولوي (أي الشيخ العالم الكبير). توجّه الناس من كل أنحاء أفغانستان ليتتلمذوا على يده وليستفيدوا من مكتبته الكبيرة التي جمع كتبها في بيته.

كان من الطبيعي في فترة المداولات التي جرت بين أعضاء لجنة دوراند التي امتدت لأيام طويلة من المشاورات أن يكون في نهاية أيام العمل دعوات ضيافة متبادلة بين أفراد الجانبين، وفي واحدة من هذه اللقاءات المسائية أخبر رجل كان حاضرا عن الجانب الهندي عبد اللطيف صاحب زاده أنّه قد بايع على يدي مرزا غلام أحمد، وذكر له أنّ غلام أحمد هو المسيح الموعود ظهوره حسب المعتقد الإسلامي، ثم أعطى الرجل الهندي عبدَ اللطيف بعض كتب غلام أحمد.

بعد هذه الحادثة بدأ عبد اللطيف بمراسلة أحمد، ثم انتهت هذه المراسلات بأن أرسل عبد اللطيف واحدا من تابعيه إلى قاديان ليدرس الوضع هناك ثم يعود إليه بتقرير وافٍ عما سيراه، كان اسم هذا الشخص هو عبد الرحمن.

وبالفعل سافر عبد الرحمن إلى قاديان ومكث فيها مدة ثلاثة أشهر، ثمّ عاد إلى عبد اللطيف وأفرغ له كل ما تعلمه في قاديان وكل ما تأثر به من انطباعات نتيجة تعاليم غلام أحمد. وبعد الاطلاع على ما جاء به عبد الرحمن، رأى عبد اللطيف أن يذهب بنفسه إلى قاديان ليدرس الأمر أكثر،

ولكن الذي جرى على أرض الواقع وكما سيتبين لاحقا في هذا الفصل أنّ عبد اللطيف سيبايع أحمد.

لما عاد عبد الرحمن إلى كابول لم يتحدث فقط إلى السيد عبد اللطيف عمّا رآه في قاديان، بل إنّ سعادته بما تعلمه جعلته يتحدث إلى الجميع علانية، وخاصة عن رفض غلام أحمد الإقرار بالمفهوم الخاطئ عن الجهاد. ولكنّ هذه الأفكار الجديدة ما لبثت أن شقت طريقها ووصلت إلى الملك الذي أمر على الفور باعتقال عبد الرحمن، وهنا لا بد من توضيح أمر المحاكمات في أفغانستان في ذلك الوقت، فالواقع من النادر جدا أن حدث وانعقدت أي محكمة للبت في أمر متهم ما، فالشخص المتهم إما كان أكبر من أن يُحاكم وإما أن يكون شأنه أصغر من تكبد عناء المحاكمة، من وجهة نظرهم، وعليه فكان التخلص منه أمرا أيسر. وهكذا وببساطة، بينما كان عبد الرحمن في السجن شُـــنق ليلا دون محاكمة.

بعد مرور سنتين طلب عبد اللطيف الإذن من الملك[١٦] للسفر لأداء فريضة الحج في مكة، ولم يمنح الملك الإذن لعبد اللطيف بالسفر فحسْب وإنما – وكعربون محبة وصداقة- أهداه مبلغا من المال كفيلا بتغطية نفقات رحلته الطويلة. لكنّ السيد عبد اللطيف قرر عقب تفقد ممتلكاته في الهند أن يستفيد من الفرصة التي تتيحها له رحلة حجه ليعرج على قاديان ويلتقي بالرجل الذي ما فتئ يراسله منذ فترة طويلة، ثم يستكمل من هناك رحلة الحج- التي لم يستكملها أبدا.

وصل عبد اللطيف إلى قاديان ونزل في بيت الضيافة الذي بناه أتباع غلام أحمد حديثا، والذي يقع على بُعد مسيرة دقائق معدودة من الجامع الرئيس ومِن دار غلام أحمد حيث تمت لقاءاتهما وحواراتهما الطويلة. قبيل المغرب، وعندما كان غلام أحمد يذهب ليتمشى في بستان أشجار المانغو الخاص به،

[16] كان ملكا غير الذي قتل المولوي عبد الرحمن. (المترجمة)

كان يمر ببيت الضيافة فكان عبد اللطيف يصحبه ويجلس معه ومع أتباعه كذلك في ظلال الأشجار ويتبادل معهم الأفكار وأحيانا ثمرات المانغو أيضا المختلفة الأنواع.

وجد عبد اللطيف نفسه في انسجام تام مع كل ما يقوله ويعتقده غلام أحمد.

سأله أحمد مرة عن الكيفية التي قادته إلى الإيمان به، فأجاب عبد اللطيف: فوق كل شيء، كان القرآن الكريم هو ما قادني إليك. وأضاف كذلك: أنا مقتنع بأنّ معظم المسلمين قد ضلوا في الفترة الحالية عن الصراط المستقيم، وإنْ سَمَّوا أنفسهم مسلمين، لكن قلوبهم خالية من الإيمان الحقيقي، وأفعالُهم لا تطابق إقرارهم الظاهري بالإيمان، فالمسلمون حاليا بمذاهبهم وممارساتهم، بأفعالهم وأقوالهم، تردّوا في هاوية أخطاء كبرى وبِدَع خطيرة وتجاوزاتٍ جسيمة للأوامر الإلهية. إنّ الدين والتقوى التي علّمها الرسول الأكرم ﷺ لصحابته والإخلاص والإيمان واليقين الذي كان عندهم قد اختفى تقريبا من على وجه الأرض. إن حال الإسلام الحالي يدعو مجدِّدا. لقد قرأتُ كتب حضرتك التي كانت بها دعواك، وقد وقفتُ على الحجج التي قدمتَها وعرضتُها على القرآن الكريم، فوجدتُ كتاب الله تعالى يؤيد كل براهين حضرتك، لقد صدّقَ القرآنُ الكريم كل جملة قلتَها.

قال عبد اللطيف في موضع آخر أن أول أمر جذبه إلى قبول غلام أحمد كان مسألة وفاة عيسى ابن مريم، فالقرآن يقول أنّ عيسى مات ولن يرجع إلى هذه الدنيا كرة أخرى، ولكن هناك وعد صريح بأنّ الله تعالى سوف يستمر في إرسال خلفاء للنبي ﷺ ومجددين للدين كما استُخلِف من قبل نبي الله موسى عليه السلام في أمته. وكما أنّ سلسلة خلفاء النبي موسى عليه السلام قد خُتمت بعيسى الناصري عليه السلام الذي لم يؤيّد أبدا الحروب الدينية، فكذلك كانت خاتمة سلسلة خلفاء النبي ﷺ متسمة بروح عيسى بن مريم وأخلاقه.

يصف أحمد المحبة والمودة التي كانت بينه وبين عبد اللطيف: "والذي نفسي بيده، لقد وجدتُه في طاعتي وتصديق دعواي صادقا متفانيا بما لا مزيد عليه. لقد وجدتُه مفعمًا بحبي، كزجاجة مليئة بالعطر. كان وجهه نورانيا كما كان قلبه نورانيا. إن أروع صفة كان يتحلى بها هذا الولي المرحوم هي أنه كان يقدّم الدين على الدنيا حقيقة... كان قوي الإيمان بحيث لو شبَّهتُه بأعظم جبل لخشيت أن يكون تشبيهي ناقصًا... بأي كلمات أثني على هذا الولي المرحوم الذي نبذ ماله وعرضه وروحه في طاعتي كما يُنبذ الرديء من الأشياء". [تذكرة الشهادتين، الخزائن الروحانية، مجلد ٢٠، ص ١٠].

أما عبد اللطيف وبعد أن مكث بضعة أسابيع في قاديان، اتخذ قراره بعدم الذهاب للحج إلى مكة قائلا: أنا أجدني محتاجا للمزيد من المعرفة والحكمة التي هي مصدر قوة الإيمان.

وفي زيارة طلب العلم الروحاني، تناول عبد اللطيف مع أحمد العلامات السماوية التي قال أحمد أنّها تؤيد صدقه، والتي قبلها وآمن بها عبد اللطيف. كما وتناولا مسألة كون غلام أحمد نبيا بينما لم يكن واحدٌ من المجددين أو من خلفاء نبي الإسلام نبيا.

وفي هذه النقطة قال غلام أحمد أنّ رسول الإسلام كان خاتَم الأنبياء ولا نبي تشريعي بعده، ولكنّ أحمد بصفته المسيح الموعود للأمة الإسلامية سيكون نبيا ولكن بدون شريعة جديدة، سيكون نبيا ظلّيًّا انعكاسا لنبوة سيده محمد. إنّ هذه الدرجة الروحانية وهذا المقام قد أنعم الله تعالى عليه به لأنّه تفانى في خدمة سيده محمد وأطاعه طاعة كاملة حتى تبعه كظلّــه، ففي وحي قال الله تعالى لغلام أحمد بما معناه: يا أحمد لقد اصطفاك الله نبيا.

مضت بضعة شهور وعبد اللطيف يقيم في قاديان ويسمع من غلام أحمد حتى أيقن بأنه المسيح الموعود وبايعه. ثم ما لبث أن قرر العودة إلى أفغانستان، ولكنه كان يعرف في قرارة قلبه أنّه متوجه إلى حتفه فقد تلقى عبد اللطيف

نفسه إلهاما يقول: *"قدّم رأسك.. قدّم رأسك"* . وقد أخبر أحمد: لدي حدس ينبئني بأنّ نهايتي قريبة وأني لن أرى وجه حضرتك مرة أخرى.

وفي يوم الرحيل أعلن أحمد للجميع أنّه يشعر بثقل في قلبه كما لو أنّه سيفقد صديقا حميما. ولما حانت لحظة الوداع مشى أحمد مع عبد اللطيف مسافة الثلاثة أميال الأولى انطلاقا من قاديان، المسافة التي كانا قد قطعاها في أيام اجتماعاتهما السعيدة، ثم فارق أحمد صاحبه وعاد أدراجه إلى قاديان بينما تابع عبد اللطيف رحلته إلى أفغانستان.

في الأيام اللاحقة أسرّ عبد اللطيف لأصحابه أنّه يعلم بأنّه متوجه إلى حتفه وأنّه إن شاء الله سيكون شهيدا في سبيل بعث الإسلام، قال عبد اللطيف "أفغانستان في حاجة إلى الدماء".

.بما أنّ عبد اللطيف قد أُعطي من الملك الإذن بالحج فضلا عن المال اللازم للسفر، فقد قرر وهو ما زال في الهند أن يرسل إلى الملك رسالة يشرح فيها عدوله عن رحلة الحج المقررة سابقا وأسباب نزوله قاديان. ولكن وللأسف كانت لهذه الرسالة أثر الصفعة بالنسبة للملك ومستشاريه. فعبد اللطيف قد أورد في رسالته أنّه قد التقى بالمسيح الموعود الذي وُعد به المسلمون منذ أكثر من ألف وثلاثمئة عام، وأنّه أي عبد اللطيف- طاعة لله عز وجل ولنبيه قرر أن يبقى في قاديان ويرجع عن رحلة الحج في تلك السنة. وقد تلقى عبد اللطيف ردًّا من الملك على رسالته بالفعل وهو ما يزال في قاديان وكان الرد يحثه على العودة إلى أفغانستان وإلى كابول على وجه السرعة. عَلِم عبد اللطيف أن الرسالة لم تكن صادقة فعلا لأنّه من غير المعقول لأخِي الملك والقضاة التابعين له قبول مجيء المسيح الموعود بكل هذه البساطة، فهو بحكم معرفته بهم يدرك جيدا أنهم لا يختلفون عن الكتبة والفريسيين الذين أنكروا بعثة المسيح الناصري، ومع هذا فقد رأى أنّه لا بد من قبول قضاء الله تعالى

المقدر له وأن يعود إلى أفغانستان بغض النظر عن صدق أو كذب رسالة الملك.

وصل أولا إلى خوست، واستُقبِل بالترحاب الكبير من قِبَل عائلته ورجال القبائل في المنطقة. وزفّ عبد اللطيف لهم بشرى نزول المسيح الموعود في قاديان. ولكنّه نفسه كان حزينا، وحتى إنّه ذات يوم وهو جالس في بيته رفع يديه ونظر إليهما وقال: هل ستحتملان الأغلال راضيتين في سبيل الله تعالى؟ فانتبهت حينها زوجته وقالت له لماذا تتكلم هكذا، ما الأمر؟ فأجابها: ستعرفين بعد العصر، ستعرفين بعد صلاة العصر. وبعد ظهر ذلك اليوم كما كان قد أخبر زوجته جاء رجال الملك على خيولهم إلى خوست، جاؤوا ليأخذوه إلى كابول كما قالوا. وقبل أن يرحل معهم، توجه إلى عائلته وإلى أتباعه وقال لهم: إنّي راحل، احفظوا ما أخبرتكم به وما علمتكم إيّاه، كونوا أقوياء واثبتوا على إيمانكم وعلى عقيدتكم التي أؤمن بها معكم. ثمّ غادرهم مع رجال الملك ووصل كابول على حصانه ليجد أهل المدينة قد احتشدوا على الطريق، لأنّ أخبار ما فعله كانت انتشرت على الملأ، وكان عبد اللطيف يعرف هذا جيدًا. ثمّ أجال بنظره بين الجموع المحتشدة وقال معلقا: أنا عريس هذا الموكب.

ولما وصل عبد اللطيف إلى الملك، لم يكن هناك أدنى شك من غضب الملك الذي أمر الحراس قائلا: أبقوه بعيدا عني، إنّ رائحته بغيضة إنّه خائن. ثم أمر الملك أن يُقيّد عبد اللطيف بسلسلة حديدية ثقيلة يبلغ وزنها نحو ثمانية كيلوغرامات وأن تُربط هذه السلسلة بكاحله بحيث يكون على عبد اللطيف حملها كيفما تحرك، وأن يسجن في زنزانة ضيقة في قصر الملك.

مرّت ستة أسابيع والسيد عبد اللطيف مسجون تحت ظروف رديئة جدا، بحيث كان من الصعب عليه الحركة داخل الزنزانة نفسها بسبب الأغلال والسلاسل الثقيلة التي أمر الملك بتكبيله بها، لم يكن في الزنزانة أي وسيلة

للنظافة الشخصية، وكانت خافتة الإنارة أو بالأحرى شبه مظلمة، ولم يقدم له سوى النَزر اليسير من الطعام. يجدر بالذكر أن السيد عبد اللطيف كان رجلا في الخمسينيات من عمره، وأمضى عمره في طلب العلم والعمل الفكري والمناظرات الفكرية، وكان رجلا من عائلة كريمة، فظنّ الملك أنه بوضعه تحت هذه الظروف البالغة القسوة سوف يحطم إرادته وسيخرّ عبد اللطيف معلنا ارتداده عن معتقده الجديد في غلام أحمد. فطَلَبُ العفو والارتداد عن المعتقد الجديد من وجهة نظر الملك فرصة ثمينة وتسامح كبير، لأنّه كان من المعروف أنّ سجناء الملك لم يكن لديهم دائما خيار طلب العفو؛ إذ إن سجين الملك كان يقضي باقي عمره القصير داخل السجن، إذ غالبا ما كان يُرسل له من يقتله في السجن أو يصدر الأمر بإعدامه عاجلا. ولكن ولمكانة عبد اللطيف العالية ليس فقط لدى الملك وإنما في أفغانستان كلها، كانت هناك محاولات مستمرة لإقناعه بالعدول عن إيمانه بغلام أحمد القادياني مسيحا منتظرا. فعبد اللطيف كان مُربّي الملك وكان من أهم مستشاريه، وكان زعيما قبليا في منطقته حيث كانت تبدي له الآلاف من العائلات كل احترام وولاء، وسيكون من الأيسر أن يُعلن هو توبته عن اعتقاده بغلام أحمد بدلا من إعدامه.

وبالفعل، وُعِد عبد اللطيف بأنه إذا تاب؛ بمعنى أنّه إذا أعلن توبته عن اعتقاده بمرزا غلام أحمد مسيحا منتظرا سوف ترد له أملاكه وأراضيه وستُعاد له الألقاب التي خسرها عقوبةً على إيمانه الجديد، حتى أولاده وزوجته، الذين طردوا من دارهم وأرضهم وصاروا الآن يعيشون عيشة فقر وهم كذلك تحت أخطار جمة تتهددهم؛ سوف يكون بمقدورهم العودة إلى دارهم من جديد. إلا أنّ عبد اللطيف لم يلتفت إلى كل هذه الإغراءات وأشاح عنها، ليس لأنه لم يكن مدركا عواقب أفعاله على زوجته وأولاده، وليس لأنّ الأغلال والأثقال لم تحفر يديه وكاحليه، وليس لأنّ الظروف المريعة التي كان

يكابدها في الزنزانة الرهيبة التي وُضع فيها لم ترهق جسده بالآلام، ولكنّ لأن الله تعالى كما كان يردّ على الملك -حَباه بفضله عقلا وذكاء، وآتاه علما واسعا يستطيع أن يفرق بين الحق والباطل، وأنّه وجد الحق بعد بحث طويل وحثيث ودراسة عميقة فكان يقول: "أؤمن إيمانا كاملا بأنّه هو المسيح الموعود. أعرف أنّ إيماني سيكلفني حياتي ولكنّ إيماني هذا هو أحب عليّ من حياتي ومن كل العلاقات الدنيوية."

وكل مرة أُحضر فيها السيد عبد اللطيف أمام الملك كان يرد بالكلام نفسه قائلا: لقد وجدتُ الحق ولا أستطيع أن أحيد عنه حتى لو كلفني حياتي فسأموت على الحق. وبعد ستة أسابيع أخرى أي بعد أربعة أشهر منذ اعتقاله من منـــزله- أُحضِر عبد اللطيف مرة أخرى أمام الملك الذي كان قد نفد صبره وخاطب عبد اللطيف واعدا إياه بأنّه إذا ارتدّ عن إيمانه بغلام أحمد فلن تعاد إليه أراضيه وألقابه السابقة فحسب بل إنّ مزيدا من الألقاب والشرف الرفيع بانتظاره، أمّا إذا ما بقي مُصرًّا على ما هو عليه، فسيُدان كخائن مرتد عن الدين ومهرطق وأنّ عقوبته ستكون الرجم بالحجارة حتى الموت. ولكنّ عبد اللطيف لم يرتد. لا يقدر على الارتداد عن الحق، كما كان يردد دائما، وكان يقول كذلك أنّ العذاب والابتلاءات الأرضية في هذه الحياة الدنيا ستؤول في آخر الأمر إلى نهاية ولكنّه إذا أنكر المسيح الموعود الذي بعثه الله عزّ وجلّ فإنّ عذابه في الآخرة سيكون أبديًّا. يقول عبد اللطيف أنه يعرف ويوقن أنّ غلام أحمد القادياني هو المسيح المنتظر وأنّه يستطيع أن يبرهن على هذا من القرآن الكريم وأنّه على استعداد أن يدخل مع أي من المشايخ الذين يختارهم الملك في مناظرة لمباحثة هذا الأمر، فإذا فُنِّدت الحجج التي سيسوقها عبد اللطيف عقلانيا من قبل المشايخ عندها ينبغي أن يُدان ويُعاقب.

عدَّ الملك هذه المباحثة المخرج الأخير والفرصة الأخيرة السلمية للابقاء على حياة عبد اللطيف، واختير ثمانية شيوخ للمباحثة التي تقرّر أن تجري في

المسجد الكبير في كابول. وجاء اليوم المحدد، وحضر جمع غفير من الناس ليشهدوا المناظرة الكبيرة وكان هناك كذلك عددٌ كبير من النظارة، ولكنهم لم يتمكنوا من سماع كلمة واحدة من عبد اللطيف، فالمشايخ لم يُتيحوا لعبد اللطيف طرح أفكاره والحديث علانية أمام الناس، واشترطوا أن يكون كل ما سيقوله عبد اللطيف من آراء أو تعليقات أو مراجع أو اقتباسات كتابيا ويمرر إليهم ويردّوا هم جهرا وعلانية.

بدأت المباحثة في الساعة السابعة صباحا واستمرت حتى الثالثة عصرا، وصحيح أن الأصفاد والأغلال قد نُزعت من يديّ عبد اللطيف ليتمكن من الكتابة، لكنّه كان محاطا بالحراس المـُشهرين سيوفهم باتجاهه طول الوقت.

ثم انتهت المباحثات المكتوبة، بعد الفراغ من صلاة العصر وعندها وقف واحدٌ من المشايخ وسأله بصوت عالٍ: إذا كنت تؤمن بأنّ هذا الرجل القادياني هو المسيح المنتظر، فماذا تقول عن المسيح الناصري؟ وهل تعتقد بأنّه سيترل من السماء؟ ردّ عبد اللطيف بكل قوة واحترام، كما رُوِيَ، وهو يقف في ثيابه الممزقة التي لم يغيرها منذ مجيئه إلى كابول من ستة أسابيع قائلا: إنّ المسيح هو نبي توفّاه الله تعالى كما توفّى نبينا ﷺ وكما توفى جميع الرسل، والقرآن الكريم يقرّ هذه الحقيقة وأنا أؤمن بكل حرف جاء في كتاب الله تعالى. واقتبس عبد اللطيف مقولة أبي بكر الصدّيق: ما محمّدٌ إلا رسولٌ قد خلت من قبله الرُّسُل- التي كان أبو بكر قد قالها عندما ظنّ كبار صحابة النبي محمد أنّه لم يمت وأنّه قد ذهب لميقات ربه كما ذهب موسى بسبب ذهولهم وشدة الحزن على نبيهم.

وتابع السيد عبد اللطيف قائلا بأنّ جميع الرّسل قد ماتوا وكذلك مات نبينا الرسول الأكرم ﷺ، وهذه سنة الله تعالى في جميع الخَـلْق، وكما أنّ محمّدًا ﷺ لن يعود إلى الحياة الدنيا مرة ثانية فلن يعود كذلك المسيح ابن مريم عليه السلام.

وهنا انفجر المشايخ بحنق شديد مهاجمين السيد عبد اللطيف وأعلنوا أنهم لم يبق لديهم أي شك في كفره وارتداده وأنّه قد ارتدّ عن دين الإسلام لأنّه أنكر حياة المسيح ابن مريم في السماء ونزوله منها في آخر الزمان. وبناء على ما جرى من مباحثات، قد أعدّ المشايخ الثمانية فتوى رسمية يعلنون فيها كُفره وارتداده عن ملة الإسلام. وبهذا فقد أُعيد عبد اللطيف إلى زنزانته كرة أخرى مكبلا ومقيدا بالسلاسل والأغلال الثقيلة.

سُلّمت الفتوى بشكل رسمي للملك تمهيدا لإصدار حكم الإعدام. وفي صباح اليوم التالي أُخذ السيد عبد اللطيف إلى قاعة الجمهور الخاصة بالقصر حيث كان قد احتشد بالفعل عدد كبير من الناس، ولمـّـا وصل الملك خاطب عبد اللطيف: لقد تمّ إعلانك مرتدًا عن الملة. فهل ستتوب؟ فأجاب عبد اللطيف: لن أتوب عن الحق ولن أكذب لأنقذ حياتي. فكرر الملك سؤاله: ألن تتوب؟ وكرر عبد اللطيف الإجابة: لن أتوب عن الحق ولن أكذب، وإني أطيع أمر الله تعالى. فقال له الملك حينها ليحضه: ألا تُشفق على عائلتك إن لم تكن ترأف بنفسك؟ لأنه وفي حالة عبد اللطيف فإنّ اسم عائلته سوف يُلطخ بالعار وسوف يرثون هذا الكفر الذي اقترفه، كما جرى حكم المشايخ في تلك البلد. ولكنّ عبد اللطيف رفض مرة أخرى: معاذ الله أن أُنكر الحق، هذه الحياة الدنيا متاع قليل، ولن ينفعني عشيرة ولا نسب في الحياة الآخرة فلن أرجع عن إيماني لأجلها، إنّ ديني أهم من حياتي وسأموت في سبيله. وهنا وكعادتهم، صاح المشايخ غاضبين بأنّه ما عاد للشك محل في كون الرجل عدوًّا للإسلام ومرتدا عن ملته، وأنّه لابد من رجمه حتى الموت، لا بد أن يموت، فكتب الملك الأمر بإعدام عبد اللطيف رجما بالحجارة حتى الموت.

وبتسليم كامل لقضاء الله تقبل عبد اللطيف الأمر واقتبس من القرآن: ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتٌ بَلْ أَحْيَاءٌ وَلَكِنْ لَا تَشْعُرُونَ﴾

[البقرة: ١٥٥] فهو وإن قُتل فسيَحْيا وسيكون شهيدا في سبيل الإسلام الحق وسيحظى بصحبة الشهداء والصدّيقين.

بناء على أمر الملك علّقت ورقة الحُكم على رقبته، وأُحدث ثقب في أنفه وأدخل فيه حبل ليُجرّ منه كالحيوانات- إذ أرادوا أن يهينوه- إلى ساحة الإعدام.

وعلى الطريق إلى ساحة الإعدام، تجمهرت حشود الغوغاء مُطلِقة صيحات اللعن والازدراء وراء الموكب الذي جُرّ فيه عبد اللطيف مكبَلا بالأثقال والسلاسل. كان الملك حاضرا وكذلك كان القضاة والمشايخ ورجالات الملك. ووَسط الجموع والضوضاء بدأ عبد اللطيف بتلاوة الآيات القرآنية التي يطلب بها المسلمون المدد والقوة السماوية حين البلاء: ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ﴾ [آل عمران: ٩]

يقول ف. مارتن مؤلف كتاب (تحت المُلْك الـــمُطلق)، وهو الأوروبي الوحيد الذي كان موجودا في أفغانستان في تلك الفترة والذي شهد كل الأحداث المتعلقة بعبد اللطيف: "كانت ساحة الإعدام تُسمى (سياه سانغ) وهي تلة صغيرة خارج حدود المدينة وتقع على بُعد ميلين منها وتُحيطها أرض مليئة بالأحجار".

وكان الملك حاضرا وأخوه نصر الله خان والقاضي الأكبر عبد الأحد على صهوة جيادهم، بينما غصت الساحة بالجموع الغفيرة راجلة.

في منتصف هذه الساحة هناك حُفرة أعدت لغرض الإعدام، وجعل عبد اللطيف يقف فيها ومُلئت إلى خصره.

للمرة الأخيرة خاطب الملك عبد اللطيف: حتى إذا أعلنت توبتك وتبرأت الآن من الرجل القادياني الذي يدّعي أنّه المسيح فسوف أُنقذك. إلا أنّ عبد اللطيف لم يتبرأ.

كان القاضي الأكبر هو أول من سيبدأ بإلقاء الأحجار، باعتباره رأس الشريعة في البلاد وبما أنّ السيد عبد اللطيف قد أُدين وِفقا للشريعة وبما أنّ القاضي هو المحافظ على الشريعة ومُصدر الحكم ابتداء، فلا بد إذا من تنفيذ الحكم بيده وأن يلقي الحجر الأول. وبالفعل ترجل القاضي الأكبر عن ظهر جواده ووقف على الأرض وفيما كان يهم بالتقاط الحجر كان السيد عبد اللطيف يتلو آية: ﴿أَنْتَ وَلِيِّي فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾ [يوسف: ١٠٢] وكانت هذه آخر كلمات نطق بها قبل أن يرمي به القاضي بحجر صدم جبينه بقوة بحيث تدلى رأسه على صدره ولكنه رفع رأسه ثانية فرماه الملك بحجر قوي وانهالت الأحجار من كل صوب عليه وخلال دقائق معدودة كان عبد اللطيف قد دُفن تحت كومة من الحجارة. كان هذا يوم الرابع عشر من شهر تموز / يوليو عام ١٩٠٣.

في وقت سابق، كان عبد اللطيف قد قال ما معناه بأنه سيحيا في اليوم السادس وهذا إشارة إلى استشهاده- ولكنّ الملك أمر أن تتمّ حراسة جسده حراسة مشددة. وكان عبد اللطيف كذلك قد قال بأنّ كارثة كبيرة ستحل بأفغانستان وأنّها ستطال الملك وأخيه كذلك.

يقول ف. مارتن وهو شاهد عيان كما أسلفنا رأى بأم عينه ما حصل في كابول في تلك الليلة: "عند الساعة الثامنة مساء اليوم الذي قُتل فيه المولوي عبد اللطيف، هبت عاصفة هوجاء مدة ساعة ونصف ثم توقفت فجأة كما بدأت. وكان هذا شيئا غير اعتيادي فقال الناس أنّها مرور روح المولوي.

ثمّ انتشر وباء الكوليرا بعدها في اليوم التالي ووفق أنماط التفشي السابقة والمعروفة لهذا الوباء، فإنّ التفشي الأقرب يُتوقع أن يكون بعد أربع سنوات، فعُدَّ هذا أيضا جزءا من نبوءة المولوي وبهذا تملك الملك والأمير الرعب الشديد لأنهم رأوا في هذا حتفهم."

يتابع ف. مارتن: " قيل إنّ أول من مات بعد إعدام المولوي عبد اللطيف هو زوجة وابن الأمير نصر الله خان، وعاش بعدها المشايخ الذين حكموا على عبد اللطيف في رعب شديد على أرواحهم. ومن المؤكد أن أحدهم قد أصيب بالكوليرا. ولمدة أربعين يوما التي تلت الإعدام ظلت الحراسة مشددة على أكوام الحجارة التي غطت جثة الصاحبزادة. وعلى الرغم من معرفة الجنود الحراس أنّ أدنى تهاون في مراقبة المكان قد يعرض المتساهل لعقوبة الموت، إلا أنّ الحراسة تراخت، فالجند والناس في كابول قد شغلهم وباء الكوليرا الذي تفشى في اليوم التالي لمقتل عبد اللطيف".

لما عرف أحمد نور وهو واحد من تلاميذ عبد اللطيف- أنّ الحراسة على القبر لم تعد مشددة كما في أولها، قام هو وبضعة من أصحابه بالتسلل تحت جنح الظلام إلى ساحة الإعدام واستخرجوا الجثة وأخذوها إلى المقبرة ودفنوها باحترام بالغ وإجلال. قال هؤلاء التلاميذ لاحقًا، أنّ الجثة التي مضى عليها أربعون يوما لم يصبها أي تلف وأنّ الجروح كانت تبدو جديدة وكانت تفوح من الجثة رائحة طيبة كالمسك.

أدان غلام أحمد إعدام عبد اللطيف، ونقتبس من تعليقه على هذه الجريمة: "... يا أرض أفغانستان، فَلْتشهدي على تلك الجريمة الشنيعة التي ارتُكبَت فيك! يا أيتها الأرض التعيسة! لقد سقطتِ من عين الله تعالى لأنك كُنتِ مسرحًا لهذا الظلم العظيم".[تذكرة الشهادتين: ص٧٤]

ولكنّ غلام أحمد وعلى الرغم من حزنه الشديد على عبد اللطيف أوصى بالتسامح والثبات على الإيمان، وقال لأتباعه: "افرحوا وابتهِجوا لأن الله معكم. إنْ تمسكتم بالصدق والإيمان فستعلِّمكم الملائكةُ، وستنــزل عليكم السكينةُ من السماء، وستُنصَرون بروح القدس، وسيكون الله معكم عند كل خطوة، ولن يتغلب عليكم أحد أبدا." [تذكرة الشهادتين، الخزائن الروحانية، مجلد ٢٠، ص ٦٨]

ووعدهم: "اِسمعوا جيدًا أيها الناس جميعًا! إنه مما أنبأ به خالق السماوات والأرض أنه سوف ينشر جماعته هذه في كل أنحاء العالم، ويجعلهم غالبين على الجميع بالحجة والبرهان، وإن الأيام لآتية، بل إنها لقريبة حين لا يُذكر في الدنيا بالعز والشرف إلا هذا المذهب. إن الله سوف يبارك هذا المذهب وهذه الجماعة بركات كبرى خارقة للعادة، ويخيب كل من يفكر في القضاء عليها، وسوف تستمر هذه الغلبة إلى يوم القيامة...

اِعلموا جيدًا أنه لن يترل من السماء أحدٌ. إن جميع معارضينا الموجودين اليوم سوف يموتون، ولن يرى أحد منهم عيسى بن مريم نازلًا من السماء أبدًا. ثم يموت أولادهم الذين يخلفونهم، ولن يرى أحد منهم أيضًا عيسى بن مريم نازلًا من السماء. ثم يموت أولاد أولادهم، ولكنهم أيضًا لن يروا ابن مريم نازلًا من السماء. وعندها سوف يُلقي الله في قلوبهم القلقَ والاضطراب، فيقولون في أنفسهم: إن أيام غلبة الصليب قد انقضت، وأن العالم قد تغيَّر تمامًا، ولكن عيسى بن مريم لم يترل بعد؟ فحينئذ سوف ينفر العقلاء من هذه العقيدة دفعةً واحدة، ولن ينقضي القرن الثالث من هذا اليوم إلا ويستولي اليأسُ والقنوط الشديدان على كل من ينتظر نزول عيسى، سواء كان مسلمًا أو مسيحيًّا، فيرفضون هذه العقيدة الباطلة؛ فلا يكون في العالم إلا دين واحد وإمام واحد. لقد جئت لأبذر البَذرةَ، وقد زُرعتْ تلك البَذرة بيدي، ولسوف تنمو الآن وتزدهر، ولن يستطيع أحد أن يعرقل نموها." [تذكرة الشهادتين، الخزائن الروحانية، مجلد ٢٠، ص ٦٦-٦٧]

الفصل الثاني والثلاثون

بعث الإسلام

بحلول عام ١٩٠١ صار عمر غلام أحمد قرابة ستة وستين عاما، لكنّ هيئته العامة لم تختلف كثيرا عما كان عليه في عمر الخمسين؛ فوجهه البسام دائما كان يخلو من التجاعيد التي تكون عادة في مثل هذه السن ولا يوجد في جبينه أثر للعبوس، وكسا شعره اللون الفضي منذ أن أتمّ الخمسين ما أعطاه منظرا مهيبًا لا يوحي بهمته وخفة حركته. كان ما زال بمقدوره المشي أربعة أميال أو خمسة في اليوم، وفي أحيان قليلة كان يمشي سبعة أميال، ولمدة قصيرة من الزمن قصد أحمد بعض النوادي الصحية الهندية ليحافظ على صحة جسده ونشاطه.

لم يؤثِّر تقدم العمر على أداء غلام أحمد أبدا، ولم يقلل من حجم عمله الفكري، يستحضر ابنه محمود همة والده في العمل حيث لم يكن ينام لبعض الليالي عندما كان يعمل على كتاب ما، فيقول محمود: كنت دائما أراه منهمكا في عمل ما، وكنت أخلد للنوم وهو يكتب، وأصحو لأجده يكتب ويستمر على هذا المنوال باقي يومه.

ويقول مرزا محمود أيضا: كان ينسى أحيانا أن يتناول الطعام إلا إذا قاطعه أحدٌ وقت الوجبات ودعاه.

تذكر ابنته الكبرى السيدة نوّاب مباركة بيغم عنه: كان حضرته يتمتع بثقة كبرى ويقين لا يهتز في ما هو مُقدّرٌ له في وظيفته الروحانية التي كُلّف بها. لدى أحمد دائما شعور بالثقة حيال أهدافه وأفعاله، وكان كلّما زاد إيمانه بمهمته السماوية زاد شعوره بالمسئولية والحماسة وازداد تفانيا في عمله.

قال له ذات مرة واحدٌ من أتباعه بأنّه لم يُعلن عن نفسه بشكل واضح أنّه نبي، عندها رأى غلام أحمد وجوب إفصاحه عمّا أوحاه الله تعالى له بشكل صريح: "لقد استخدم الله تعالى في وحيه كلمةَ النبوة والرسالة في حقي مئاتِ المرات، ولكن المراد منها تلك المكالمات والمخاطبات الإلهية الكثيرة والمشتملة على أنباء الغيب، لا أكثر من ذلك ولا أقل. لكل أن يختار في حديثه مصطلحًا، لقولهم: لكل أن يصطلح. فهذا مصطلَح إلهي حيث أطلق هو عز وجل كلمةَ النبوة على كثرة المكالمة والمخاطبة. أي تلك المكالمات التي تحتوي على أخبار غيبية كثيرة. واللعنة على من يدعي النبوة متخلّيًا عن فيض النبي صلى الله عليه وسلم. ولكن نبوتي هذه ليست بنبوة جديدة، بل هي نبوة النبي صلى الله عليه وسلم في الحقيقة، وتهدف إلى الهدف نفسه وهو إظهار صدق الإسلام على الدنيا". [چشمه معرفت - أي ينبوع المعرفة - الخزائن الروحانية، مجلد ٢٣، ص ٣٤١]

وقال أيضا ما معناه: إذا كان الرسول صلى الله عليه وسلّم هو خاتم الأنبياء، فكيف يمكن أن يظهر بعده — كما يجادلون- نبيٌ آخر؟ إنّ الجواب هو أنّ جميع أبواب النبوة قد سُدّت إلا باب الطاعة الكاملة والذي هو روح الذوبان التام في حب الرسول صلى الله عليه وسلم"، وأضاف أحمد في موضع آخر: "يعلم الله تعالى أنني لا أبالي ولا أفرح أبدًا لأن أُدعى المسيح الموعود أو أن أفضّل نفسي على المسيح ابن مريم. واللهُ تعالى قد كشف بنفسِه في وحيه المقدس عما ينطوي عليه ضميري حيث قال:" *قُلْ أجرّد نفسي من ضروب الخطاب"*؛ أي قُلْ لهم إنني في حال بحيث لا أبتغي لنفسي أي نوع من الألقاب، بمعنى أنّ مقصدي ومرادي أسمى من مثل هذه الأفكار، وأما منح الألقاب فهو من فعل الله تعالى، ولا دخل لي في ذلك... لقد كان يكفيني أن يرضى الله عني. إني لم أكن أتمنى هذا المنصب قط، كنت في زاوية الخمول، و لم يكن أحد يعرفني، كما لم أكن أحب أن يعرفني أحد، ولكن الله

سبحانه وتعالى نفسه أخرجني من زاوية الخمول قسرًا. لقد وددت أن أعيش خاملاً وأموت خاملاً، ولكنه تعالى قال: إني سأنشر اسمك بالعزة في الدنيا كلها. فاسألوا الله تعالى لماذا فعل هكذا؟ ما ذنبي في ذلك؟

كذلك كنت أعتقد تمامًا في أول الأمر وأقول: أين أنا من المسيح ابن مريم؟ إذ إنه نبي ومن كبار المقربين عند الله تعالى، وكلما ظهر أمر يدل على فضلي كنت أعدّه فضلا جزئيًّا، ولكن وحي الله ﷻ الذي نزل علي بعد ذلك كالمطر لم يتركني ثابتًا على العقيدة السابقة، وأُعطيتُ لقب نبي في صراحة تامة، بحيث إنني نبي من ناحية، وتابعا للنبي صلى الله عليه وسلّم ومِن أُمته من ناحية أخرى". [حقيقة الوحي، الخزائن الروحانية، مجلد ٢٢، ص ١٥٢ – ١٥٤]

بمعنى آخر، يعتقد غلام أحمد أنّ النبوة هي كثرة المكالمة الإلهية أو الوحي الذي ينطوي في أحايين كثيرة على أنباء غيبية. ويؤكد الأحمديون، في أيّام مرزا غلام ومن بعده، أنّ هذا المقام الروحاني – أي النبوة– لا يقلل بأي حال ولا يمس مقام رسول الإسلام.

إنّ هذا الكلام كلّه يطرح تساؤلا وجيها، ما هي النبوة إذا؟

الجواب– وِفقا لأحمد – هي مقام روحاني عالٍ يرتقي فيه صاحبه إلى درجة سامية من القُرب الإلهي يمنحه الله تعالى فيها فضل المكاشفة والمكالمة ويُطلعه فيها على بعض الأمور المستقبلية ويسميه نبيا.

ويعتقد غلام أحمد أنّ هذا المقام لا يخرج عن التابعية للنبي محمد. إذ يوجد هناك سوء فهم لمعنى كلمة النبوة، فليس معنى نيل مقام النبوة أن يأتي الشخص المكرم بهذا المقام بشريعة جديدة أو أن يكون منفصلا عن الأنبياء الذين سبقوه. إنّ نزول المسيح الموعود كما يقول أحمد، هو بشرى للمسلمين لأنّه يُثبت بأنّ النبي محمد لم يُبعث ليمنع نزول بركات الله عزّ وجل، وإنّما ليفتح الباب واسعا لرحمته تعالى وليُريَ كل البشر في كل الأمم أنّ كل فضل

من أفضال الله تعالى قد فتحه بإذنه. وبالطبع وكما ذُكر عن أحمد آنفا، تبع إعلان أحمد على الملأ بكل جلاء ووضوح أنّه نبي مبعوث من عند الله خطوة تأسيس الجماعة الإسلامية الأحمدية، والتي إلى الآن- أي عام ١٩٠١ لم يكن هناك تمييز شرعي يفصل الجماعة عن سائر المسلمين، ولكن في عام ١٩٠١ ساد إجماع وطني عام تجاه الجماعة وبدأت التساؤلات -التي كان من الطبيعي أن تنشأ في هذه الظروف- تُثار عن كيفية تمييز الأحمديين عن باقي المذاهب الإسلامية الأخرى.

عطفا على موضوع النبوة، شرح مرزا غلام أحمد وأشاع هذه المعاني في كثير من كتبه، إذ وجد من خلال دراسته للقرآن الكريم أنّ النبي محمدا كان مظهرا لصفتين إلهيتين: الجلال والجمال. يقول أحمد: لأن نبينا صلى الله عليه وسلم كان له اسمان اثنان؛ أحدهما محمد والآخر أحمد؛ أما "محمد" فكان اسمًا جلاليًّا، وكان يتضمن نبوءة أن النبي سوف يعاقِب بالسيف هؤلاء الأعداء الذين هجموا على الإسلام بالسيف فقتلوا مئات من المسلمين. أما "أحمد" فكان اسمًا جماليًّا، وكان يشير إلى أن النبي صلى الله عليه وسلم سينشر الأمن والصلح في العالم. فلقد قسّم الله هذين الاسمين بهذا الشكل بأنه تم ظهور اسم "أحمد" في الفترة المكية من حياة النبي صلى الله عليه وسلم حيث كان التعليم هو التحلي بالصبر. ثم تمّ ظهور اسم "محمد" في الفترة المدنية حيث اقتضت حكمة الله تعالى ومشيئته قطعَ دابر المعارضين. ولكن أُنبئ أيضًا أن ظهور اسم "أحمد" سوف يتمّ مرة أخرى في الزمن الأخير أيضًا، وسوف يُبعث شخص تظهر بواسطته الصفات الأحمدية للنبي صلى الله عليه وسلم أي الصفات الجمالية، وبالتالي سيتم القضاء على جميع الحروب.

إنّ من عرفوا غلام أحمد في تلك المرحلة من حياته، أي بعد إعلانه تشرفه بمقام النبوة الظلية، يذكرون كثيرا جاذبيته ويسهبون في وصف تأثيره الروحاني والأخلاقي الفريد على من يُقابله، حتى من أتيح لهم قضاء بضعة

أيام في صحبته كانوا يذكرون تلك الفترة كأفضل أيام حياتهم جمالا ورُقيًّا روحانيًّا. هذه الجاذبية التي شدّت الآخرين إليه لم يُنكرها المعارضون الذين ما انفكوا يحذرون أتباعهم منها و لم يقرّوا بأنها أثر روحاني طيب بل علّلوها بأنّها سِحرٌ يُلقيه غلام أحمد على زواره في قاديان، وطفقوا يثنون الناس عنه خشية الوقوع تحت تأثيره.

قال أحمد في مدح النبي محمد ما معناه: يا طالب الحق، إذا كنت تبحث عن حجة لصدق محمد فأحبّه لأنّ محمد هو برهان على نفسه.

إنّ ما يقوله غلام أحمد عن نبيه ينطبق عليه هو كذلك، فالمئات الذين غدوا آلافا لاحقا قبلوا به وآمنوا منذ وقعت عيونهم عليه: "هذا ليس بوجه كاذب إنّه المسيح الموعود".

لم يكن وجه غلام أحمد الصادق هو الذي جذب الناس إلى الأحمدية فحَسْب، بل هناك أيضا العلامات والآيات والنبوءات التي تحققت بشكل مذهل والتي أخبر أحمد أنّه تلقاها من الله وأيّدت دعوته. ومن بين هذه النبوءات التي كان لها الوقع الكبير تلك المتعلقة بالأشخاص سواء الأصدقاءِ أم المعارضين وتلك المتعلقة بالأمم، ولا شك أن تحقق هذه النبوءات قد عضد إيمان الناس بأحمد بشكل كبير.

يقول أحمد عن النبوءات بشكل عام أنّها علامات على العلم والقوة اللذين يشكلان دعائم مالكية الله تعالى، قد تكون النبوءات غير مفهومة في حينها، ولا تكون واضحة بينة كالشمس في رابعة النهار، وإلا ما كان هناك فرق بين المؤمنين وغيرهم ولن يكون هناك ثمرة للإيمان بالغيب يُثاب عليها المؤمن. ويشبِّه أحمد الإيمان بالغيب كنور القمر الخافت في ليلة غائمة يراه صحيحو البصر، بينما أولئك الذين غلبت عليهم غباوتهم الروحانية وضعفت بصيرتهم لا يرونه وما زالوا في ظنونهم يترددون.

يقول الأحمديون الذين عاصروا غلام أحمد أنهم كانوا يجدونه دائما بجانبهم حين البلاء وكان كثيرا ما يدعو لهم ويصلي من أجلهم، وحتى لما صار عددهم بالآلاف كانوا جميعا يرسلون إليه طلبا للدعاء وكان يدعو بالفعل لكل فرد منهم. ويقول غلام أحمد عن هذا الأمر أنّ الله تعالى الذي بعثه مسيحا موعودا لهذه الأمة وكلفه بمهمة تجديد دينها حباه كذلك بنعمة قبول الدعاء وجعل لدعائه قبولية خاصة بفضله سبحانه وتعالى.

ويشكل وباء الطاعون وما حدث مع الأحمديين حينها خير دليل على صدق الادّعاء بقبولية الدعاء. فلمّا اجتاح الوباء الأسود الهند فاتكا بالأرواح كان أحمد يدعو بحرقة وألم طالبا رفع البلاء عن العباد حتى أنّ من سمعه أو رآه فإنه يذوب تأثرا من دعائه. ويجدر بالذكر أنّ الطاعون أول ما ظهر في الهند كان في مدينة بومباي عام ١٨٩٦ وظل موجودا فيها مدة عام ثم اختفى، إذ يبدو أنّ الجهود التي بذلتها السلطات في مجال الصحة العامة قد آتت أُكُلها. لم يصل الطاعون في تلك الفورة إلى منطقة البنجاب باستثناء قرية أو قريتين. ولكن في السادس من شهر شباط/فبراير ١٨٩٨م قال أحمد إنّ الله تعالى أنبأه أنّ البنجاب ستكون مسرحا للطاعون، يقول غلام أحمد: " أني رأيت في المنام اليوم ٦ فبراير/شباط ١٨٩٨م يوم الأحد أن ملائكة الله يغرسون في شتى مناطق البنجاب أشجارًا سوداء كريهة الشكل مخيفة المظهر وقصيرة الطول، فسألت بعض هؤلاء الزارعين: ما هذه الأشجار؟ فقالوا: إنها أشجار الطاعون الذي سيتفشى في البلاد عن قريب. لقد اشتبه عليّ الأمر فيما إذا قالوا إن هذا المرض سيتفشى في فصل الشتاء القادم أم في الذي بعده، ولكن ما رأيته كان منظرًا مخيفًا جدًا. وقد تلقيتُ قبله إلهامًا عن الطاعون وهو: *"إن الله لا يُغيّر ما بقوم حتى يُغيّروا ما بأنفسهم، إنه آوى القرية"* ، أي لن يزول هذا الوباء الظاهر ما لم يزُلْ وباء المعصية من القلوب".[أيام الصلح، الخزائن الروحانية، المجلد ١٤، ص ٣٦٠-٣٦١]

وبالفعل، اجتاح الطاعون كل أنحاء الهند في أسوأ موجة عرفتها البلاد وحصد ثلاثين ألفا من الأنفس ما دفع بالحكومة البريطانية التي كانت حاكمة البلاد في ذلك الوقت إلى إدخال مصل مضاد للوباء إلى البلاد وحثّ الناس عليه إنقاذا لهم من الموت. وقد أثنى أحمد على هذه الجهود ولكنّه قال أنّه وأتباعه ليسوا في حاجة إلى هذا اللقاح لأنّ الله تعالى قد أخبره: *"إني أحافظ كلَّ مَن في الدار إلا الذين عَلَوا من استكبار"* [مواهب الرحمن، ص٢٦] ويشرح غلام أحمد هذا الوحي قائلا: "لذلك فمَن يتّبع تعليمي حقّ الاتباع فقد دخل في داري تلك التي سبق الوعد عنها في قول الله تعالى: إنّي أُحافظ كلَّ مَن في الدار، أي سأحمي كلَّ من يدخل حظيرةَ دارك، وينبغي ألاّ يُفهم هنا أنّ الداخلين في داري هم الساكنون فقط في بيت لي ذي مدر وآجرّ، كلا بل إن جميع أولئك الذين يتبعونني اتباعا كاملاً هم الآخرون داخلون في داري الروحانية".[سفينة نوح، ص ١٤]

لم يعتبر غلام أحمد اللجوء إلى الأدوية والعلاجات واللقاحات من قبيل الخطأ الذي يُعاقب الله تعالى الناس عليه؛ فالله تعالى قد علم المسلمين على لسان رسول الإسلام أنه ما خلق الله الداء إلا وخلق له الدواء، ولكن هذه المرة قد أمره الله أن يمتنع هو وأتباعه عن اللقاح والتدابير الأرضية لأنّ الله سينقذه آيةً منه. يقول مرزا غلام أحمد: "وإني ما أمنع الناس من التطعيم ولاينفع تركه إلا إياي ومن اتبعني بقلب سليم" و"إني بُشّرت في هذه الأيام من ربي الوهاب فآمنتُ بوعده ورضيتُ بترك الأسباب" [مواهب الرحمن، ص ١١ و١٣] وكما ذكرنا من قبل ضرب الطاعون إقليم البنجاب، في موجات استمرت على مدى تسع سنين لم تصل أي منها إلى قاديان بأي سوء.

إنّ قبولية الدعاء لا تعني، كما يقول أحمد، أنّ كل أدعيته في جميع الأوقات لكل الناس مستجابة عند الله تعالى، ولكن معظمها مقبول عند الله. وكانت هذه أيضا من أسباب قبوله عند من آمنوا بدعوته.

بالإضافة إلى ما سبق، كان نجاح أحمد المستمر وثباته سببا في نجاح دعوته، لقد هوجم من جميع الأطراف وثبت ونجح؛ هاجمه المشايخ المسلمون وحرّضوا العامة عليه، شجب دعوته الهندوس والمبشرون المسيحيون أيضا، وكانوا جميعا يملكون المال والقوة والسلطة ولكنهم مع ذلك لم يتمكنوا من إسكاته. كان دائما جاهزا للمواجهة والمناقشة وتقديم دعواه وحججه على الملأ وليحكم الناس على ما يرونه منه بأنفسهم، غير أنّ هذا لم يكن حال معارضيه المسلمين. أما المسيحيون فقد احتجبوا عن ملاقاته في المناظرات وأصروا على عدم إجراء المباحثات العلنية وغيرها معه. ولما كان يُسأل عن سبب هذا كان يُجيب بما معناه أنّ الله عز وجل لايكون في عون الأشرار ولا يجعل لهم سبيلا على عباده المؤمنين، وأنّ الله تعالى لم يكن ليخذل خدامه المخلصين.

أما ما نراه السبب الأكبر لنجاحه وهو السبب الأقوى والأكثر إقناعا فهي الصورة التي قدمها عن الإسلام وأثر كلامه وسيرته الشخصية على أتباعه. فيقول غلام أحمد عن القرآن الكريم الذي هو بالطبع كتاب المسلمين أنّه نبع لا ينضب للحكمة والعلم الإلهي، وأنّه من غير اللائق أن يُظنّ أن العلوم المستقاة منه قد نفدت وأنّ ما ورد في كتب التراث الإسلامي قد أحاط بكل معارفه، فكما أنّ الله تعالى جعل لنا في الأرض نفسها والبحر والهواء الذي نعيش عليه كنوزا متجددة لخير الإنسان فكيف نظن أنّ كنوز القرآن قد استخرجت كلها؟ إنّ كنوز القرآن الروحانية متجددة وتتجدد وفقا لاحتياج العصر. ويضيف أحمد ما معناه أنّ الشريعة الواردة في القرآن كاملة تامة

ولكن الحكمة والمعرفة الإلهية وفهم القرآن لا يتوقف، ويستمر في النمو، وهذا هو جانب يسير من آيات القرآن العظيمة.

يقول واحد من أتباع غلام أحمد عن تفسيره لبعض آيات القرآن الكريم أنها تقدم جمال القرآن وكماله بشكل ساطع كنور الشمس. ويقول واحد من أصحابه كذلك أن المعاني التي أوردها في شرح القرآن دررٌ مستخرجة من أنقى مياه.

إن من يبايع أحمد يتعهد بالالتزام بعهد البيعة الذي قطعه وبالبنود الواردة فيه، وهذا أيضا سبب لنجاح هذه الجماعة. فغير الملتزم لا يعد فردا منها ويطرد منها. والطرد من (جماعة المؤمنين) هو أمر يخافه الأحمديون، لذا فلا يوجد أحمديون غير ملتزمين أو منضمين شكليا فجميعهم منخرطون في جماعتهم وإلا فإنهم يُطردون منها.

علّق شخص على ما تفعله بيعة غلام أحمد في المبايع الملتزم بقوله: عندما يجد الناس شخصا معروفا بعدم الالتزام الديني في حياته السابقة ثم التزم نهج التقوى والخوف من الله تعالى وصار تابعا متحمسا للدين وأوامره، وأصبح كل تصرف من تصرفاته يعكس حب الإسلام وتعاليمه في كل صغيرة وكبيرة من يومياته؛ يدركون حتما أنّ هذا التحول لا يصدر عن إيمان بمعتقد زائف.

يقول كذلك جُلّ الذين بايعوا أحمد أن بيعتهم كانت ولادة جديدة لهم وأنهم استشعروا معها بدء حياة جديدة.

كان لمرزا غلام أحمد وفاء متصل لأصدقائه القدامى، حتى من صاروا ألد أعدائه لاحقا، فلم ينقطع عن الدعاء للمولوي محمد حسين البطالوي. كتب أحمد عن محمد حسين ذات مرة بألم بعدما بدر من محمد حسين: إن شجرة الحب المتبادل بيننا التي سقيناها في طفولتنا قد اقتلعت من جذورها. وأضاف:

لكنني لن أنسى عهد صداقتنا المزهر الذي كان، لأن قلبي ليس بصحراء جرداء ولا واد صخري قاحل.

ومع ذلك لم يكن يسمح لمحبة أي إنسان أن تتحول إلى ما يشبه الشرك ولا يسمح لأتباعه بذلك، فلمّا مات صاحبه المخلص السيد عبد الكريم السيالكوتي نعى أتباعه هذه الخسارة الكبيرة وصار بعضهم يردد بأن لن يوجد من يحل مكانه، فما كان من غلام أحمد إلا أن زجرهم بشدة وخاطبهم قائلا إن الاعتقاد بأن رحيل عبدالكريم سيترك فراغا لا يُملأ هو شِرك خفي، ولا ينبغي أن نجعل الأشخاص أصناما نشرك بهم. فالله تعالى عندما يأخذ شخصا مخلصا من جماعتنا لا شك بأنه بفضله سييسر لنا من يخلفه.

الفصل الثالث والثلاثون

الخطبة الإلهامية

لم تقتصر حملة مرزا غلام أحمد الدعوية على الحجج والمنطق التي تعضد تعاليم الإسلام وحسب، بل ادّعى أيضا أنّ الإسلام هو الدين الحي الوحيد من بين جميع الأديان، وعن ذلك كتب السيد (ظَفْر الله خان) — وهو رجل دولة باكستاني أحمدي- في واحد من كتبه عن الحركة الإسلامية الأحمدية وهو كتاب (الأحمدية نهضة الإسلام) ما معناه: إنّ حضرته (أي غلام أحمد) ادّعى أنّ الإسلام هو الدين الحي الوحيد بمعنى أنّ الإسلام وحده هو الذي يقدم ثمرة روحانية متجددة تمنح الحياة الروحانية الحقيقية، وهذا الأمر في الواقع ينبغي أن يكون هدف ومبتغى جميع الأديان، لكن لم يدّع أي دين آخر بـــخلاف الإسلام قدرته على منح هذه الحياة الروحانية. لقد لفت حضرته الانتباه إلى أنّ حقيقة استمرارية الوحي في الأمة الإسلامية هو الثمرة الروحانية الأطهر والأطيب التي يعطيها الإسلام وحده بينما أنكرت جميع الديانات الأخرى إمكانية استمرار تلقي الوحي الإلهي في هذا العصر.

ويضيف السيد ظفر الله خان مفسرًا مسألة استمرارية الوحي، وكونها لُبّ حياة الدين كما ادّعى أحمد، بأنّه يمكن اختبار صدق دعوة غلام أحمد المتعلقة باستمرارية الوحي باستخدام المعايير التي يُلجأ إليها في محاكمة مثل هذه الأمور والواردة في القرآن الكريم، ولكن الذي حصل حينما دعا غلام أحمد الناس إلى اختبار صدقه وكما قال السيد ظفر الله خان: كانت الاستجابة الوحيدة التي لقيها التحدي المعلن من قبل حضرته هي السخرية والرفض المسموم. ولكنّ التحدي بقي مفتوحا من قبله طول حياته، وما زال قائما إلى اليوم، ونراه في تحقق العديد من نبوءاته من وقت لآخر، وبالبركات الكثيرة

التي نشهدها في حياة متبعيه، وفي الأعداد الكبيرة التي ما تزال تنضم إلى الجماعة الإسلامية الأحمدية. أما خلال حياته فإنّ صدق دعوته كانت تؤيده الحجج والآيات الدامغة طول عمره.

من المعروف أن أحمد لم يتلقَّ تعليما عالي المستوى في اللغة العربية أو على يد عالم ضليع فيها وإنما كان علمه فيها يقتصر على المستوى الأساسي، وكان هذا الأمر من المآخذ التي يثيرها المشايخ المعارضون ويشيرون إليها من وقت لآخر، وكأنّ الرجل يحتاج إلى شهادة دراسية معينة تمكنه من تلقي الوحي الإلهي! من الملاحظ أنّ هذا الأمر – أي عدم دراسته اللغة العربية– لم يشر إليه أحد من هؤلاء المشايخ عندما قام أحمد بتأليف كتاب "البراهين الأحمدية". ولكن بعد أن أعلن أنّه المسيح الموعود لأمة الإسلام صار المشايخ يشيرون إلى مسألة العربية كحجة من وجهة نظرهم، تمنع من تمكنه والولوج إلى لبّ معاني القرآن الكريم، وبالتالي، وفقا لهم، مِن غير المعقول أن يكون هو المبعوث الذي اصطنعه الله تعالى لتجديد الدين، وبقي هذا الاعتراض سيد الاعتراضات التي أثارها المشايخ لفترة طويلة. وقد ذكر أحمد هذا الأمر في كتابه الذي كتبه باللغة العربية واسمه (سرّ الخلافة): " ثم إذا رأوا أن الحجة وردت، والنار المضرمة بردت، وما بقي جمرةٌ من جمر الشبهات، فركنوا إلى أنواع التحقيرات، وقالوا مِن أشراط المجدّد الداعي إلى الإسلام، أن يكون من العلماء الراسخين والفضلاء الكرام، وهذا الرجل لا يعلم حرفا من العربية، ولا شيئًا من العلوم الأدبية، وإنا نراه من الجاهلين، وكانوا في قولهم هذا من الصادقين. فدعوتُ ربي أن يُعلّمني إن شاء، فاستجاب لي الدعاء، فأصبحتُ بفضله عارف اللسان، ومليح البيان، ومن الماهرين. ثم ألّفتُ كتابَين في العربية مأمورًا من الحضرة الأحدية، وقلتُ يا معشر الأعداء، إن كنتم من العلماء والأدباء، فأْتوا بمثلها يا ذوي الدعاوى والرياء إن كنتم صادقين. ففرّوا واختفوا كالذي ادّان عند صفر اليدين، وما أفاق إلا بعد إنفاق العين،

فما قدر على الأداء بعد التطوق بالدَين، ولازَمه مستحقّه وجدَّ في تقاضي اللُجَين، فما كان عنده إلا مواعيد المَين؛ كذلك يخزي الله قومًا متكبرين". [سر الخلافة، ص ٨]

هذان الكتابان اللذان أشار إليهما أحمد هما: (كرامات الصادقين) و(نور الحق)، وبعدها توالت مؤلفاته بالعربية ووصلت إلى ما يزيد على العشرين كتابًا والعديد من القصائد العربية.

يقول غلام أحمد إنّ الله تعالى قد استجاب لتضرعاته وتوسلاته وعلّمه من لدنه أربعين ألفا من مواد اللغة العربية في ليلة واحدة وإنّه تعالى قد أعطاه بفضله بسطة كاملة في العلوم الأدبية العربية، وإنّ اللغة العربية هي أمّ اللغات، وإنها اللغة التي علّمها الله تعالى لآدم، وإن اللغات الأخرى جميعها قد اشتُقّت وتفرّعت من اللغة العربية، وحيث إنها لغة ربّانية فقد أنزل الله تعالى كتابه القرآن على النبي محمد بهذه اللغة الرفيعة، وجعل آخر شرائعه باللسان نفسه الذي بدأ به الوحي على آدم.

ورد في القرآن أنّ كل نبي يبعثه الله تعالى لا بد وأن يتكلم بلغة قومه بمعنى أنّ وحي الله تعالى الذي يتلقاه من أجل أن يوصل الهدْي الرباني إليهم لابد وأن يكون بلغتهم ليفهموه، كما جاء في الآية:﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ﴾ [إبراهيم: ٥]، ولأنّ محمدًا مُرسل إلى جميع الأمم فقد أنزل الله تعالى عليه كتابه الكريم باللغة العربية التي هي أم اللغات.

وكالعادة سخر المعرضون من أحمد ثمّ أشاعوا بعد ذلك أنّه لا بد من وجود من كتب هذه الكتب له، ولكنهم صمتوا في النهاية بعد أن تحداهم أن يأتوا بمثل ما أتى، ولهم أن يستعينوا بمن شاؤوا وقدر ما شاؤوا من كُتّاب العربية. وكان صمتهم أشد لما ألقى أحمد خطبة بليغة بالعربية مدة ساعة ونصف يوم عيد الأضحى الموافق ١١ نيسان/أبريل عام ١٩٠٠. ولم تكن هذه الخطبة وليدة دراسة وتأليف حثيثين طول أيام سابقة، بل جرت على

لسانه وارتجلها بتأييد وإلهام رباني لحظة وقوفه على المنبر كما يقول هو بنفسه. ولأنها كانت مُلهمة بالكامل من عند الله تعالى، وحتى لا ينسى كلماتها، فقد طلب من المولوي الحكيم نور الدين ومن السيد عبد الكريم السيالكوتي أن يكتُبَا كل كلمة ينطق بـــها. يستذكر أتباعه كيفية تلقي غلام أحمد لهذه الخطبة وهو بينهم، يقولون إنّه جلس في زاوية المسجد الأقصى في قاديان يوم العيد ومغلقا نصف عينيه كما لو كان مستغرقا في إغفاءة ثم وقف وبدأ الكلام. استمرت الخطبة مدة ساعة كاملة وكما قال واحد من الذين سمعوها: كانت الخطبة تجري على لسانه في تدفق متتال من الأفكار المحكمة.

وبعد أن فرغ من الخطبة قام السيد عبد الكريم السيالكوتي بترجمتها للحاضرين إلى الأردية التي كانت لغتهم. ولأن الخطبة كانت نتيجة استجابة الدعاء، وأثناء الترجمة الأردية، فاضت من قلب أحمد مشاعر الحمد والامتنان لفضل الله تعالى، فخر ساجدا لله وحذا الحاضرون حذوه. ولما رفع أحمد رأسه من السجود قال إنه رأى لفظ: *"مبارك"* مكتوبا بحروف حمراء وكان ذلك كما يقول أحمد آية القبول من الله تبارك وتعالى.

قام غلام أحمد لاحقا بإضافة أربعة فصول إلى الخطبة وضمها معها في كتاب أسماه (الخطبة الإلهامية) وطبع ونشر هذا الكتاب في تشرين أول/ أكتوبر عام ١٩٠٢ وقد نُشر الكتاب بعد أن تمت ترجمته إلى الفارسية فضلا عن الأردية.

واليوم يجد زائر المسجد الأقصى في قاديان علامة على المكان الذي وقف فيه أحمد عندما تلقى الخطبة الإلهامية تخليدا لهذه الواقعة.

الفصل الرابع والثلاثون

جَرِيُّ اللّه

صارت الآن الإعدادات والترتيبات لحراسة مرزا غلام أحمد لازمة لكل تنقلاته من أي مكان لآخر، إذ كان يُحاط ويلاحق بالجموع الكثيرة عند كل تحركاته سواء من حسني النية أم من غيرهم مـــمِّن يتربصون به. وكلّما ازداد عدد أتباعه ازداد على النقيض الآخر عدد المعارضين الذين انتقلوا من الهياج والصخب إلى العنف، إذ أعلن فريق منهم على ألسنة خطبائهم أن قتل أحمد هو إحقاق للعدل كما رأوه، وليس ارتكابًا لـــجريـــمة قتل.

فأحاطت محاولات القتل بأحمد من كل جانب، حتى إنّ امرأة استعانت بها زوجته لتساعدها في المطبخ قالت لها – وهي لا تعرف أنها زوجة أحمد – لقد وصل مدينة دلهي اليوم رجل يدّعي أنه المسيح الموعود، وقد أمرنا زعماؤنا بوجوب قتله وقد أحضر ابني بالأمس سكينًا لهذا الغرض وذهب ليقتله ولكنه لـــم ينجح في الاقتراب منه بشكل كافٍ رغم محاولته عدة مرات، وذهب ابني أيضا إلى منزله ليقتله إلا إن الأبواب كلها كانت مقفلة.

كانت تقوم دوريات الشرطة المسلحة بحراسة وتأمين الشوارع ومحيط المنزل الذي ينزل أحمد فيه عادة، أما المعارضون المتربصون فأجبروا على الاكتفاء بالوجود في المكان الذي تسمح به الشرطة قرب منزله لعَقد المحادثات واللقاءات.

في عام ١٩٠٣ في شهر كانون الثاني/يناير ذهب أحمد إلى بلدة (جهلم) حيث طُلب منه الحضور بخصوص دعوى قضائية. تبعد هذ البلدة عن قاديان مسافة ١٥٠ ميلا وقطنها – في تلك الأيام– ما يقرب العشرين ألف نسمة. ولما ذاع خبر قدومه إلى البلدة تجمهر الآلاف من الناس عند محطة القطار

لملاقاته، يروي أحد الأشخاص الذين شهدوا تجمهر الناس عند المحطة أنّهم كانوا كبحر من الرؤوس البشرية المتماوجة الممتدة لمسافة بعيدة. وبالطبع لم يكن كل هذا العدد من سكان البلدة الصغيرة وإنّما جاء الكثيرون منهم من المقاطعات المجاورة إما ليشاهدوا بمحض إرادتهم هذا الرجل الذي كثر الحديث عنه وإما مدفوعين بتحريض من مشايخهم وليُظهروا أمامه مشاعر الاستياء والمعارضة.

انتهت المسألة القانونية التي كان أحمد جاء من أجلها وبُتّ فيها، ولكن الأهم في هذه الرحلة هو الإضافة الجديدة إلى نجاحاته؛ لأنّه في تلك الرحلة بايعه نحو ألف شخص معظمهم ممن حُرِّضوا ليتظاهروا ضده، فكانت تلك الرحلة: "عهد جديد في تاريخ الأحمدية قد بدأ بلا ريب" كما قال شاهد محطة جهلم نفسه.

يبدو أن مسألة الحشود هذه لم تكن ظاهرة حدثت فقط في جهلم، ففي شهر آب من عام ١٩٠٤، وأثناء وجوده في مدينة لاهور، خرج بضعة آلاف لملاقاته كذلك خارج أسوار المدينة، وقد جاء غلام أحمد بناء على اتفاق مسبق لكي يتحدث عن الإسلام والديانات الأخرى في الهند. وكالعادة قام المعارضون بتهيئة الناس من قبل لمجيئه ولرفض كلامه، وحرضوهم عليه وطلبوا منهم القيام بالتظاهر ضده، وبالطبع كان حشد المظاهرات تلك جمهرة من غير الملتزمين والفضوليين الذين ساقهم المشايخ لبث الفوضى مخربين بذلك الاستقبال الذي رتب له أتباع غلام أحمد ليتسنى له تقديم أفكاره علنا للناس.

مكث أحمد مدة خمسة عشر يوما في منزل أحد أتباعه وكان المنزل على مقربة من محطة القطار. وكان وراء هذه الفوضى رجل دين مسلم خطب في الناس خطبة مسيئة بحق أحمد ومليئة بمعاني الذم والاتهام، لدرجة نعته بالدجال. ولما تدخلت الشرطة لإبعاد رجل الدين المُحرِّض عن الطريق؛

حيث كان يعيق سكة القطار الحديدية، قام هذا المـُـلا (أي الشيخ) بعبور الشارع وتسلق شجرة وجعل يكيل كلامه البذيء من فوق الشجرة! تمنى الأحمديون الحاضرون هناك إسكاته، ولكنّ غلام أحمد لم يسمح لهم، وقال لهم دعوه يكمل كلامه ولا تردّوا عليه. أضحك الناسَ الحاضرين منظرُ فضيلة الشيخ وهو يلقي خطبته من فوق الشجرة حتى أنهم سموه مولوي "التهلي" أي شيخ شجرة التهلي. وكان من نتيجة هذه التصرفات والأعمال أن جاء يوم الثالث من أيلول، وهو اليوم الذي كان مخصصا للمباحثة، ولم يبق في لاهور سوى عدد قليل من الناس الذين لا يعرفون حتى أنّ ذلك هو اليوم المحدد للخطاب.

وصحيح أنّ صحة مرزا غلام أحمد لم تظهر عليها علامات التعب، ولكن عمره قد بلغ السبعين ولم يعد صوته قويا كما كان من قبل. ولأن المعتاد في مثل تلك اللقاءات العلنية أن يحضر ما بين السبعة إلى الثمانية آلاف شخص، فما من شك أن صوته لن يكون مسموعا بوضوح لكل هذا العدد خاصة بوجود مثيري الشغب والمشاكل، لذا ولكل تلك الأسباب طلب أحمد من عبد الكريم السيالكوتي أن يلقي خطابه نيابة عنه، وكان عبد الكريم معروفا بالإضافة إلى قوة الصوت بحسن الخطاب.

لقي الخطاب نجاحا منقطع النظير، فالشرطة التي وُضعت في حالة تأهب بسبب مظاهرات الاعتراض ضد مرزا أحمد، أصرت يوم الخطاب على ألا تسمح بحدوث أعمال إخلال بالأمن على الرغم من اتهامات المشايخ المثيرة التي كان الشيطان يُجريها على ألسنتهم ويثيرون العامة بها. اصطفت قوات الشرطة في الشوارع مسلحة بالهراوات للسيطرة على الحشود فيم قام الضباط بالحراسة وتأمين المكان مشهرين سيوفهم. أما غلام أحمد فقد خرج من البيت الذي كان ينزل فيه مرافقا بشرطة الخيالة من خلفه ومن أمامه. لقي الخطاب الذي ألقاه السيد عبد الكريم بالنيابة عنه الثناء والتهليل حتى إنّ

الجمهور الحاضر طلب أن يسمع بضع كلمات من غلام أحمد نفسه، وبالفعل قام أحمد بالتحدث لبضع دقائق قوبلت بالاستحسان. ولما انتهى الخطاب رافقت الشرطة غلام أحمد مرة أخرى إلى منزله حيث غادر لاهور في اليوم التالي، وكان هناك جمهور غفير عند المحطة يشهد ذلك.

وهكذا ومرة أخرى ذهبت خطط المشايخ المعارضين أدراج الرياح. فالكثيرون الذين دُفعوا ليتظاهروا ضده ويستهزئوا به صاروا من أتباعه لاحقا.

وبعد شهرين من خطاب لاهور وتحديدا في السابع والعشرين من تشرين الأول توجه أحمد إلى سيالكوت بناء على طلب أتباعه في تلك البلدة، التي عمل فيها في الماضي ككاتبٍ محكمةٍ بسيط، وحيث إنه صار مبعوثا من عند الله تعالى، فقد أحبوا أن يُكرموه فيها الإكرام اللائق.

تكررت مشاهد الاستقبال نفسها التي حصلت في لاهور أيضا على طول خط سكة القطار من بطالا إلى سيالكوت، ففي كل محطة تجمّع فيها أتباع غلام أحمد ليحظوا بفرصة مشاهدته. كان الخبر يصل إلى المعارضين من هندوس ومسيحيين وسيخ ومسلمين فيتوجّهون كذلك بدورهم إلى المحطة. حتى إنّه عندما اضطر أحمد أثناء مرور القطار في لاهور ليغير القطار، كان الحشد هائلا لدرجة أن جميع تذاكر القطار من مكتب الحجز قد نفدت وكان لا بد لمن يرغب بدخول المحطة أن يشتريها، لذا فقد وقع بعض الشغب عندما لم يتمكن كثيرون من الدخول لنفاد التذاكر. أما في سيالكوت، وهي مقصد الرحلة، فقد فاق الحشد كل المحطات السابقة؛ إذ افترش الناس الأرض والشوارع على امتدادها والأرصفة وحتى أسطح المتاجر التي كانت عادة مكونة من طابق أو طابقين. لقد تسلق الناس الأشجار وكل ما يمكن أن يعتلوه ليتمكنوا من رؤية الرجل الذي قال إنه مبعوث من عند الله تعالى بصورة أفضل وأوضح.

من الطبيعي أن لا يكون كل المتجمهرين مِن الذين يحملون نيات طيبة تجاه غلام أحمد، ومن الوارد أيضا أن يحاول بعضهم إلحاق الأذى به، تروي السيدة "مي حياة بيبي" أنها عندما جاء أحمد إلى سيالكوت كانت تلميذة صغيرة في المدرسة و"طلب منّا معلمنا في الصف أن نجمع القاذورات والحصى وأرشدنا إلى سطح أحد المنازل حيث يمكننا أن نرميها عليه، وفعلنا ما أمرنا أن نفعل".

مع الوقت تعلّم المعارضون من تجاربهم الفاشلة معه في جهلم ولاهور، ووجدوا أنّه من غير المجدي جمع الناس حوله لحضور محادثاته العلنية حيث يضطرون بعد ذلك إلى تفريقهم لأنّ من تمّ تحريضهم كانوا ينضمون إليه بعد سماعه، ووجد المعارضون أن الأجدى منع الناس من سماعه عن طريق نهيهم عن ذلك في المساجد، وبالفعل أعلنوا في المساجد النهي عن سماعه ومشاهدته ووزعوا الملصقات على الجدران أيضا بالمعنى نفسه. ولكي يثنوا الفضوليين الذين قد يحاولون رؤيته من باب العلم بالشيء، وزع المشايخ على جميع المداخل المحتملة رجالا مفتولي العضلات ليستعملوا الحجج العضلية المقنعة لحجب الناس عن رؤية أحمد! كما فكّروا أيضا بـــخطوة أبعد، إذ سيعقدون في الوقت نفسه خطابا مضادا في موقع قريب من المكان الذي سيلقي فيه غلام أحمد خطابه. ولكنّ الأمر الذي لم يفكر فيه المشايخ المعارضون، أنّ أحمد قد مكث في سيالكوت أسبوعا قبل الموعد المحدد لخطابه، وأثيرت خلال الأسبوع عشرات الاعتراضات حول دعواه، لذا كان بدهيًّا أن تتجه أنظار الناس إليه لأنّ سماعه بأنفسهم هو أكثر أهمية في هذه الحالة من سماع الاعتراضات حوله. حضر الناس بالآلاف، ومع المـــحاولات العديدة لـــمقاطعة مـــجريات الخطاب، منعت الشرطة التي وُجدت بأعداد كبيرة أي بادرة شغب و لم تحدث أي إزعاجات فعلية.

قام السيد عبد الكريم السيالكوتي بإلقاء الخطاب الذي كتبه مرزا غلام أحمد هذه المرة أيضا، وبما أنه من البلدة أصلا فقد كان معروفا فيها. ومرة أخرى أخذ صوته القوي الرنان ذو النبرة الرخيمة ألباب الحاضرين. في هذا الخطاب، لم يقدم غلام أحمد البراهين حول صدق الإسلام والدعوة الأحمدية، وإنما أبدى تقديره لكريشنا زعيم الهندوس لأنه وكما أخبره الله تعالى فإنّ كريشنا كموسى وعيسى وكأنبياء كثر بعثهم الله تعالى. لقد أراد الله عزّ وجل كما قال أحمد أن يجمع جميع الأديان تحت لوائه الذي هو لواء الإسلام. استمر هذا اللقاء العلني مدة يومين، بايع أحمد الكثيرون أيضا، ورافقته الجموع بالآلاف عند مغادرته إلى محطة القطار.

عاد غلام أحمد إلى مدينة غورداسبور مركز مقاطعة غورداسبور التي تقع قاديان ضمن أراضيها، فدعوى التشهير القضائية المرفوعة ضده في جهلم التي كان من المفروض أن يُنظر فيها هناك قد نُقلت إلى غورداسبور للحكم فيها، إذ تمّ الحرص على تحويل القضية من محكمة إلى أخرى باستمرار حتى تصل إلى قاض قليل الملاحظة كما أمل الخصوم فلا يُستدعى مثلا أحمد ويُحكم غيابيا، ولكنّ أحمد انتقل بشكل مؤقت للإقامة في المكان الذي ستنظر فيه القضية. لم تكن دعوى التشهير هذه إلا واحدة من طابور طويل من قضايا مماثلة رُفعت ضد مرزا غلام أحمد في مشوار نمو جماعته، إذ ظن معارضوه أنّ محاولة إلهائه وتضييع وقته في النـــزاعات القضائية ستثنيه عن إشاعة دعوته، وأنّهم لو كسبوا واحدة من هذه القضايا لصالحهم ضده فسيقضي على سمعته تماما.

أما بالنسبة للقضية المذكورة، التي رفعها المدعو كرم الدين فقصتها أنّ هذا الشخص تظاهر كذبا باهتمامه بدعوة غلام أحمد وتعاطفه معه، وكتب إليه أنّ واحدا من معارضي الأحمدية يكتب كتابا عنه –أي عن أحمد– وأنّ هذا المعارض قد سرق معظم أفكار كتابه من كتب أناس آخرين، وكما هو

واضح فهذه الرسالة حيلة من كرم الدين خُيِّل إليه أنه سيستدرج بها أحمد إلى ما يمكن أن يُؤخَذ عليه وضدّه. ولكنّ الحيلة الرخيصة سرعان ما انكشفت وندد أحمد بهذا الأسلوب وقال على الملأ إنّ كرم الدين إنسان خبيث الطوية وكذاب من رأسه إلى أخمص قدمه، فما كان من كرم الدين إلا أن رفع دعوى تشهير ضد أحمد.

ومع أن قضية كرم الدين دعوى تشهير بسيطة، إلا إنّ جلساتها استمرت على مدى عامين كاملين لأنّ بعض ناشطي طائفة الآرياسماج الهندوسية قد حرّضوا قاضي التحقيق – والذي كان هندوسيا – على أن يشهد زورا في هذه القضية التي حسِبوها الفرصة السانحة للانتقام لموت ليكهرام الهندوسي؛ كما أقنع هؤلاء الناشطون قاضي التحقيق في اجتماع في منزله، حيث قال أحد الناشطين للقاضي ما معناه: إنّه (أي أحمد) الآن كالعصفور في قبضة يدك وتستطيع أن تسحق عنقه كالفرخ إن رغبت في ذلك، لكنّك إن تركتَهُ طليقا سوف يذهب ويعادي قومك. ولم يشعر ضمير قاضي التحقيق بأي وخز من الموافقة على مطلبهم هذا، بل غاب ضميره تماما؛ إنّه يريد أن يعسّر حياة غلام أحمد وحياة أي شخص يشهد لصالحه! وقال القاضي كذلك إنّه لديه السلطة ليحبس الشهود وأحمد معهم على ذمة القضية، ولن يدع مجالا لأي كفالة لإطلاق سراحهم.

ولكن ولحسن حظ أحمد، سمع كاتب قاضي التحقيق هذه المحادثة وكشف لمحامي أحمد عن هذه المؤامرة، في الواقع كان كاتب القاضي مسلما وعلى الرغم من كونه ليس أحمديا إلا أنّه لم يقبل أن يُهان واحد من زعامات البنجاب المسلمين بهذه الطريقة. وبالطبع وصلت المحادثة هذه إلى غلام أحمد، ولكنها وصلت في وقت كان المرزا مريضا راقدا في غرفة أقام فيها في غورداسبور، ولم يُخفِ شحوب المرض نضارة الحماس التي غمرت محياه وقال بصوت عال:

أنا- طائر يُدق عنقه؟! أنا لست دجاجة تنتظر الذبح. أنا أسد الله. فليمدد هؤلاء القوم يدهم على أسد الله وليروا ماذا سيحل بهم، من لديه الشجاعة ليأسر أسد الله؟! ذَرْهُم يجسروا.

لقد كان صوته عاليا حتى إنّ الناس الذين كانوا خارج الغرفة توقفوا ودخلوا الغرفة ليعرفوا ما الخطب. ثم ما لبث أن هدأ عنه الحماس وعاد لونه إلى طبيعته، فحرك يديه قائلا: ماذا بمقدوري أن أفعل؟ لقد فوضت أمري إلى الله تعالى وأنا مذعن لقضائه وعلى استعداد أن ألبس الأغلال في معصمي لوجهه ولكنه تبارك وتعالى يخبرني في كل مرة: لن أدع هذا يحدث. سأحميك ولن يجرؤ أحد على لمسك.

وفجأة وضع أحمد رأسه على ركبتيه وتقيأ دما، فاستُدعي ليفحصه على الفور الطبيب، الذي صدف أنّه كان بريطانيا، وأخبر أصحابه بأنّه يجب على غلام أحمد أن يرتاح لأنّ تقيؤ الدم عند كبار السن مسألة خطيرة. وبناء على وضعه الصحي قام الطبيب بتوقيع شهادة طبية تفيد أن أحمد لا يستطيع حضور المحكمة في الأيام المقبلة بسبب وضعه الصحي الذي لا يسمح بذلك مطلقا لمدة شهر. ولما جاء وقت الجلسة في المحكمة، استشاط قاضي التحقيق غضبا لـمّا لم يرَ غلام أحمد بين الحاضرين، ولما قدمت الشهادة الطبية أمامه قام القاضي باستدعاء الطبيب رسميا حتى يتحقق من صحة الشهادة الطبية الموقعة من قِبلَه وللتأكد من خلوها من التزوير. ثم قام القاضي بإقرار التهم الموجهة ضد غلام أحمد رسميا في تلك الجلسة. واستمرت القضية جلسة بعد جلسة. ثم حدث أن تم تخفيض رتبة قاضي التحقيق القضائية بسبب قضية أخرى غير قضية غلام أحمد و لم يعد بالتالي ينظر فيها، والآن لا بد من إعادة تقديم جميع حيثيات الدعوى أمام قاضٍ آخر وكان أيضا هندوسيا. وكان متزمتا لدرجة أنّه رفض السماح لأحمد بالجلوس على كرسي، والذي كان يسمح له بالجلوس عليه لأنه من زعامات قاديان من جهة ولكبر سنه من

جهة أخرى. ورفض القاضي الجديد السماح لمرزا غلام أحمد بشرب الماء أثناء انعقاد المحاكمة. وفي ختام الجلسة أعلن القاضي الهندوسي الجديد أنه سيصدر حكمه في يوم محدد ثم ما لبث أن غيّر هذا اليوم إلى يوم سبت. إلا أنّ محامي غلام أحمد اكتشفوا سبب التأخير. كان القاضي يريد أن يفرض غرامة كبيرة على أحمد في ذلك اليوم قبيل إغلاق المحكمة والدوائر الرسمية التابعة لها أبوابها بسبب العطلة الأسبوعية فيعجز أحمد وِفق هذه الخطة عن تدبير ودفع المبلغ الكبير بشكل فوري، ويصبح لزاما عليه أن يمضي اليومين التاليين في السجن حتى تفتح المحكمة أبوابها في بداية الأسبوع.

وجاء السبت، وقبيل إغلاق المحكمة كما كانت خطة القاضي استُدعيَ أحمد ليمثل أمامه، إلا أنّ القاضي أمر ضباط الشرطة الموجودين بطبيعة الحال بمنع أي شخص من الوجود أو دخول المحكمة. غير أنّ محامي غلام أحمد ومعاونوه ظلوا يروحون ويجيئون قبالة ضباط الشرطة معترضين على عدم قانونية هذا الإجراء حيث إنه محاميه ومستشاره القانوني ولا بد له من مرافقته فما كان منهم إلا أن سمحوا للمحامي بالدخول في آخر الأمر في الوقت الذي كان القاضي يصدر الأمر القضائي بتوقيع عقوبة خمسمئة روبية كغرامة مالية على أحمد، وكان هذا مبلغا باهظا في تلك الأيام بالنسبة للقضايا التي من هذا النوع. لكنّ المحامي الذي تدبر أمره سلفا قدم على الفور المبلغ المطلوب أمام القاضي وطلب منه أن يصدر إشعارا رسميا يفيد بتسديد الغرامة. حاول القاضي الاعتراض والمماطلة ولكن أُسقط في يده واضطر لقبول المبلغ وانتهت القضية وأحبطت المكيدة و لم يمسَّ أحدٌ أسد الله بسوء.

من الجدير ذكره أنّ أحمد أعلن على الملأ أنّه وإن كان مذنبا في عين القاضي لكنّ الله عزّ وجلّ أخبره أنّ قضيته سوف ينظر فيها لدى محكمة أعلى، وهذا ما حصل. فقد تقدم محامو غلام أحمد باستئناف لدى محكمة ذات درجة قضائية أعلى، فردّت المحكمة الأخيرة حكم قاضي التحقيق وتمت

إعادة الغرامة المهولة إلى أصحابها. لقد قال القاضي في المحكمة التي استؤنفت أمامها القضية، لا أرى أمامي دعوى تشهير بل أرى مقولة حق صدرت وفق ظروفها وهي مبررة ومقبولة تماما لدينا. فإنّ سوء خُلُق كرم الدين يبرر تماما ما نعته به غلام أحمد. وأعرب القاضي عن استغرابه من أنّ قضية ضئيلة القيمة كهذه قد استمرت سنوات عديدة وعقدت عدة جلسات استماع للبت فيها.

في عدة مراحل من هذه القضية، كان يبدو لمن يراقب أن معارضي غلام أحمد قد حققوا هدفهم ونجحوا في إضاعة وقته وإعاقته عن التبشير بدعوته ولكن هذه الرحلات التي قطعها لحضور الجلسات على امتداد مجريات القضية قد جاءت بفوائدَ غير منظورة لهم، ففي رحلاته هذه مثلا كان يُتاح لأصحابه وقتٌ أكبر للمكوث معه. فلما كانت المحاكمة تؤجل ليومين ثم لسبعة ثم ليومين آخرين كان أصحابه يكونون برفقته طيلة ذلك الوقت، ويستمعون لحديثه وكان يجيب على استفساراتهم وأسئلتهم، حتى إن واحدًا من مؤرخي الجماعة الإسلامية الأحمدية يقول إن كثيرا مما ذكره أصحاب غلام أحمد حول طباعه وسلوكه يعود لتلك الفترة. ويقول ذلك المؤرخ كذلك إنه من قدر الله تعالى أنهم مكثوا معه في تلك الفترة ليتحضروا للوقت الذي لم يكن بعيدا عنهم حيث لن يكون بصحبتهم.

الفصل الخامس والثلاثون

نبي اللّه

ألمّ بأحمد في شهر تشرين الأول/أكتوبر من عام ١٩٠٥ خَطْب جَلَل، إذ فقد أحمد واحدًا من أخلص حوارييه الذين كان يعتمد عليهم، إنّه السيد عبد الكريم السيالكوتي الذي كثيرا ما ألقى الخطب نيابة عنه عندما بدأ كِبَرُ السنِّ يُضعف صوته، توفي السيد عبد الكريم عن عمر لا يتجاوز السابعة والأربعين.

جاء عبد الكريم إلى قاديان في حداثة عمره، بناء على دعوة من المولوي نور الدين، وفي ذلك العمر رأى عبد الكريم في غلام أحمد معلما عظيما وعالما مسلمًا عميق المعرفة غزير العلم، ومع استمرار مرافقته لأحمد أدرك عبد الكريم ما هو أبعد من ذلك؛ إذ وجد فيه مبعوثا من عند الله عز وجل فصدّقه وعاهده على كامل الطاعة والإخلاص.

استكمل عبد الكريم دراسته تحت إشراف غلام أحمد، وتقدم في الدراسة وارتفعت مكانته العلمية حتى أنه لـمّا بلغ أشدّه صار عالما كبيرًا وخطيبًا مفوّهًا وكاتبا بليغا. عُرِف السيد عبد الكريم السيالكوتي بقوة لغته وغزارة المعاني على بساطتها، كما عرف عنه القدرة الفذّة على شرح معاني القرآن الكريم بأسلوب يسهل استيعابه على اختلاف درجات الفهم. كما كان عبد الكريم داعية ذا شأن كبير، ساعده في ذلك صوته القويّ وحسن بيانه واطلاعه على الشعر الديني ما أغنى كلماته بالمشاعر الروحانية الجياشة، لقد كان بلا ريب من أبلغ معاصريه.

مرض السيد عبد الكريم بورم خبيث عضال حبسه قعيد الفراش مدة شهرين كاملين، ثمّ ما لبث أن التقط جسده الضعيف التهابًا رئويًّا حادًا تُوفّي على إثره يوم ١١ من شهر تشرين الأول/أكتوبر. كانت وفاته حزنا كبيرا

لمرزا غلام أحمد. إذ إنّ عبد الكريم كان بمترلة ابن روحاني له ربّاه ورعاه وشاهده وهو يكبر وينضج. في الواقع كان تقدم السيد عبد الكريم المستمر مصدر سعادة ورضا لمرزا أحمد، وكذلك كانت الطريقة التي أدار بها عبد الكريم الكثير من الشئون التي تخص الحركة الأحمدية، لقد كان السيد عبد الكريم بحق ذراعا عضودا لغلام أحمد.

رَثَت الجماعة الأحمدية فقيدها الغالي، وقال بعضهم في رثائه إنه لن يوجد من يشغل مكانه الخالي، غير أنّ أحمد وعلى الرغم من مكانة عبد الكريم الكبرى عنده وبّخهم قائلا ما معناه إنّ هذا شِرك وإنّه لا ينبغي أن نُحَوِّل الناس إلى أصنام، فالله تبارك وتعالى عندما يأخذ من بين جماعتنا شخص عالي المقام فإنّه بلا شك سيرسل لنا من يخلفه. وردد الآية القرآنية: ﴿إنّا لله وإنّا إليه راجعون﴾.

في تلك الفترة التي توفي فيها عبد الكريم، كان أفراد الجماعة الأحمدية قلقين كذلك على صحة مرزا غلام أحمد؛ ذلك أنّه قد تجاوز عامه السبعين وما زال كعهده قليل الطعام، حريصا على المشي كلما سنح له ذلك. وبالطبع التزم دائما بحضور الصلوات الخمس جماعة دون انقطاع، ولم يفوّت يوما الاستيقاظ ليلا عند الثانية ليقيم صلاة التهجّد. ودأب على كبر سنه، على دراسة القرآن الكريم لساعات وساعات يوميا، فضلا عن إشرافه على المسئولين عن اللجان المتعددة التي تنظم شئون جماعته التي تتزايد أعدادها باستمرار، وصارت عالمية بدخولها بلدان مختلفة عبر الدعاة الأحمديين الأوائل الذي أُرسلوا إلى مختلف الأقطار.

لم يتمتع أحمد يوما بصحة موفورة، ولكنّه لم يستسلم لداء الشقيقة الذي لازمه ولا للسكري، ولم يسمحْ لمرضيه أنْ يعيقا حركته. وبعد وفاة عبد الكريم توجّه أحمد إلى مدينة دلهي، ليجد معارضيه قد نظموا تظاهرات احتجاجية، وكان الصخب والضوضاء عاليًا ومتواصلا لدرجة تعذّرَ معهاً

سماع صوته، ومع هذا فقد انضم أشخاص جدد إلى جماعة أحمد. وفي طريق عودته من دلهي إلى قاديان قرر أحمد التوقف في مدينة لُدهيانه حيث كان قد أخذ سابقا ولأول مرة البيعة من المولوي نور الدين أول مبايعيه، ووجد في لُدهيانة آلاف الناس بانتظاره. ثمّ توجّه بعد لُدهيانه إلى أمرِتسار حيث خطب في جمهور من الآلاف، ولكن وفي هذه المرة كان المعارضون قد نظموا صفوفهم، وحاولوا مرة بعد مرة مهاجمة المنصة ولكن ولحسن الحظ وجدت قوات الشرطة وأبعدت المهاجمين بعيدا فازداد هياج الغوغاء من المعارضين ما اضطر قوات الشرطة أن تطلب من أحمد إنهاء كلمته قبل خاتمتها المفترضة، ثمّ رافقت الشرطة أحمد إلى عربة مغلقة تابعة لها. غير أنّ هذا الإجراء لم يُثنِ المعارضين عن الهجوم ثانية حتى إنهم تمكنوا من الاقتراب من العربة التي أقلّته، وطفقوا يضربون على سقفها ونوافذها الزجاجية بالعصي؛ فصدتهم الشرطة. حينها ابتعدوا ثم انهالوا على العربة رميًا بالحجارة فأصاب حجرٌ زجاج إحدى نوافذ العربة وكسره وجرح وجه بشير الدين محمود أحمد الابن الثاني لغلام أحمد الذي كان جالسًا بجوار أبيه. لحسن الحظ لم يكن الجرح بالغًا، ولم يُصب من أتباع أحمد في هذه الحادثة سوى ابنه. يقول بشير الدين محمود لاحقا عن هذه الحادثة إنّه يشعر بالغبطة لكونه أول فرد يجرح من قبل المعارضين من عائلة أحمد وإنّه يشعر بالغبطة أكثر لأنه كان يجلس أيضا بجوار (المسيح الموعود) نفسه حينها.

من جهة أخرى، كانت هناك طائفة الآريا سماج الهندوسية التي لم يخمدْ أُوَار عدائها تجاه أحمد إلا فيما نَدر حيث كانت هناك فترات سكون. وقد أُرسلت من قبلهم دعوةٌ إليه لحضور مؤتمر للأديان في مدينة لاهور. وهنا وجد أحمد أنَّ الانسحاب منه لن يكون مجديا؛ فموضوع الحوار الذي عُقد المؤتمر لأجله هو الإجابة عن سؤال: (هل يوجد في العالم كتاب موحى به بالكامل؟ وإذا كان هذا صحيحا فما هو هذا الكتاب؟).

قامت الآرياسماج بدعوة ممثلين عن معظم الجماعات الدينية في البلاد، وأكّد القائمون على دعوة مرزا أحمد أنّه لن يُسمح أبدا لأي فرقة بالهجوم على الأديان الأخرى، ولكن وعلى الرغم من ادّعاءاهم هذه عَلِم غلام أحمد من خلال وحيٍّ تلقاه أنّ الهجوم على الإسلام سيكون على أشدّه هذ المرة خلال المؤتمر، فصمم أحمد أنه لن يترُك الهجوم دون تفنيد.

رأى أحمد أن يكلّف المولوي نور الدين بقراءة كلمته التي كتبها أحمد بنفسه للمؤتمر وأن يصحبه للمؤتمر مجموعة من مبايعيه. كانت الكلمة على قدر كبير من الأهمية ومؤثرة إذ إنّها ثمرة سنين طويلة من دراسة ومقارنة الأديان، وبالفعل خلّفت أثرا طيبا على المستمعين الذين تلقوها باحترام وتقدير. في اليوم التالي، كان دور الآرياسماج للردّ، وعلى خلاف ما ادّعى منظمو المؤتمر من الالتزام باحترام الأديان وعدم مهاجمتها، قام المتحدث باسم الآريا بالهجوم رأسا على الإسلام وعلى رسوله.

وصل خبر الهجوم إلى أحمد، وعرف أنّ نور الدين وأصحابه جلسوا صامتين حينما كان متحدث الآريا يكيل الهجوم على الإسلام والنبي، فصُدم وتملكه الذهول فخاطب نور الدين قائلا: "لَمَ لَمْ تنسحبوا من المؤتمر؟ هل كنتم مهيئين لسماع الإساءة للنبي؟" أقرّ المولوي نور الدين والصحابة الموجودون معه كذلك بأنّ جلوسهم صامتين كان خطأ كبيرا قد يفسر بأنّهم قبلوا الاعتراضات، وعليه عزم أحمد على تفنيد الادّعاءات والرد عليها علنا، فكتب كتابا أسماه (جشمه معرفت) أي "ينبوع المعرفة"، وتناول فيه عقيدة الهندوس بخصوص تناسخ الأرواح وتعاليم الفيدا الأخرى. وبـيـّـن أحمد في هذا الكتاب أن الاعتقاد بأنّ الله تعالى ليس هو خالق الأرواح والمادة في هذا العالم وأنهما أزليّان مثله تعالى، وأنّ الله تعالى يحكم العالم عن طريق التحكم بهذين العنصرين لهو معتقد شركي يقوم على تعدد الآلهة وينفي عن الله عزّ

وجل صفة الخالق. وطرح أحمد تساؤلا على أتباع الفيدا؛ وهو هل يمكن بقدراتنا البشرية المحدودة أن نقيس قدرة الله تعالى؟

تُعدّ عقيدة تناسخ الأرواح ركنًا هاما في عقيدة الهندوس، ويقول أحمد إنّ هذا المعتقد الباطل قد نشأ نتيجة فهم خاطئ لم يميز بين قوانين الطبيعة وبين القوانين الدينية، ما أدّى إلى استنتاجات خاطئة تماما. فالحاصل عند الهندوس أنّهم حاولوا فَهْم الظواهر الطبيعية التي تحكمها قوانين معينة وفق قوانينهم الدينية. ومن هذه الاستنتاجات الخاطئة نشأت عقدية تناسخ الأرواح.

فضلا عن هذا، تناول أحمد عقيدة الهندوس في الوحي الإلهي، إذ يعتقد الهندوس أن الوحي الإلهي كان قائما فقط وقت نزول الفيدا أما بعد أن انتهى عصر الفيدا فقد أُغلق هذا الباب إلى غير رجعة وأغلقت معه أي نبوة. فأحمد يرى أيضا في غلق باب تلقي الوحي الإلهي عقيدة باطلة، فوِفقًا له إن لم تُروَ شجرة الإيمان دوما بماء الوحي السماوي والبشارات والمخاطبات الإلهية فطريقها الذبول والهلاك لا محالة، والدين الذي يُغلق باب الوحي الإلهي هو دين باطل مصيره الموت. فالوحي الإلهي الذي بلغ أوجه وأتمّ صورته بالقرآن الذي أُنزل على محمد قد فتح الباب لمزيد من المخاطبات الإلهية و لم يسدّ سبل الوحي. نعم هناك أنبياء كثر، ومحمد خاتَمهم وأكملهم وأعظمهم شأنا، وهو — أي مرزا غلام أحمد - المسيح الموعود الذي سيجمع كل الديانات تحت راية الإسلام.

شهد هذا العام- أي ١٩٠٥- وفودَ الكثير من الناس من مختلف البلدان والأمصار إلى قاديان، مع أنها لم تزل قرية صغيرة معزولة يتجشم قاصدها مشقة عبور طريق وعرة غير معبدة مملوءة بالأوحال يصلها الزائر عن طريق بلدة بطالا، ووسيلة النقل الوحيدة التي تـُمكِّن من الوصول هي عربة الثيران، فالرحلة إذا بطيئة مغبرة وغير مريحة تستغرق نهارا كاملا من بطالا، ولكن هذا كله لم يعطل التدفق البشري إلى قاديان.

من بين زوار قاديان في ذلك العام كان مبعوث السلطان العثماني. ولأول مرة منذ أن بسطت بريطانيا سيطرتها على أراضي البنجاب وصل إلى قاديان مبعوث حكومي، فالقرية الصغيرة هي واحدة من آلاف القرى المماثلة في الهند التي يكسب سكانها قوتهم عن طريق الزراعة، والتي قلما تداولت العملات النقدية فيها. ومن جهة أخرى لم يكن بها أي نوع من القوة المسلحة، أي أنّ قاديان لم تكن ذات شأن اقتصادي أو سياسي أو عسكري يُذكر، ومع ذلك فقد جاءها مفوض الشئون المالية لإقليم البنجاب زائرًا — وهو الرجل الثاني في الإقليم بعد الحاكم- وقد رافقته حاشيته وحرسه الذين كانوا بضع مئات من الجنود خيّموا على تخوم أسوار القرية القديمة التي كانت يوما ما سور الدفاع عن القرية لصد الهجمات الخارجية. ولأن أحمد كان واحدا من زعماء قاديان، فقد أُعلم بوصول الضيف الكبير حسْب العادات المتّبعة، حتى يحضر الطعام للمفوض ولحاشيته. اقترح البعض عليه من باب إكرام الضيف أن يهيئ النبيذ والخمور فرفض أحمد بحزم وشدة إذ أنّ الخمرة محرمة عند المسلمين وهو لن يعصي الله تعالى أو يفرط في شيء من دينه مهما كانت مكانة الضيف الدنيوية.

أرسل أحمد بعض الرجال من جماعته لاستقبال المفوض والترحيب به ولكنّه لم يذهب بنفسه، فهو رجل دين لا سياسة كما قال هو بنفسه. وفي اليوم التالي لوصول المفوض أرسل إلى أحمد يطلب منه أن يتكرم بالحضور إلى خيمته فقبل أحمد. وصل أحمد إلى خيمة المفوض ودار بينهما حديث امتد لبضع ساعات، كان المفوض يسأل فيها مرزا أحمد عن الدعوة الأحمدية وأحمد يجيب، ثم غادر الضيف الكبير في اليوم التالي.

قدم إلى قاديان ضيوف كثر وإن كانوا أقل مكانة من المفوض لكنهم كانوا كذلك على قدر من الأهمية. فمثلا جاء بروفيسور من جامعة اسكتلندية، وضيفان أميركيان. جاؤوا ليسألوا عن الأحمدية وعن دعواه بأنه

المسيح الموعود وعمّا إذا كانت عنده آيات تؤيد دعواه، كان أحمد يجيب وقال لهم بأنهم هم أنفسهم واحدة من هذه الآيات: "إذا تفكرتما مليا في أمري تجدون أني ولسنين طويلة كنتُ أحيا حياة عزلة في زاوية الخمول في قاديان بعيدا عن أعين العالم، وأخبرني الله تعالى وقتها إنّه سيحمل دعوتي إلى أقصى أطراف الأرض، وإنّ الناس من أقصى العالم سيأتون إلى قاديان لرؤيتي. وقد أنجز الله تعالى وعده، فلا أحد في أميركا يعرفني أو يعرف قاديان وها أنتما قد جئتما لترياني؛ فصرتما نفسيكما برهانا على صدق دعوتي".

الفصل السادس والثلاثون

الوصية

تحلّى أحمد على الدوام بالقوة والعزيمة في الدعوة ولم تبدُ عليه علامات التراخي أو الفتور في بذل الجهد التبشيري للدعوة الأحمدية، على الرغم من سِني عمره التي ناهزت السبعين، معتقدًا أنّ كل يوم من هذه المرحلة هو هبة من الله تعالى ومدركًا أنّ يوم الأجل المحتوم قد بات وشيكا.

وقد ذكر غلام أحمد أنّ الله تعالى قد أخبره عن طريق الوحي بقرب أجله وكان الوحي متكررا ومتواترا بحيث قال غلام أحمد إنّ تواتر هذا الوحي قد هزّ أصول الحياة في كيانه وفَـتَّـرَ الحياة فيه. جاءه أول وحي بهذا الخصوص على شكل رؤيا رأى أحمد فيها أنّه قد قُدّم له ماءٌ صافٍ وشعر حينها برعدة باردة تسري في أطرافه، وكانت كمية الماء قليلة بالكادً تكفي رشفتين أو ثلاث، وقيل له أنّ هذا الماء هو ما تبقى من عمره. وبعد هذه الرؤيا تلقّى أحمد وحيا بالأردية بما معناه: "قَلَّت أيام حياتك. يومئذٍ يستولي الحزن على الجميع"، وفي تشرين الثاني/نوفمبر من العام نفسه تلقّى وحيا آخر: "قلّ ميعاد ربك، قرُبَ أجلُكَ المُقدَّرُ ولا نُبقي لك من المُخزيات ذِكرًا" [بدر، مجلد ١، عدد٣٨، ص٢] ثم في شهر كانون الأول جاءه وحي بالعربية: "جاء وقتك ونُبقي لك الآيات باهرات... قرب وقتك ونُبقي لك الآيات بيّنات" [بدر، مجلد ١، عدد٣٩، ص٢]. ونتيجة لما تلقى أحمد من الوحي حول قرب أجله كتب كتاب (الوصية) الذي أجْـمَلَ فيه خلاصة دعوته وأوصى أتباعه بأن يستمسكوا بالتعاليم والمعارف الإلهية التي بلّغهم إياها، وأن لا يخافوا ويَثْبُتوا عند المحن والابتلاءات القادمة لا محالة، حيث إنّ هذه الاختبارات من سُنّة الله تعالى ليَميزَ الطيب والخبيث. وذكر أحمد في هذا

الكتاب أنّ مهمة المبعوث السماوي هي بَذْر بذرة التقوى- وهذه كانت مهمته التي بلّغها في حياته – أمّا الآن فالله تعالى بفضله هو الذي يُنميها لتغدو غرسة ثمّ تزدهر وتشتدّ فتستوي شجرة أصلها ثابت وفروعها في السماء تملأ الآفاق.

وقال أحمد كذلك إنّ موت الأنبياء هو قدر محتوم وقد يحدث قبل اكتمال غايتهم المنشودة، عندئذ يفرح المعارضون ويبتهجون معتقدين أنّ ما تمنّوا حدوثه قد تحقق بالفعل. أمّا أتباع الأنبياء الذين باغتتهم الفاجعة وخاصة الأقل ثباتا وضعاف الإيمان فقد يتعثرون ويتقهقرون. في هذا الوقت العصيب تتجلى (قدرة الله الثانية) التي تمتد مثل يَدٍ من الغيب تنتشل البناء الذي كان على وشك الانهيار وتقيمه على أركان الخلافة. يقول أحمد: "هذه هي سُنّة الله الجارية، ومنذ أن خلق الإنسان في الأرض ما زال يُبدي هذه السُّنة دون انقطاع؛ إنّه ينصر أنبياءه ومرسليه ويكتب لهم الغلبة كما قال تعالى: ﴿كَتَبَ اللهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنا وَرُسُلِي﴾ [المجادلة- ٢٢]. والمراد من الغلبة هو كما أنّ الرُّسل والأنبياء يريدون أن تتم حجة الله على الأرض بحيث لا يقدر أحد على مقاومتها، فإنّ الله تعالى يظهر صدقهم بالبيّنات، ويزرع بأيديهم بذرة الحق الذي يريدون نشره في الدنيا، ولكنّه لا يكمله على أيديهم بل يتوفّاهم في وقت يصحبه الخوف من الفشل بادي الأمر، فيُفسح المجال بذلك للمعارضين ليسخروا ويستهزئوا ويطعنوا ويخرجوا خبثهم، وحينما يكونون قد أفرغوا كل ما في جعبتهم من سخرية واستهزاء يُظهر الله تعالى يد القدرة الثانية، ويهيئ من الأسباب ما تكتمل به الأهداف التي كانت إلى ذلك الحين غير مكتملة لحد ما". ويكمل أحمد ما مفاده: "فالحاصل أنّه تعالى يُري قسمين من قدرته: أولا، يُري يد قدرته على أيدي الأنبياء أنفسهم، وثانيا، يُري يد قدرته بعد وفاة النبي حين تواجه المحن ويتقوى الأعداء ويظنون أن الأمر الآن قد اختلّ، ويوقنون أنّ هذه الجماعة سوف تنمحي، حتى إنّ أعضاءها

أنفسهم يقعون في الحيرة والتردد، وتنقصم ظهورهم، بل يرتد العديد من الأشقياء، عندها يُظهر الله تعالى قدرتَه القوية ثانية ويُساند الجماعة المنهارة. فالذي يبقى صامدًا صابرًا حتى اللحظة الأخيرة يرى هذه المعجزة الإلهية، كما حصل في عهد سيدنا أبي بكر الصدّيق ﵁، حين ظُنّ أنّ وفاة الرسول ﷺ قد سبقت أوانها، وارتدّ كثير من جُهال الأعراب، وأصبح الصحابة من شدّة الحزن كالمجانين، عندها أقام الله تعالى سيدنا ابا بكر الصديق، وأظهر نموذجًا لقدرته مرة أخرى، وحمى الإسلام من الانقراض الوشيك. وهكذا أتمّ الله ﷻ وعده الذي قال فيه: ﴿وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا﴾ [النور ٢٢]؛ أي أن الله تعالى سوف يُثبت أقدامهم بعد الخوف".

ويتابع أحمد أيضا في كتاب الوصية في مقطع آخر: "فيا أحبّائي، ما دامت سُنة الله القديمة أنّه تعالى يُري قدرتين، لكي يُحطم بذلك فَرْحَتَيْن كاذبتين للأعداء، فمن المستحيل أن يُغير الله تعالى الآن سُنّته الأزلية. لذلك فلا تحزنوا لما أخبرتكم به ولا تكتئبوا، إذ لا بد لكم من أن تروا القدرة الثانية أيضا، وأنّ مجيئها خير لكم، لأنها دائمة ولن تنقطع إلى يوم القيامة، وإن تلك القدرة الثانية لا يمكن أن تأتيكم ما لم أُغادر أنا، ولكن عندما أرحل سوف يُرسل الله لكم القدرة الثانية، التي سوف تبقى معكم إلى الأبد بحسب وعد الله الذي سجلته في كتابي (البراهين الأحمدية)، وإنّ ذلك الوعد لا يتعلق بي بل يتعلق بكم أنتم. كما يقول الله ﷻ: إني جاعل هذه الجماعة الذين اتبعوك فوق غيرهم إلى يوم القيامة". وأعلن في كتابه هذا إعلانًا هاما: *"فأنا قدرة الله المتجسدة وسيأتي من بعدي آخرون، سيكونون مظاهر قدرة الله الثانية"* .

بعد كتاب الوصية، كان على أحمد مواجهة السؤال الذي طرح نفسه: ماذا سيكون مصير التعليم الديني للحركة بعد أصحابه؟ فالمؤسسة التعليمية الوحيدة التابعة للحركة هي مدرسة (تعليم الإسلام) الثانوية التي كانت

مخصصة للبنين حتى عُمر ثمانية عشر سنة وهي لا تفي بالغرض (مع ملاحظة أنّه قد أُنشئت مدرسة مناظرة للفتيات). تطلع أحمد إلى جامعة دينية تكون قاعدة تعليمية ينطلق منها الدعاة المستقبليون الأحمديون، مسلحين بالمعرفة عبر دراستهم العميقة للعلوم الإسلامية واللغة العربية -كونها لغة القرآن- وللأديان الأخرى، فضلا عن اللغة الإنجليزية والسنسكريتية والعلوم والجغرافيا ومهارات الكتابة والخطابة. لقد كان هذا التصور تقدميا بحيث إنه المنهج الدراسي الذي اتُّبع لاحقا بعد عقود طويلة في أرقى معاهد الدراسات الدينية في الغرب فقط. أما الجماعة الإسلامية الأحمدية فقد استطاعت عن طريق جامعة الدعاة أو المبشرين الخاصة بها أن تكوِّن فيلقا من المبشرين الشباب على مستوى عال من التعليم والإيمان قادرين على مناظرة المسيحيين والهندوس وغيرهم من أصحاب الديانات أو الملاحدة، وتطلب إعدادهم في هذه الجامعة مدة خمس سنوات دراسية.

في بادئ أمرها، كان مبنى الجامعة مكوَّنا من جناح في مدرسة الجماعة الثانوية للبنين، ولكن ومع مرور الوقت، وكنتيجة طبيعية لازدياد عدد أفراد الجماعة الأحمدية، ازداد عدد الطلاب. فطلب أحمد من أفراد جماعته القيام بجمع تبرعات خاصة من دخولهم الشهرية لتتمكن الجماعة من بناء المباني اللازمة للجامعة الناشئة.

واستكمالا لإعداد الدعاة الأحمديين المستقبليين، أنشئت جمعية تدعى (تشحيذ الأذهان) وكانت تحت إشراف أحمد المباشر. كان الهدف من هذه الجمعية رفع المستوى الفكري للشباب الأحمدين وكان من بين أهم أهداف هذه الجمعية هو تدريب أعضائها على مهارات البلاغة والفصاحة في مجالات الخطابة والحديث والكتابة. وعقدت الجمعية اجتماعاتها الأسبوعية أو الشهرية بحسب مقتضى الحال وأصدرت صحيفة شهرية كذلك.

لم يعد خافـــيًا أن شئون الجماعة الإسلامية الأحمدية قد اتسعت كمّـــًا ونوعا وصار من الواضح أنها تحتاج إلى إدارة مركزية تنظيمية تديرها، لذا قام أحمد بإنشاء هيئة (صدر أنجمن أحمدية) والتي تعني الرابطة الأحمدية المركزية، وعهِدَ إليها مهمة إدارة الجمعيات الأربع التابعة للجماعة ألا وهي المدرسة الثانوية، والجامعة الدينية، ومجلة مقارنة الأديان، وأخيرا إدارة شئون مقبرة الجنة (بهشتي مقبرة).

فأما الجمعيات الثلاث الأولى فقد سبق الحديث عنها آنفا، لذا ينبغي كذلك أن يُلقى الضوء على هذه المقبرة. في الواقع لم تكن مجرد مقبرة عادية بل كانت نظاما يستطيع به الأحمديون أن يمتدوا بعطائهم للجماعة الأحمدية حتى بعد موتهم. يقول أحمد أن الله تعالى قد أخبره عن طريق الوحي قبل عدة سنوات بضرورة تأسيس هذا النظام. سيُدفن في هذه المقبرة المؤمنون المخلصون أصفياء القلوب الذين سيكون مأواهم عند الله تعالى الجنة، وسيكونون سببا لتجديد إيمان الأجيال المتعاقبة بعدهم. فبعد وحي من الله رأى أحمد ضرورة بناء مقبرة على أرض مجاورة لحديقة أشجار المانجو التي تخصه.

أعلن أحمد الشرْطَيْن الضروريَّيْن الواجب تحققهما حتى يُدفن الشخص في هذه المقبرة، فأولا ألا يُدفن في هذه المقبرة إلا كلّ تقي يجتنب المحرمات ولايرتكب عملا من أعمال الوثنية والبدعة وأن يكون مسلما صادقا ومخلصا. الشرط الثاني، ألا يُدفن في هذه المقبرة من أفراد الجماعة إلا من يُوصي بأن يُنفَقَ على الأقل عُشْرُ تَرِكَتِهِ وعلى الأكثر ثلثها بعد موته من أجل نشر الإسلام وتبليغ أحكام القرآن بحسب توجيهات الجماعة الأحمدية. وكل صالحٍ لم يملكْ عِقارًا، ولم يستطع أن يقوم بأي خدمة مالية، إذا ثبت أنّه كان قد وقف نفسه لخدمة الدين، وكان صالحا فيُمكن أن يدفن فيها كذلك. لم يعنِ دفن المتوفى بحدّ ذاته في مقبرة الجنة أنّه قد ضمن الجنة تلقائيا، أي أنّ

الدفن في المقبرة ليس هو الغاية. ولكن لن يُدفن فيها إلا طاهرو القلوب الربّانيون الذين لا تشوب أعمالهم شائبة من أغراض الدنيا والذين هم بالتالي أهل الجنة بإذن الله.

في عام ١٩٠٢، كان أحمد قد نظّم الطرق التي ينبغي أن تُجمع بها التبرعات من أفراد الجماعة لنفقاتها، ولكن هذه النفقات قد تضاعفت بشكل كبير مع وفود المزيد والمزيد من الضيوف إلى قاديان وإلى الجلسة السنوية للجماعة الأحمدية، ومن جهة أخرى هناك حاجة متزايدة ثابتة لمساعدة الفقراء والمسنين والأطفال الذين لا مُعيل لهم ولإطعام وإسكان وتعليم طلاب المدرسة، مع ملاحظة أنّ هناك عددا من الطلاب الذين يقدر ذووهم على الدفع وكانوا يقدمون مبالغ مالية للمدرسة مما يتيسر لهم وليس وفق أقساط أو رسوم معينة. في بادئ أمر الجماعة، لم تكن هناك تبرعات دورية يقوم بها الأفراد، بل كانوا يدفعون تبرعاتٍ استجابةً لطلب من مؤسس الجماعة عند حلول أمر ما، ولكن مع ذلك كانت هناك عدة أصوات من مخلصي الجماعة تدعو إلى أن يتم جمع التبرعات بشكل منظم ودوري. وبناء على ما سبق أعلن أحمد وجوب دفع التبرعات بشكل شهري وذلك لتغطية نفقات الجماعة، وأنه على أفراد الجماعة تحديد المبلغ الشهري الذي يلزمون أنفسهم بدفعه. أما إذا لم يفِ فرد من الجماعة بهذا الالتزام مدة ثلاثة أشهر متتالية فإنه لا يعود فردا من هذه الجماعة ويكون قد حادَ قلبيًا عن طريقها إذ إنّه وحينها كما يقول أحمد، غير مستعد لبذل التضحية المالية التي هي أولى مراتب التضحية في سبيل الإسلام الحقيقي فكيف يُعدّ إذن أحمديا حقيقيا؟ لقد قامت الجماعة الإسلامية الأحمدية العالمية على دعائم هذه التضحيات المالية التي كانت واجبا طوعيا قام به أعضاؤها بطيب النفس وعلى الأعمال والجهود العظيمة التي قام بها الأحمديون في تحسين الأوضاع الصحية والتعليمية والاجتماعية للجماعة بشكل عام. وبعد فترة لاحقة أعلن أحمد أنّ هذا

المقدار المعلوم الذي يُلزم الأحمديون به أنفسهم ينبغي أن يكون نسبة ثابتة من دخلهم الشهري.

أما بخصوص هيئة (صدر أنجمن)، فقد أقر أحمد بنفسه التنظيمات الإدارية التي تحكم عملها وتحدد مهامها وذلك في كانون الثاني عام ١٩٠٦. ضمّت هيئة صدر أنجمن أربعة عشر مديرا أو ناظرا تحت رئيس يعاونه سكرتير. كان رئيس الأنجمن هو المولوي نور الدين أما السكرتير فكان السيد محمد علي الذي كان كذلك رئيس تحرير مجلة (مقارنة الأديان). وكان من بين أعضاء الأنجمن عضو صغير السن لم يتجاوز السابعة عشر من عمره هو محمود أحمد الابن البكر لأحمد. وهكذا فالأعمال الإدارية التي كانت تقوم بها الجمعيات وُكّلت إلى هيئة واحدة هي صدر أنجمن، ولكن عندما يكون هناك قرار يتعلق بالسياسة العامة للجماعة حيال أمر ما فإن غلام أحمد هو الذي كان يبتّ فيه، ودور صدر أنجمن هو تقديم المشورة له بخصوص الأمور الروتينية. أبقى أحمد إدارة بيت الضيافة وإطعام الضيوف تحت إشرافه المباشر. وعلى الرغم من كون هذا العمل يعتبر أقل من أن يقوم به ويبدو فيه مضيعة لوقته الثمين لكنه تمسك به ورفض أن يقوم به أي ناظر كفء بدلا منه، لقد اعتبر أحمد أن خدمة الضيوف وقِراهم أمر ينبغي أن يقوم به بنفسه.

الفصل السابع والثلاثون

إكسير الحياة

من الطبيعي أن يخرج بعض الذين دخلوا الأحمدية منها، فوارد أن يغير امرؤ معتقده الديني. والشواهد التاريخية تذكر لنا مثلا أن بعض حواريي المسيح الناصري، قد تركوه وابتعدوا عنه، فليس بدعًا من الأمر أن يقوم بهذا بعض أتباع غلام أحمد، خاصة وأنه أعلن بأنّه المسيح الموعود لآخر الزمان، فتشابه حاله مع حال المسيح الناصري في هذا المقام.

أبرز واحد من هؤلاء الذين تركوا الأحمدية بعد اتّباعها هو د. عبد الحكيم خان، الذي كان جرّاحا من مدينة (باتيالا). أمضى د. عبد الحكيم سنوات طويلة من حياته تابعا متحمسا لغلام أحمد، ثم ما لبث أن أعلن في عام ١٩٠٦ أنه يعتقد في عدم وجوب اتّباع الأنبياء كسبيل للوصول إلى النجاة والخلاص. بمعنى آخر رأى عبد الحكيم أنّه ما مِن داعٍ لوساطة الأنبياء بين الناس، وطريق النجاة عند الله تعالى، فالإيمان بالله تعالى وحده يكفي.

ردّ أحمد على عبد الحكيم بأنّ الإيمان الذي يُجانِب الأنبياء والكتب التي نزلت عليهم ويرتكز على قوانين الطبيعة لهو إيمان ناقص سطحي، بل إنه لا يُعدّ إيمانا، إنّه مجرد تخمين لا يرتقي بالإنسان أبعد من فكرة ضرورة وجود الإله. ووضّح غلام أحمد، بأنّ الإيمان القائم على فرضية (لا بد) ليس إيمانا البتة، فالعقيدة الصحيحة هي أنّ الإله موجود فعلا، وهذه العقيدة تتطلب أنبياء مبعوثين من عند الله تعالى. إنّ الإيمان الحقيقي- والكلام لأحمد- يتطلب آيات وبراهين ساطعة، ولا تظهر هذه الآيات إلا على أيدي الأنبياء المبعوثين من عند الله. لذا فإنّ الدين المقيّد بفرضية (لا بد) وحسْب هو حدس بوجود الإله لا أكثر، لا يثمر عنه إيمان في قلوب المعتقدين به ولا

يروي ظمأهم إلى المعرفة الإلهية. إنّ الآيات التي يُجَلِّيها الله تعالى على أيدي الأنبياء هي التي ينتج عنها الارتقاء الروحاني والتزكية الأخلاقية وهي التي تجعل العبد قريبا من ربه.

ونظرًا لضرورة التساؤل الذي طرحه الدكتور عبد الحكيم، أي جدوى ضرورة الإيمان بالأنبياء، رأى أحمد أن يجيب عنه إجابة وافية شاملة في كتاب أسماه (حقيقة الوحي). تناول غلام أحمد، في هذا الكتاب بشكل ليس له نظير مضمونا وأسلوبا معنى الوحي الربّاني والمكالمات الإلهية، وأنواع الوحي الرباني والعلامات المرافقة للوحي الصادق. لقد ساقَ أحمد في هذا الكتاب براهينَ عدة على صدق كلامه والتزامه سبل التقوى في كل ما أورد، وأنّ الله تعالى يريد من عباده أن يكونوا على صلة به عزّ وجلّ وأن يصِلُوا بقربهم هذا منه تعالى إلى مراتب الوحي الإلهي الصادق الذي يناله من أَنعم الله عليهم من الأنبياء والصديقين والصالحين.

قدّم غلام أحمد في كتابه هذا مئات العلامات التي قال إنّ الله عزّ وجل قد أنعم عليه بها، كما عرض فيه تحقق الكثير من نبوءاته والإنعامات التي وهبها الله تعالى له ولأصحابه.

ولكن ومن جهة أخرى، كان هناك المرتدون عن العقيدة الأحمدية الذين خرجوا منها لعدم قناعتهم أو لأسبابهم الخاصة، إلا إنّ عدد هؤلاء الخارجين من جماعة غلام أحمد كان قليلا جدا بشكل لافت مقارنة بالجماعات الأخرى. قد يكون السبب وراء قلة المرتدين عن العقيدة الأحمدية هو أن غلام أحمد لم يكن يعتبر عهد البيعة باللسان فقط، فليست القضية الإقرار اللفظي للمُبايع بأنه مسلم أحمدي بل يجب أن تصير حياته بعد ذلك مصداقا لبيعته. يقول أحمد ما معناه إن المبايع الحقيقي لا يمكن أن يحمل قلبين في جوفه فيكون متعلقًا بالدنيا ومشاغلها ويكون محبًّا للدين في الوقت نفسه. ينبغي أن يقضي المبايع أيام حياته بالطاعة التامة والالتزام بتعاليم الإسلام

الحقيقية. البيعة الحقيقية كما سلف ليست توقيع ورقة أو إقرارٌ لا يتجاوز اللسان، البيعة التي هي مشتقة من البيع هي التزام يبيع فيه المُبايع نفسه سواء أكان رجلا أم امرأة، ابتغاء مرضاة الله تعالى. كان غلام أحمد يضع يده في يد الرجل الذي يريد أن يبايعه ولا يسحبها طول ترديد المبايع عهد البيعة التي يقر فيها بأنّ مرزا غلام أحمد هو المسيح الموعود لهذا الزمان، والتي يطلب فيها من الله تعالى العفو عن ذنوبه السابقة ويتوب إلى الله عز وجلّ منها، ويعاهد الله بخلوص القلب على أن يجْتنب جَهْد المستطاع كل أنواع الشرور والفساد وأن يـــــؤثر الدين على الدنيا. البيعة ببنودها كاملةً تعدّ الأساس الذي تقوم عليه الجماعة الإسلامية الأحمدية، فالمبايع الـــمُلتزم ببيعته كما ذكر العديد من المتحولين إلى الأحمدية – تتغير حياته جذريًا وتتطور أخلاقه وتتسع معرفته، إنّ البيعة بالنسبة للأحمديين هي بداية الارتقاء الروحاني المبني على الطهارة والتقوى والإصلاح الأخلاقي.

جرَت عادة أحمد، بعد الفراغ من الصلاة في المسجد أن يتحدث إلى أتباعه الذين كانوا لا يفوّتون فرصة الجلوس إليه، وكان يجلس معهم بكل بساطة على الحصير على الأرض، حتى صَدَفَ في بعض المرات جلوس نفر أو أحد من الناس على الكراسي بينما افترش غلام أحمد الأرض في تواضع غير مُتَكَلَّف.

يروي بشير الدين محمود أحمد عن والده أنّ حديثه مع الناس في تلك الأوقات كان عفويا تماما ولم يُخطط له البتة، فمرات كان يُحدثهم في المذاهب الدينية المختلفة والأفكار والسلوك، ومرات عن المعارضين والأصدقاء على حد سواء. تحدثوا في أمورهم العامة والخاصة معه، وفي الأمور التي تخص البلاد عامة أو التي تخص أشخاصا بعينهم. باختصار وكما قال ابنه: كان الحديث يدور عن كل شيء، وكلٌّ كان قادرا على التعبير عن نفسه. وزخرت ردوده بالمعلومات العميقة المقدمة بأسلوب يسير يفهمه

الجميع، في الواقع كان حديثه دروسا في الود والمحبة والولاء والمعرفة الربّانية التي تدفقت منه ونهل منها كلّ من جالَسَه. ويضيف بشير الدين عن والده أنّ تأثيره الروحاني كان يسري كتيار قوي يمرّ عبر قلوب كل القاعدين بمجلسه، كما لو أنّه مصدر كهربائي يمغنط ويجذب كل قطع الحديد الصغيرة الموجودة في محيطه، لقد كانت قدوة غلام أحمد الروحانية والأخلاقية تشع على من يخالطونه. وبطبيعة الحال ورث بشير الدين خلاصة الأساليب التي انتهجها غلام أحمد في تعليم أصحابه وأبناء جماعته.

كان غلام أحمد، يساعد أتباعه قبل أي شيء في زيادة معرفتهم وفهمهم الديني وتوسيع مداركهم، وساعدهم في التركيز على مهامهم الدينية المحلية والعالمية التي ينبغي أن يبذلوها في سبيل الدعوة، حيث ينبغي على كل أحمدي أن يكون قدوة للآخرين وأن تكون أفعاله مصداقا لما يعظ به ويدعو إليه. وهكذا فقد كان أتباع أحمد منشغلين دائما في إيصال رسالة الله تعالى للعالم، فأُمّة الله لا تكون بالدفاع فقط ولكن بالهجوم المعنوي؛ أي الدعوة. وكان غلام أحمد يحض أتباعه على الدوام على بذل التضحيات المادية في سبيل نشر الإسلام والأحمدية، ولا بد من الإقرار بأنّ أحمد عَلّم أتباعه أن يضعوا إيمانهم في مرتبة عُليا لا يدانيها مال ولا منصب ولا شاغل من شواغل الدنيا، وربّاهم على التضحية الحقيقية بالنفس في سبيل الدين.

الفصل الثامن والثلاثون

كلٌّ مَن عليها فان

في شهر نيسان/أبريل من عام ١٩٠٨، أحست زوجة أحمد بوعكة صحية استمرت مدة من الزمن، فطلبت منه أن يصحبها إلى مدينة لاهور لزيارة الطبيب، فوافق على الذهاب معها. ولكن في ليلة اليوم المحدد للسفر أي ٢٦ نيسان/أبريل تلقى غلام أحمد إلهاما باللغة الأردية يقول ما معناه: "*لا تأمن صروف الدهر*"، وقد أخبر أحمد الكثير من الناس بهذا الإلهام. وتصادف في تلك الليلة أن ابنه كان مريضا في الفراش أيضا، ولأنه لم يكن متأكدا من معنى هذا الإلهام فقد قرّر تأجيل السفر. فلما تعافى ابنه في اليوم التالي، استأنف ما عزم عليه آنفا وسافر مع زوجته إلى لاهور حيث نزل ضيفا عند منزل واحد من أتباعه هو الخواجا كمال الدين. وتلقى حينها وحيا بالعربية في التاسع من أيار/مايو يقول: "*الرحيل ثم الرحيل*" ففهم أحمد أنّ موته قد اقترب على الرغم من أن هيئته الجسدية تبدو في حال جيدة. ورغبة منه في أن يكون كالأنبياء الآخرين الذين كانت تتحقق آياتهم على الصعيد المعنوي والمادي كما فعل بالنسبة للمنارة البيضاء، فقد رحل من دار الخواجا كمال الدين إلى دار د. سيّد محمد حسين ونزل عنده.

وفي تلك الأثناء كانت زوجته تتلقى الرعاية والعلاج الطبي اللازم لها والذي تطلب فترة ليُستكمل، لذا قرر أحمد أن يرتب لإلقاء سلسلة من المحاضرات لوجهاء المدينة في عشاء خاص يدعوهم إليه، وقد رأى أن تكون الدعوة خاصة لأنه لاحظ أنّ كثيرا منهم لم يستمعوا إليه أبدا من قبل لأنهم لم يرغبوا في الظهور علنا في اللقاءات العامة.

ولكن وفي ليلة العشاء المرتقب، تلقى أحمد وحيا آخر بالفارسية يقول ما معناه لا تَثق بالحياة الفانية. فأيقن بما لا يدع للشك محلا أن أجله القريب بات موشكا جدا، ولكنه لم يجزع وتابع عمله بوتيرته المعتادة. وفي العشاء تكلم إلى ضيوفه قرابة الساعتين. أخبرهم بأنّ الله تعالى قد أرسله لإصلاح الفساد الذي انتشر وملأ الأرض، وأنّه لا يستطيع أن يُخفي فضل الله عزّ وجل عليه بالمكالمات الإلهية وكثرتها وتواترها التي بسببها سُمِّي نبيًّا، فهو كما قال ليس له فضل في هذا الفيض الإلهي الذي منّ الله عليه به، وأنه ليس بنبي مستقل عن رسول الإسلام محمد بل إنه ما حاز هذا المقام إلا من أنوارِ اتّباعِ الأشعّة المصطفوية، وسُمّي نبيًّا من الله على طريق المجاز لا على وجه الحقيقة. ثمّ ذكّر ضيوفه بحديث السيدة عائشة زوجة نبي الإسلام: "قولوا خاتم النبيين ولا تقولوا لا نبي بعده"، وتابع قائلا ما معناه: لو أن الإسلام قد سدّ باب النبوة وقطع الطريق على المكالمات الإلهية فلا فضل له على الإديان الأخرى ولما كان دينا حيّا.

صحيح أن بين جموع المدعوين الكثير من المعارضين له، غير أن الجميع بلا استثناء احترموا عمق معارفه الإسلامية وغزارة علمه ووقاره وهيبته التي لا تخطئها عين الرائي.

كان خطاب أحمد واضحا لا لبس فيه لكن الصحف الصادرة في الأيام اللاحقة ادّعت أنّه رجع عن دعوى النبوة، فما كان منه إلا أن قام بإعلان أشد وضوحا يبيّن فيه أنّه ليس بنبيٍّ تشريعي مبعوث بشريعة ومنهاج جديد يحيد أنملة عن الإسلام ولكنّ الله تعالى قد شرفه بالمكالمات والمخاطبات الإلهية المتواترة واستجابة الدعاء، وفتح له بفضله عزّ وجلّ الكثير من المعارف الخفية، وأنبأه بأمور غيبية ما كان ليعرفها من تلقاء نفسه ولكن وببركة اتّباعه محمدًا قد نال شرف النبوة وصار نبيا بسبب كثرة المكالمات والنبوءات. وقال أيضا مؤكدا على هذا المعنى: أنا نبي لا أحيد عن الشريعة الإسلامية ولا

أنسب هذا الفضل لنفسي ولكن ومن باب اتباع الأمر الإلهي فلن أنكر نبوتي حتى أترك هذه الدنيا الفانية. وقال: "حيثما أنكرتُ نبوتي ورسالتي فكنتُ أعني أنني لست حامل شرع مستقل، كما أنني لست بنبي مستقل. ولكن حيث إني قد تلقيت علمَ الغيب من الله تعالى بواسطة رسولي المقتدى صلى الله عليه وسلم، مستفيضًا بفيوضه الباطنة، ونائلا اسمَه، فإنني رسول ونبي، ولكن بدون أي شرع جديد. ولم أنكر أبدًا كوني نبيًّا من هذا المنطلق، بل إن الله تعالى قد ناداني نبيًّا ورسولًا بهذا المعنى نفسه. لذلك لا أنكر الآن أيضا كوني نبيًّا ورسولًا بهذا المفهوم". [إزالة خطأ، الخزائن الروحانية، مجلد ١٨، ص ٢١٠ -٢١١]

وأنّه لو اجتمع العالم كله عليه لينظروا في صدق خادم رسول الله محمد — أي هو – فسيكتب الله له الغلبة وسينصره في كل موطن، فالله قد سماه نبيا وكلمه وسينصره بفضله ورحمته.

يجدر الذكر أنّ أحمد وقبل أن ينشر هذا الإعلان قد أخبر أفراد عائلته والمقربين من أتباعه أن وفاته صارت وشيكة، وبعد أن أخبرهم تلقى وحيا آخر يقول ما معناه: *"الرحيل ثم الرحيل، والموت قريب"* و*"لا تثق بالحياة الفانية"* . وبالطبع لم يدَع الوحي الأخير مجالا للشك بدنو أجله، فرأت زوجته أن تقصد لاهور فورا لتكون بجواره. وكعادته لم يتوقف عن العمل وواصل العمل على كتابه الجديد الذي سماه: (رسالة الصلح). تناول الكتاب مسألة السلام بين الهندوس والمسلمين وأن على كلا أتباع الديانتين أن يحترموا رجال دين كل طرف، وأن يدركا أنهما خَلْق ربّ واحد قدير، وأنهم مواطنون في البلد نفسه وعليهم العيش بسلام في وطنهم دونما اقتتال. أنهى أحمد مسودة الكتاب الجاهزة للنشر بتاريخ ٢٥ أيار/مايو ١٩٠٨ وسلمها لسكرتيره للنسخ والطباعة.

بعد صلاة العصر في ذلك اليوم خرج أحمد ليتمشى كعادته اليومية، فأخذ عربة أجرة من النوع الذي يجر بالحصان حتى يكون خارج المدينة ليمشي ويتفكر بحرية أكثر في الريف. وعاد بعد ساعة ونام في وقته المعتاد ولكنه توعك ليلا واستُدعِيَ الأطباء لمعاينته، فبذلوا كل ما في وسعهم لكنه كان مريضا جدا وراوح بين اليقظة والغيبوبة. ولكن حتى في شدة مرضه عند موعد صلاة الفجر سأل أتباعه الموجودين عنده: هل حان موعد الصلاة؟ فأجابه أحدهم: نعم يا سيدي قد حان. ولكنه لم يكن يقوى على النهوض فتيمم بدل الوضوء وصلى في مكانه، ولكنّه أغمي عليه لشدة المرض، فلما أفاق أعاد صلاته وأكملها كعادته بطمأنينة وهدوء. وكلما كانت حالة الإغماء تعاوده كان يُسمع هامسًا: يا إلهي يا حبيبـــي!

تجمع أبناؤه وابنته وزوجته والمقربون من أصحابه حوله بجوار سريره، حيث توجه أبناؤه وزوجته إلى لاهور ليكونوا معه. بقيت زوجته هادئة تصلي وتدعو الله طول الليل؛ لقد كانت تعرف أن الرحيل قد حان. ولما بدت على أحمد علائم الموت قالت في حزن عميق: يا الله إنه يغادرنا فلا تتركنا أنت يا رب في هذا الوقت. في نحو الساعة العاشرة والنصف صباحا سمع الجالسون حول سريره صوت تنهد عميق يخرج من صدره مرتين؛ ثم أسلم الروح.

ابتهج المعارضون المسلمون بوفاته دون أدنى رجوع للعقل، وملؤوا خلال نصف ساعة الشارع المجاور، لقد كان شارعا واسعا وطويلا ولكن الغوغاء ملؤوه، وشرعوا في الرقص والغناء ابتهاجا، وسخروا من الجنازة التي كانت تجري مراسمها في الدار. شعر بعض أفراد الجماعة الذين كانوا موجودين بالاستفزاز الشديد وهمّوا بالخروج غاضبين ولكنّ البقية ثنوهم عن ذلك العمل مذكرين رفقائهم بتعليمات غلام أحمد: ادعوا لهم حتى إن أبغضوكم، وواسوهم وإن عذبوكم، وإذا أظهروا لكم الخيلاء فأظهروا لهم التواضع، وإن

رقصوا نشوة لا تبتئسوا؛ فمَن مِن الجيلين اللاحقين سينال النجاح والتوفيق أبناؤنا أم أبناؤهم؟... لقد وعد الله عزّ وجل أن يجعلكم غالبين، فعندما يجيء وعده وتكون لكم القوة والقدرة على سحق معارضيكم لا تتذكروا مظالم الماضي، بل دافعوا عن شرف أيام ضعفكم حتى لا يقال إنكم كنتم متواضعين ضعفاء والآن صرتم أقوياء فاستحلتم طغاة... كونوا صبورين ودَعُوا الانتقام لله الجبار المنتقم فوحده عزّ وجلّ يعرف موضع العفو وموضع النقمة. سامحوا أبناء أعدائكم ومضطهديكم وعاملوا أبناءهم برفق. هذا ما علم أحمد أتباعه أن يعملوا به عند الشدائد.

وتمت مراسم الجنازة وفق الشعائر الإسلامية، فغُسل جسده وتم تكفينه استعدادا لدفنه في جو مملوء بالحزن والأسى، وبعد ذلك صلى عليه أتباعه صلاة الجنازة في فناء المترل عند الساعة الثالثة ظهرا وأمّهم المولوي نور الدين. يجدر بالذكر أنّه لما قامت بعض النسوة الحاضرات من أتباع أحمد داخل المترل بالبكاء والنحيب على فقده طلبت منهن (أمّان جان) زوجة أحمد – أن يضبطن أنفسهن ولا يبالغن في الحزن، كما خاطبت أولادها قائلة ما معناه: لا يخطرنّ ببالكم أن أباكم قد ترك لكم بيتا خاويا، لقد أودع لكم كترا عظيما من الأدعية عند الله تعالى والتي سيُرْبيها بفضله ويؤتيكم أكُلها كلٌّ في حينه.

وقف ابن غلام أحمد الأكبر، بشير الدين عند رأس جثمان والده وقال: إذا تخلّى عنك الجميع وبقيت وحيدا، فإني سأقف في مواجهة العالم أجمع، ولن أعبأ بأي معارضة أو عداء.

ولما حلّ الليل حمل الأتباع تابوته على الأكتاف إلى محطة القطار ليلحقوا بقطار الليل المتوجه إلى بطالا ليُكملوا طريقهم من هناك إلى قاديان حتى يواروا فقيدهم الثرى، وطول مسيرهم إلى المحطة كان المعارضون يرشقونهم بالحجارة إلى أن استقلوا القطار الذي أوصلهم بطالا، ووصلوا أخيرا قاديان

في اليوم التالي عند الساعة التاسعة صباحا بعد سير على الأقدام مسافة أحد عشرة ميلا أي سبعة عشر كيلومتر ونصف وهم يحملون جثمان أحمد، وصل بعدهم عند الظهر إلى قاديان قرابة ألف ومئتي أحمدي ممن وصلتهم برقيات النعي على الرغم من عدم تصديق الكثيرين منهم خبر الوفاة ظنًّا منهم أنها من المعارضين؛ فغلام أحمد لم يكن قد أشاع نبوءات دُنوِّ أجَله إلا لأهل بيته وللخاصة من أصحابه. أدرك الأحمديون الواصلون إلى قاديان صدق الخبر، فزعيمهم الروحي مُسجى في كفنه عند حديقة الورد قبيل دفنه في المقبرة الصغيرة الملحقة بمسجد الأحمديين في قاديان، ولما رأوا الحقيقة بأعينهم كان حزنهم لا يوصف.

بعد ظهر ذلك اليوم اجتمع كل أفراد الجماعة الإسلامية الأحمدية الحاضرون في قاديان وساد إجماع بينهم على أن يكون المولوي نور الدين— الذي ذكرنا آنفا أنه أول من بايع أحمد – أول خليفة لغلام أحمد. جلس نور الدين على سجادة بسيطة صغيرة في ظل شجرة مانغو، وتقدم إليه الأحمديون واحدا تلو الآخر واضعين كلٌ يده في يد المولوي ليبايعه تماما بالطريقة نفسها التي أدّوا فيها عهد البيعة لغلام أحمد من قبل، وبايعه جميع أتباع أحمد على الطاعة بما أمر الله به من معروف. وبعد بيعة جميع الأحمديين خليفتهم الجديد، أمّ نورالدين بهم صلاة الجنازة ودُفن غلام أحمد في تمام الساعة السادسة في المقبرة الصغيرة بجوار المسجد حيث كان قد توفي بعض أصحابه من الأوائل الثلاثمئة وثلاثة عشر ودفنوا هناك. وفي السنين اللاحقة كان يُدفن كذلك في تلك المقبرة أصحابه الذين يدركهم الموت.

على النقيض من الغوغاء الذين رقصوا ابتهاجا إثر إذاعة خبر وفاته، نشرت الجرائد المحلية والعالمية نعيا يعكس كل احترام للمتوفى. فمثلا نشرت جريدة دلهي: "لقد غير غلام أحمد كليا طابع السذاجة في الأدبيات الدينية

وأسس لكتابة دينية رصينة بنتاجه الزخم البليغ، حتى إنّ بعض كتاباته تنقل الدارس إلى حالة من النشوة الفكرية..."

ونشرت جريدة لاهورية على لسان كاتب لم يكن يؤمن بغلام أحمد كمسيح موعود ولكنه لم ينكر أنه "شديد الورع وزعيم روحاني له من القوة الروحانية ما يلين به أقسى القلوب... كان عالما غزير العلم وداعيا شجاعا للسلام، ومصلحا لكثير من القضايا المشكلة، كانت حياته مثالا للتقوى والصلاح، كانت زعامته الروحانية ظلا للروحانية المسيحية التي تحيي موتى القلوب كما فعل يسوع المسيح ونفح روح الحياة الروحانية في من ماتت قلوبهم..."

كتبت جريدة صادرة في أمرتسار: "غادرتنا شخصية عظيمة، وبرحيله انتهت حقبة هامة، لقد أكمل مهمته التي أعلنها، ولا نظن أن يظهر نظيره في حياة الهند الروحانية مستقبلا..."

وعلقت كذلك جريدة أخرى من أمرتسار: "... ولد حضرته بفطرة وطابع خاص، وبفضل انصرافه للدراسة والتعلم واستقامة أخلاقه فلما بلغ أشده صار رجلا متحمسا للدين بشكل فريد كما لو أنّ فؤاده محصن ضد الدنيا ومغرياتها. كان سعيدا في معتزله كما لو كان معه خاصة الصحبة، وحتى لما كان يجلس بين الناس كان يسترجع عذوبة خلوته. قدمت كتاباته صورة آسرة عن الدين تخلب لب القارئ؛ فلقد أزال غبار الشبهات والضعف البشري عن وجهه... وفي ما يتعلق بشخصه فلا نجد غبارا على مسلكه الشخصي. عاش حياة ملؤها التقوى وخشية الله في كل يوم من عمره... وخلاصة القول، إن سني حياته الخمسين التي عاشها في نزاهة الخلق، قد رفعته إلى مرتبة بارزة يغبط عليها."

ومن كالكوتا نشرت صحيفة محلية: "عاش عيشة الدراويش، ولكنه أَقْرَى العشرات على مائدته كل يوم. كان أتباعه من كل الفئات؛ العلماء وأساتذة الدين وذوي النفوذ والوجهاء والأثرياء والمثقفون ورجال الأعمال".

حتى إن صحيفة أعدائه الدائمين من الآرياسماج الهندوس كتبت: "على الرغم من أن اسمه يحضر إلى الذهن ذكريات خلافات مريرة، إلا إنه لا بد من التسليم بأن أفكاره عن الإسلام كانت أكثر انفتاحا من باقي المسلمين، وأنه كان من أكثر المسلمين اقتداء بمحمد من حيث الانفتاح على الغير. وقد لازمته هذه الخصلة وما حاد عنها حتى الرمق الأخير".

وكتب مؤرخ يتبع طائفة البراهموسماج الهندوسية بمنتهى الصراحة عن أثر تعاليم أحمد فقال إن هذا (العلامة المسلم البارز) الذي تحدى البراهموسماج في المناظرات العلنية: "من الحقائق التي يُرثى لها أن أحدا من البراهموسماج لم يُعر اهتماما لتلك التحديات والمناظرات، التي على إثرها انسحب كثير من المسلمين الذين اعتنقوا البراهموسماج وعادوا إلى الإسلام مجددا كما انصرف المسلمون الذين كانوا على وشك اعتناق البراهموسماج عنها تماما".

من جهة أخرى نشرت صحيفة إنجليزية تصدر من (الله أباد): "لو أنّ واحدا من أنبياء بني إسرائيل عاد إلى الحياة وبدأ بتعليم الناس فلا نظنه سيقوم بعمل يتماشى وروح العصر كما فعل أحمد."

"... لم يساور المرزا صاحب يوما ما أدنى شك في صحة دعواه، وبكل إخلاص وصدق آمن أنّه يتلقى وحي الله تعالى وأن الله عز وجل قد أفاض عليه بركات وقدرات خارقة للعادة. إن نبي قاديان ينتمي لطبقة خاصة من البشر لا نصدفها كثيرا في هذا العالم. إن أولئك الذين يغيرون العالم عن طريق عقائدهم الدينية لَهُم أقرب إلى ما هو عليه أحمد أكثر من قربهم إلى نيافة رئيس أساقفة كانتربيري".

ونعت صحيفة التايمز اللندنية المعروفة غلام أحمد بمقال طويل تناولت فيه تعاليمه وقالت إن كثيرا من أتباعه كانوا من الوجهاء والمثقفين، وأوردت الصحيفة مقتبسات من كلام أحد معارضيه المسيحيين الذي قال عنه: مهيب الهيئة، جذاب الشخصية، ومتقدٌ فكريا.

غرس أحمد البذرة وقال إنها تحتاج ثلاثة قرون حتى يجتمع العالم كله تحت شجرة الإسلام الوارفة، ولكن قبل ذلك بكثير وحتى بعد مرور قرن واحد كانت بشائر هذه الغرسة قد بدأت بالظهور.

الفصل التاسع والثلاثون

خلفاؤه

نعود إلى الوقت قبيل أن يقرر أحمد مغادرة قاديان إلى لاهور بغية الحصول على المشورة الطبية لحالة زوجته الصحية، كان غلام أحمد قد طلب من ابنته (مباركة بيغم) أن تصلي وتدعو الله تعالى طلبا للتوجيه في مسألة تشغل فِكره دون أن يخبرها ما هي هذه المسألة.

وبالفعل نفذت الابنة المطيعة طلب والدها وصلَّت ودعت الله وأخبرت والدها أنها رأت في الرؤيا المولوي نور الدين جالسا في غرفة ويمسك كتابا بيده، ثم نظر نور الدين إليها وقال لها: "هذا الكتاب يحوي إلهامات المسيح الموعود بخصوصي، أنا أبو بكر".

كانت هذه الرؤيا إشارة واضحة إلى أنّ المولوي نور الدين سيكون أول خلفاء غلام أحمد، فأبو بكر الصدّيق هو الخليفة الأول للنبي محمد، وفي تلك الفترة كان أحمد قد أُخبِر من ربِّهِ بدنوّ أجله وأخبر خاصته بهذا، غير أنّه طلب من ابنته بعد أن قصّت عليه رؤياها ألا تُخبر أحدا بها ولا أمها.

وحدث بالفعل عقب وفاة غلام أحمد أن انتخب الأحمديون المولوي نور الدين خليفة لمرزا غلام أحمد بالإجماع الكامل حتى إنّه لم يكن هناك أي اسم آخر مطروح مقابله. فالمولوي كان – كما يصف قدامى الأحمديين– أكثر أصحاب أحمد علمًا وتقوى وإخلاصا وثباتا وملازمة له.

كان المولوي هو الشبيه الذي احتاجه الأحمديون في تلك الفترة كما يقولون هم بأنفسهم، وقالوا كذلك بإنهم سيكونون محظوظين فعلا إن وقع الاختيار عليه خليفةً لأحمد. فخليفة المسيح الموعود وفق تعاليم الجماعة الأحمدية يمتلك صلاحيات المسيح الموعود نفسها، وعلى الأحمديين أن يطيعوا

الخليفة كما أطاعوا غلام أحمد من قبل. والواقع أنهم كانوا يتوقون لمبايعة المولوي نور الدين خليفةً.

لم يقبل نور الدين بأخذ البيعة خليفةً في البداية، ولكن وبعد إصرار أفراد الجماعة أخبرهم أنه سيستخير الله في هذا الشأن وسيعطيهم الرد عقب صلاة نافلة الليل. ولما فرغ من صلاته ودعائه طلع على الأحمديين الذين كانوا مجتمعين في (حديقة أحمد) حيث كان كبار الجماعة قد أعدوا صيغة بيعة مكتوبة وحيث سرت بين جميع الموجودين همسات الرضا والقبول. ثم تكلم نور الدين وقال ما معناه إنه لم يرغب أبدا أن يكون خليفة، وإنه لا يريد جاها ولا منصبا دنيويا بل جُلّ ما يبتغيه هو رضا الله تعالى عنه، وكانت هذه الغاية هي ما دفع به إلى المجيء إلى قاديان والاستقرار فيها، وأنه لـمّا نظر إلى حال الجماعة بعد وفاة المسيح الموعود كان يتساءل في قرارة نفسه عمّن سيهيِّئه الله عزّ وجل ليقود جماعة المؤمنين، وأنّه يرى في الأحمديين رجالا كثيرين مخلصين عملوا في سبيل الدين ما يجعله يشعر بالحرج من شدّة إخلاصهم، ثمّ عدّد بعضا ممّن يعدّهم نموذجا في الإخلاص مثل بعض أفراد عائلة مرزا غلام أحمد كمرزا بشير الدين محمود أحمد - ابن مرزا غلام أحمد، ومـير ناصر — حما غلام أحمد، ومحمد علي خان الذي كان صهر غلام أحمد، ومن خارج العائلة ذكر السيد محمد أحسن الذي ينتمي بنسبه إلى نبي الإسلام، والذي كتب عدة كتب عن مرزا غلام أحمد، والسيد محمد علي محرر مجلة (مقارنة الأديان)، وقال نور الدين إنهم جميعا أفضل منه. وقال إنه شخص لا يهتم كثيرا بصحته، ومسئولية الخلافة جسيمة وخطيرة، وإنّ العمل في سبيل الله تعالى دقيق وشاق، وإنه يرى أنّه لا يقدر عليه بنفسه فكيف سيقوم به تجاه الآخرين أيضا، وإنّه لا يعتقد أنّ به ما هو مطلوب ليكون خليفة؛ فهو رجل ضعيف ولا يملك الشجاعة ليقوم بتبعات هذا المنصب، وإنّه سيبايع فورا من يتفق أفراد الجماعة الأحمدية على اختياره لهذه المهمة

بمنتهى الرضا وخلوص القلب. ولكن إذا أصرّوا عليه فعليهم أن يعوا جيدا أن البيعة من البيع، وأنّه سيتوكّل على الله تعالى ليكون قائدهم وعليهم الطّاعة لما يأمرهم به من معروف.

لقي خطاب المولوي نور الدين القبول والاستحسان من أفراد الجماعة الذين تقدموا مادين أيديهم لمبايعته.

كان الحكيم نور الدين معروفا في الهند من قبل أن يلتقي بمرزا غلام أحمد، لقد كان من أبرع الأطباء المعروفين في شبه القارة الهندية، مارس الطب اليوناني وله مؤلفات طبية ما تزال تستخدم كمراجع إلى اليوم. عالج الفقير والغني دون تفريق، عينه مهراجا (جامو وكشمير) طبيبه الخاص. ثبت عنه أنّه لم يكن يطلب أجرة لقاء أتعابه العلاجية وكان يقبل ما يقدمه مرضاه برضا. وبالطبع لأن المال لم يكن همّه فلم يكن ثريا على الرغم من نجاحه المهني الكبير.

وفضلا عن مزاولة الطب، كان عالما رفيعا وامتلك مكتبة ضمّت صنوف المخطوطات النادرة والنفيسة. واطّلع أيضا على الأدب الغربي- مع أنه لم يتقن الإنجليزية — غير أنه قرأ جميع أعمال شكسبير المترجمة إلى العربية.

بعد أن اتفق المجتمعون في (حديقة أحمد)، حدث أن نظَّم مجموعةٌ من الأحمديين غير الراضين عن اختيار الخليفة الجديد اجتماعا في لاهور— دون الرجوع إلى نور الدين - فقامت مجموعة أخرى من الأحمديين بتنظيم اجتماع معاكس في قاديان لاجتماع لاهور. لكن الخليفة نور الدين كان له رأي آخر فيما دار من اجتماعات، فقام بدعوة ٢٥٠ شخصًا يمثلون مختلف فروع الجماعة الأحمدية وخاطبهم معربا عن عدم رضاه عن الاجتماعات التي جرت سواء في لاهور أو قاديان، وأنّه ليس من حق أحد تنظيم هذه الاجتماعات. وقال: "أنا لا أركن إلى أي أحد". فالله تعالى قد أخبره أن من يترك الأحمدية سيستبدله الله عزّ وجل بمن هو خير منه وأكثر عددا. وعبّر عن

بالغ ضيقه من كلّ من السيد محمد علي — محرر مجلة مقارنة الأديان- والخواجة كمال الدين (الذي قام سابقا بانتقاد خطاب أحمد المعروف بفلسفة تعاليم الإسلام)، والشيخ يعقوب علي الذين نظموا الاجتماع المضاد لاجتماع لاهور وقال إنّ عليهم تجديد البيعة له. وقام الثلاثة بتجديد البيعة من فورهم، ولكن استمر كل من الخواجة كمال الدين ومحمد علي بمعارضة الخليفة سرّا. ولما علم الخليفة نور الدين بهذه المعارضة وبّخهم بشدة على وقاحتهم وعدم التزامهم ببيعتهم في خطبة عيد الفطر في تشرين أول/أكتوبر ١٩٠٩.

لكن الأيام التي تلت لم تثبت نجاح مجموعة المعارضة التي نظمها محمد علي، بل على العكس. إذ بعد أسابيع قليلة انقلب عليه عددٌ من أبرز مؤيديه، وتبعهم آخرون وتضاءل وزن هذه المعارضة بمرور السنين. ودائما كان ردّ نور الدين على هذه الاعتراضات أنّ الدين لا يحتاج إلى برلمان ولكنّ الله تعالى هو من يولّي من يقود جماعة المؤمنين. والحقيقة أنّه لم يساور أي من الخلفاء - الذين هم قادة الجماعة الأحمدية على مدى تاريخها- أو يساور أي من الأحمديين أدنى شكّ بأن الخلفاء مختارون وموجّهون من عند الله تعالى.

أما الخليفة الثاني لمرزا غلام أحمد، فهو مرزا بشير الدين محمود أحمد الذي توّلى الخلافة عندما كان عمره ٢٥ عاما فقط، وعاش بعدها ٥١ عاما. يجدر بالذكر أن عدد الأحمديين الذين حضروا الجلسة السنوية قبل توليه الخلافة كان ثلاثة آلاف أحمدي أما في الاجتماع السنوي — الجلسة السنوية- الأخير خلال فترة خلافته فوصل عددهم إلى خمسة وسبعين ألفا. تولى الخليفة الثاني أمر الجماعة الأحمدية في فترة حرجة، فقد قاد جماعته من قاديان المحاصرة إبان تقسيم الهند إلى باكستان وأسسوا هناك مدينة ربوة.

شهدت خلافة الخليفة الثالث — مرزا ناصر أحمد- السنين الأولى من اضطهاد الأحمديين في باكستان عندما تنحت العدالة الإسلامية لصالح المطامع

السياسية في باكستان وفقد الأحمديون كل حقوقهم السياسية في البلد الذي كان لهم فضل كبير في قيامه.

ثم وجد الخليفة الرابع- مرزا طاهر أحمد- نفسه وجماعته تحت اضطهاد أكبر فلم يفقد أتباعه حقوقهم السياسية وحسْب، بل إنهم صاروا يُضربون ويُقتلون وتنهب ممتلكاتهم ومصالحهم وتُحرق بيوتهم. فهاجر الآلاف منهم من باكستان إلى حياة جديدة في بريطانيا بالمقام الأول وكندا وألمانيا والولايات المتحدة الأميركية وبضع دول أخرى. لكنّ الخليفة الرابع كان ما زال في باكستان إلى أن تركها في نهاية الأمر إلى بريطانيا. وصل عدد الأحمديين في آخر جلسة سنوية في باكستان إلى مئتي ألف.

وكما كان قد تنبأ من قبل، عاد أفراد الجماعة الأحمدية إلى قاديان في عام ١٩٩١ وعُقد اجتماع سنوي هناك حضره مندوبون عن الجماعات الأحمدية في كل أنحاء العالم. معلنين أن لا شيء في هذه الدنيا سيوقف نمو وازدهار جماعتهم وتحقيق غايتها التي كلفهم الله تعالى بها ألا وهي توحيد جميع العالم تحت راية الإسلام.

يقول الكثير منهم إن وجود الجاليات الأحمدية في أنحاء العالم هو معجزة يسَّرها الله لنشر دينه؛ فلله أسباب عجيبة يُنفذ بها قدره.

الفصل الأربعون

القرن الثاني

قام رئيس الوزراء الباكستاني (ذو الفقار علي بوتو) بحرمان المسلمين الأحمديين من جميع حقوقهم السياسية في محاولة منه للبقاء على قيد الحياة سياسيا. وهذا في الحقيقة نهج معروف منذ قرون عند السياسيين الذين يُدركون انخفاض شعبيتهم وعدم رضا شعبهم عنهم، فيقومون بتحويل سخط الناس عنهم إلى عدو بديل سواء كان حقيقيا أو مفتعلا من داخل الشعب، على أن يكون هذا العدو مجموعة صغيرة لا يُخشى من رد فعلها.

فجوهر هذه الممارسة أن الأقلية لن يكون بمقدورها الدفاع عن نفسها، ولكنّ الاتهامات التي تُلصق بها ستكون كفيلة بتوجيه غضب الشارع إليها بدلا من الحاكم، وفي غمرة غضبهم الأعمى سينسى عامة الناس أخطاء الحاكم وينشغلوا عنها.

ولمّا اشتدّ اضطهاد الأحمديين في بلادهم، بدأوا بالهجرة وبدأت الجاليات الباكستانية الأحمدية بالوجود في بلدان العالم بشكل عام والغربي بشكل خاص. ولقد رحّب الغرب بجراحي القلب الأحمديين والاختصاصيين من جميع الفروع المتقدمة، وبرجال الأعمال الدؤوبين والمستثمرين الصغار الطموحين، لأن الغرب كان يسعى لاستقطاب هذا النوع من العمالة. وكنتيجة لهذا الجو بدأت الجماعات الأحمدية في البلدان الغربية بالتقدم والازدهار، خاصة في بريطانيا والولايات المتحدة وكندا وألمانيا وفرنسا وهولندا والسويد ودول أخرى.

كان إمام الجماعة الإسلامية الأحمدية العالمية — أي مرزا طاهر أحمد موجودا حينها في منفاه الاختياري في بريطانيا. والقصة أنه بعد استيلاء

الجنرال ضياء الحق على الحكم في باكستان قام باعتقال بوتو وإعدامه، وسعيا منه إلى القضاء على كل ما يمكن أن يشكل حجر عثرة في طريقه أراد أن يعتقل مرزا طاهر أحمد الخليفة الرابع للجماعة الأحمدية إلا أنّ مرزا طاهر أحمد كان متنبها لهذا الأمر، وسافر فور علمه بعزم ضياء الحق على ذلك.

ظنّ معارضو الجماعة أنّ الخليفة الرابع سيكون معزولا عن الأحمديين في باكستان بسبب وجوده في بريطانيا، ولن يكون بمقدوره ممارسة مهامه كقائد فعلي للجماعة، إلا أنّ العكس تماما هو الذي حدث. فبريطانيا كانت نقطة اتصالات محورية في العالم كله، والآن صار بمقدور الخليفة أن يسافر بكامل حريته إلى كل البلدان التي وُجدَ فيها الأحمديون عبر العالم وأن يكون معهم بسهولة ويسر.

وفي ظل مناخ الحرية الجديد تجددت الحماسة وتكاثفت الجهود في حملة تحويل العالم إلى الإسلام التي كان أطلقها مرزا غلام أحمد عن طريق إصدار مجلة (مقارنة الأديان)، وكان قد تم تأسيس أول بعثة تبشيرية لدعوة الغرب والعالم إلى الإسلام في لندن. ثمّ جاءت البعثات التبشيرية إلى أفريقيا لتكون أول قارة تستفيد من هذه المساعي. فبحلول عام ١٩٩٠ كان للجماعة الإسلامية الأحمدية ٢٨ مستشفى و٣٧ مدرسة ثانوية و٤٤ مدرسة متوسطة و٢٠٤ مدرسة ابتدائية مفتوحة للجميع دون استثناء سواء كان طالبو هذه الخدمات أحمديين أم غير ذلك، وبسبب هذه الأخلاق العالية كان من الطبيعي أن ينضم إلى الجماعة الإسلامية الأحمدية الكثير من الأفارقة الذين تعلموا أو تعالجوا عند الأحمديين.

لم توجد الجماعة الأحمدية في غانا إلا في عشرينات القرن العشرين، ولكن تعدادها وصل مليونا وثلاثمئة ألف في بدايات التسعينات أي ما يزيد على ١٠% من مجموع السكان في غانا. ولأنّ الجماعة الأحمدية موّلت ودعمت

التعليم العالي عند الأحمديين فكان من الطبيعي أن يزيد الأطباء والعلماء والمحامون والصحافيون الأحمديون فضلا عن الاختصاصات العالية الأخرى.

أما في البلدان الغنية كألمانيا وكندا والولايات المتحدة الأميركية والمملكة المتحدة، ألزم الأحمديون أنفسهم بضريبة يدفعونها طواعية لدعم حركة التبشير الأحمدي في البلدان الفقيرة سيما في بلدان العالم الثالث. فمثلا قام بعض الأحمديين الأثرياء في أوطانهم الجديدة بتقديم التمويل الكامل للتبشير في بلدان فقيرة بعينها وذلك من تلقاء أنفسهم، كما تحمل كثير على نفقتهم الخاصة مصاريف ترجمة وطباعة القرآن الكريم بلغات محلية في تلك البلدان.

أمّا في باكستان فقد استمر للأسف اضطهاد الأحمديين؛ حيث أعلن الجنرال ضياء الحق أن الجماعة الإسلامية الأحمدية سرطان ينبغي أن يُستأصل من جسد باكستان، وقد حذره الخليفة الرابع للجماعة الأحمدية – مرزا طاهر أحمد– من أنّ الله سوف يعاقبه على ظلمه البيّن هذا لأنّه من يظلم الناس يلقى أسوأ أنواع العذاب الإلهي، حتى إنّ طاهر أحمد قد دعاه في عام ١٩٨٨ إلى مباهلة ليظهر الحق وليَسْتَبين الناس الباطل من الحق، ويكون الدعاء فيها أن يلقى الكاذب عقوبة الموت في حياة الصادق.

وبعد خمسة أيام من إعلان طاهر أحمد هذا، حصلت حادثة عجيبة بتاريخ ١٧ آب/أغسطس حيث انفجرت الطائرة الرئاسية التي كانت تقل الجنرال ضياء الحق في السماء، ولم يُعرف سبب انفجار الطائرة على الرغم من التحقيقات التي أجريت من قبل الحكومة لمعرفة السبب.

لم يتفاجأ الأحمديون من الحادثة لأنهم كانوا موقنين أنّ الله تعالى تدخل بفضله الخالص وأنقذهم مرة أخرى، وأنّ الله قد أنفذ أمرا كان مفعولا ودمّر الطاغية الذي ظلمهم دون حق ودون ذنب إلا أن ينشروا دعوة الله تعالى.

وبعد مرور أقل من سنة على هذه الحادثة، احتفل الأحمديون بتاريخ ٢٣ آذار/مارس ١٩٨٩ بمرور مئة عام على تأسيس الجماعة الإسلامية الأحمدية،

أي مرور مئة عام على قبول غلام أحمد أول بيعة له في غرفة الخَبْز البسيطة في منزل بسيط في لُدهيانه.

أقامت الجماعة الأحمدية وليمة عشاء بسيطة للاحتفاء بضيوف الجماعة غير الأحمديين، واختير المكان في فندق (Park Lane) في لندن. فالضيوف الذين دُعوا كانوا من بلدان مختلفة، ومن مناصب وزارية حكومية عديدة؛ كتّاب وأساتذة جامعة ونواب برلمانيون، أطباء ومحامون، ورجال دين ورجال أعمال. بحلول مئوية الجماعة الأحمدية أصبح لها مراكز في ١٢٠ بلدا، وبَنَت مساجد تابعة لها في أميركا الشمالية وشرق المحيط الهادئ حيث لم يسبق أن بنيت المساجد. وأعادت الجماعة الأحمدية بناء المساجد في إسبانيا وبلدان أخرى حيث كان الإسلام قد ازدهر في عصور سابقة.

خاطب الخليفة الرابع لغلام أحمد – طاهر أحمد- الأحمديين بأن عليهم بَذْل المزيد من الجهد والتضحيات، فالعمل الدؤوب لازمٌ لدعم خمسة آلاف مركز تبشير جديد تم تأسيسها مع بداية القرن الثاني، والاتحاد السوفيتي يتقلقل تحت وطأة الانقسام وقد تلحق الصين به، والولايات المتحدة كانت عمليا منطقة لم يدخلها الإسلام فعليا بعد. وللمضي قدما في تحقيق هذه الغاية، حثّ طاهر أحمد أتباعه بقوله: "انذروا أبناءكم الذين لم يولدوا بعد لخدمة الدين" و"شجعوا أبناءكم على تعلم اللغات الروسية والصينية ولغات البلدان السوفيتية حتى تكونوا جاهزين عندما يحين الوقت". فالطريق لتوحيد جميع الأديان تحت راية الإسلام يمر بأوقات مظلمة وعصيبة كما قال ولكنّ المستقبل زاهر منير. واقتبس من غلام أحمد ما معناه: إنّ بَعْث الإسلام يتطلب منا الكثير من التضحيات، وما هي هذه التضحيات؟ إنها أرواحنا. فعليها تعتمد حياة الإسلام وحياة المسلمين وظهور أفضال الله تعالى علينا. التضحية هي جوهر الإسلام، الإسلام الحقيقي الذي يريد الله تعالى أن يبعثه من جديد.

وإني أُشهد الله تعالى على أن الأحمدية هي الحق وإنها لجوهر الإسلام الحق. إنّ خلاص البشرية يعتمد على قبولها دين السلام، فالإسلام هو الدين الذي يذيب جميع أنواع التفرقة بين البشر على أساس العرق أو اللون أو العقيدة التي تفرق البشر. الإسلام هو الدين الذي يحرر الإنسان من وزر الذنوب ويقوي علاقته بالخالق. الإسلام هو دين بسيط في جوهره ولكنه منظم جدا بحيث إنه يلبي جميع المتطلبات ويقف في وجه تحديات العالم المتغير. لا يسمح الإسلام بأي شكل من أشكال الاضطهاد الاجتماعي أو الاقتصادي أو الديني. ففلسفة الإسلام السياسية لا تفسح مجالا للكذب أو للدبلوماسية الخادعة، ويؤمن الإسلام بالأخلاق الفاضلة والعدل والرفق مع الأعداء والأصدقاء على حد سواء في كل مجال من مجالات الحياة البشرية. وكما يحظر الإسلام الإكراه في نشره، كذلك لا يجيز للديانات الأخرى أن تمارسه أيضا لنشر دعواها. وعليه فإنّ التورط في أعمال الإرهاب حتى تحت ذريعة المقدسات هو أمر يتعارض بالكامل مع تعاليم الإسلام.

الإسلام هو العلاج الناجع لكل أمراض البشرية وعللها اليوم؛ لأنه يعلمنا أنه إن لم يكن بمقدور الإنسان العيش بسلام مع نفسه ومع إخوانه البشر فلن يصل للسلام مع خالقه. وختم طاهر أحمد الخليفة الرابع خطابه: لهذا الإسلام أنا أدعو جميع البشر.

تنبّأ غلام أحمد أنه في وقت ما في المستقبل سيطرد أتباعه من قاديان. وقد حدث هذا بالفعل!

وتنبأ أنه بعد طردهم سيعودون إليها مجددا، وحدث هذا أيضا!

عمليا، لم تترك الأحمدية قاديان أبدا. فإبان احتدام الصراع المسلح في الهند غادر المسلمون إلى باكستان فيما توجه الهندوس إلى الهند. وبقي ٣١٣ أحمديا في قاديان متحصنين فيها. كان هذا في أيام الخليفة الثاني لغلام أحمد، وطلب منهم البقاء في قاديان لحماية مساجدهم ومسقط رأس غلام أحمد. في

بادئ الأمر بقي الأحمديون تحت حماية الجيش الهندي فيما يشبه الحصار. كان من الممكن دخول الطعام والمال ولكنّ مصالحهم ومدارسهم التي سيطرت عليها السلطات توقفت تقريبا عن العمل فيما خلا أعمال بسيطة معدودة. وتدريجيا مع مرور الوقت تحسنت الأوضاع وقللت السلطات عدد الجنود الذين يحرسونهم إلى أن هدأت الأحوال تماما وسُحب الجنود من قاديان نهائيا. بدأ بعض الناس بالعمل في بلدة بطالا القريبة ثم توجهوا لاحقا إلى أمرتسار السيخية. ومن الطبيعي بمرور الوقت أن يزيد عدد الأحمديين.

يروي كل من السيخ والهندوس ذكريات طيبة عن الأوقات التي كان فيها الأحمديون غالبية في قاديان وكيف كانت واحة للأمن والتعليم والازدهار. دلف إلى قاديان الزوّار من كل أنحاء العالم والهند ومن جميع الأعمار، وكذلك الطلاب قاصدين المدرستين وكلية الدراسات الدينية.

عـــاد الأحمديون معززين إلى قاديان في كانون أول/ديسمبر ١٩٩١!

كان أول اجتماع لهم قبل مائة عام في قاديان استقبل فيه غلام أحمد ٧٥ ضيفا، ثم زاد العدد في السنة السابقة لتقسيم الهند وباكستان ليصل إلى ثلاثين ألف شخص حضروا الاجتماع السنوي. ووصل العدد في بلدة ربوة في باكستان في آخر اجتماع لهم قبل منعهم من قبل السلطات الباكستانية نحو مئتي ألف شخص. أما في جلسة احتفالهم المئوي، كانت هناك بعض القيود على حضورهم. حضر الاجتماع خمسون ألف أحمدي من الهند دون أي عقبة وكذلك الأحمديون الذين كانوا يعيشون في أوروبا وأميركا. إلا إن باكستان سمحت فقط لخمسة آلاف أحمدي بالسفر إلى الهند – حيث قاديان– لحضور المئوية. ولكن الأهم من هذا كله أنّ الخليفة الرابع أي طاهر أحمد قد جاء من منفاه في لندن لتتحقق نبوءة أحمد برجوع الأحمديين إلى قاديان!

في عام ١٩٩٢ أسست أول بعثة أحمدية دعوية إلى بلدان الاتحاد السوفيتي الـمُنْحل. كان الدعاة المبشرون الأحمديون يتحدثون الروسية ولغات أخرى. وبعد الإمبراطورية الروسية، كانت الصين وأميركا الجنوبية وجهتهم التالية.

تنبأ أحمد أن توحيد الأديان تحت راية الإسلام سيستغرق ثلاثة قرون.

في القرن الأول على تأسيس الجماعة انتشرت في مائة وخمسين بلدا في العالم!

الملحق الأول

النقوش التي على العباءة المقدسة لغورو بابا نانك

الرقــبة: بسم الله الرحمن الرحيم —لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله (الشهادتان)

الكم الأيمن: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾ (آل عمران ٢٠)
﴿وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾ (التوبة ٣٢)
﴿لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ﴾ (الواقعة ٨٠)

الكم الأيسر: لا إله إلا الله محمد رسول الله (الشهادتان)

المقدمة اليمنى: ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ﴾ (البقرة ٢٥٦– آية الكرسي)

﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ * وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا * فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا﴾ (النصر)

المقدمة اليسرى: أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدا عبده ورسوله (الشهادتان)

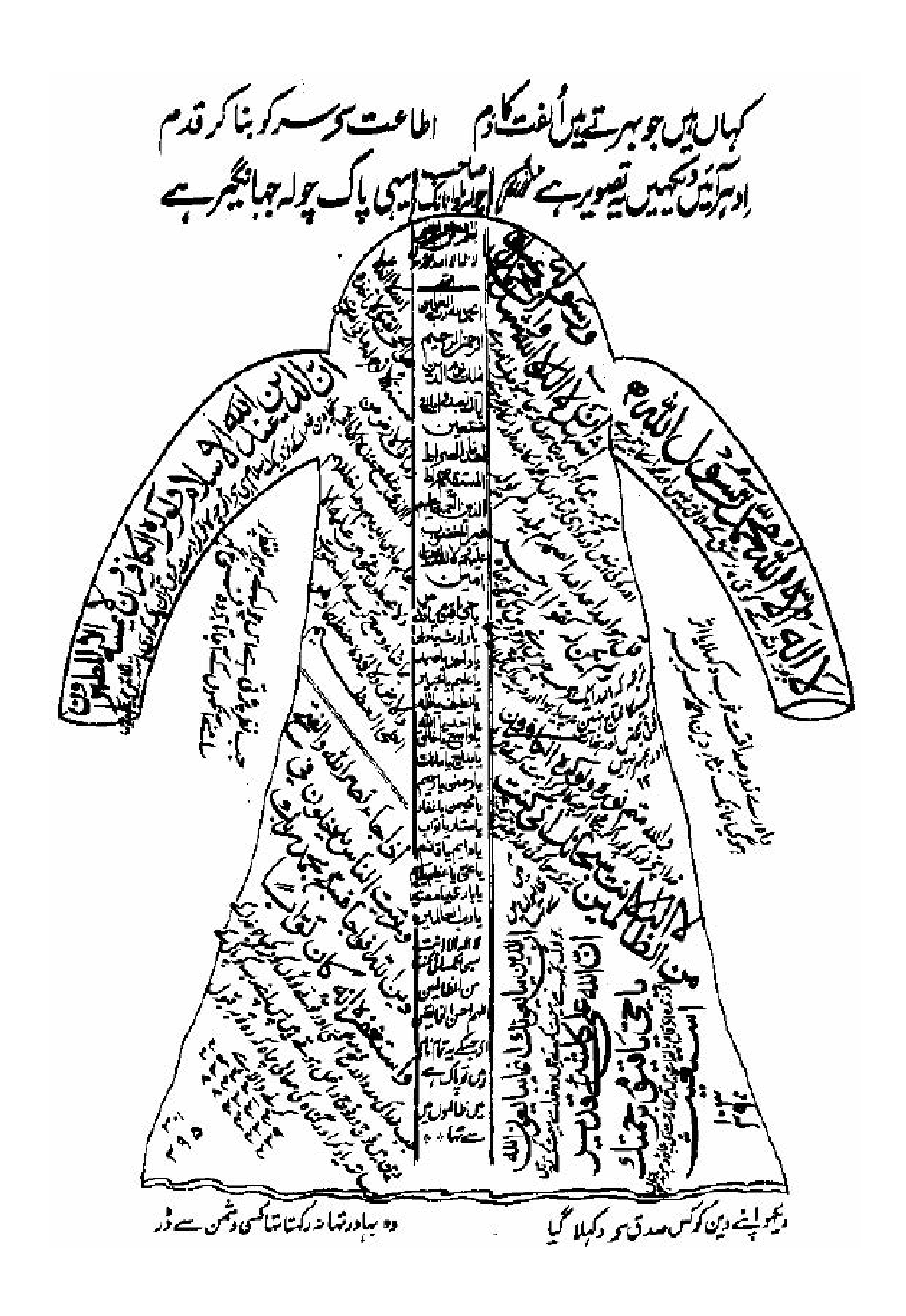
﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ * اللَّهُ الصَّمَدُ * لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ * وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ (الإخلاص)
﴿وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾ (الصف ٩)
﴿لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ (الأنبياء ٨٨)

﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ﴾ (الفتح ١١)
﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (البقرة ٢١)
يا حيٌّ يا قيّوم برحمتك أستغيث

المقدمة الوسطى:

﴿بِسْمِ اللَّه الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ * الْحَمْدُ للَّه رَبِّ الْعَالَمِينَ * الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ * مَالك يَوْمِ الدِّينِ * إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ * اهْدنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقيمَ * صرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوب عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾ آمين.
يا حي يا قيوم يا قدوس يا وارث يا ولي يا واحد يا صمد يا عليم يا خبير يا لطيف يا طه يا أحد يا الله يا واسع يا خالق يا بديع يا مالك يا رحمن يا رحيم يا مهيمن يا غفار يا ستار يا تواب يا دائم يا قائم يا علي يا عظيم يا كريم يا باري يا مصور يا رب العالمين.
لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ
اللهم أحسن الخالقين

صورة العباءة المقدسة لبابا نانك:


کہاں ہیں جو بھرتے ہیں اُلفت کا دم
اطاعت کی سر کو بنا کر قدم
ادھر آئیں دیکھیں یہ تصویر ہے
اسی پاک چولہ جہانگیر ہے
دیکھو اپنے دین کو کس صدق سے دکھلا گیا
وہ بہادر تھا نہ رکھتا تھا کسی دشمن سے ڈر

الملحق الثاني

كُتُب مرزا غلام أحمد

كتب مرزا غلام أحمد خمسة وثمانون كتابا تفاوتت بين المصنف الكبير والكتيب، وبينما تمت ترجمة بعض كتبه في حياته مثل "فلسفة تعاليم الإسلام" الذي ترجم على وجه السرعة إلى الإنجليزية، تُرجمت الكتب الأخرى لاحقا مع مرور السنوات.

كما قام غلام أحمد بكتابة عديد من المقالات للصحف وشارك في الكثير من المناظرات الكتابية، فضلا عن نشره مجموعة من الإعلانات. نورد فيما يلي بعض كتبه الهامة:

١. **"البراهين الأحمدية"**: البراهين الأحمدية على حقيّة كتاب الله القرآن والنبوة المحمدية"، نُشر المجلدان الأول والثاني عام ١٨٨٠ ونشر المجلد الثالث ١٨٨٢، ثم الرابع عام ١٨٨٤ أما الخامس فعام ١٩٠٥. تناول غلام أحمد في المجلدين الأول والثاني الحقائق المستمدة من العلوم الدينية، وقدم ثلاثمئة دليل على صدق الإسلام، ودحض الشبهات المثارة ضد الإسلام، وناقش بعض الأديان الأخرى، كما قدم توضيحا للمقصود بكلام الله أي القرآن. بينما بحث المجلد الثالث أحوال المسلمين والحقائق الظاهرة والباطنة في القرآن الكريم. أما المجلد الرابع فعرض مسألة الوحي والنبوءات والآيات وسبيل النجاة. و أكد غلام أحمد في مجلد البراهين الخامس أن الدين الحق الحي ينبغي أن يكون مظهرا لكلام الله وصفاته وأن الآيات الحية هي البينة الدالة على أن الدين حق وحي.

٢. **"بوراني تحريرين"** (الكتابات القديمة): يناقش هذا المصنف نظرية التناسخ، والوحي وعقيدة خلود الأرواح وعدم كونها مخلوقة.

٣. "**سبز اشتهار**"(الإعلان الأخضر): وكان عنوانه الأصلي خطاب مملوء حقيقة، أصدر هذا الإعلان في كانون أول/ديسمبر ١٨٨٨ وعرف لاحقا بالإعلان الأخضر لأنه طُبع على أوراق خضراء. وأورد غلام أحمد فيه مسألة وفاة ابنه البكر من زوجته الثانية، وفي نهايته دعا أتباعه للمرة الأولى إلى عهد البيعة له.

٤. "**فتح الإسلام**": نشر هذا الكتاب عام ١٨٩١ ويحتوي على دعوى مرزا غلام أحمد بأنّه مرسل من الله ليجدد أمر الدين ويفتح قلوب الناس له.

٥. "**توضيح المرام**": وهو الجزء الثاني من فتح الإسلام، يناقش مسألة نزول المسيح، ويطلب غلام أحمد من القارئ تأجيل حكمه حتى قراءة الجزء الثالث وهو "إزالة الأوهام" قراءة متأنية.

٦. "**إزالة الأوهام**": وهو الجزء الثالث من فتح الإسلام، يتحدث فيه غلام أحمد عن كونه البعثة الثانية للمسيح الناصري الذي جاء ليحيي موتى القلوب روحانيا. وتحدث غلام أحمد عن أهمية تبليغ الإسلام إلى أوروبا وأمريكا. كذلك فصّل أحمد شرح كلمة "توفي" الواردة في القرآن بخصوص حياة المسيح الناصري ووفاته.

٧. **مناظرة لدهيانة:** جرت هذه المناظرة بين مرزا غلام أحمد والمولوي محمد حسين البطالوي، بدأت في العشرين من تموز/يوليو ١٨٩١ واستمرت مدة اثني عشرة يوما. وقبل المناظرة، طلب محمد حسين البطالوي من غلام أحمد كتابيا أن يسحب دعواه بكونه المسيح الموعود للأمة فجَرَت المناظرة على هذا الأساس وكان أصل موضوعها الرئيس مسألة وفاة المسيح الناصري.

٨. "**آسماني فيصله**" أي الحكم السماوي، نشر عام ١٨٩٢ وهو دعوة إلى أولئك الذين هاجموا مرزا غلام أحمد لإعادة النظر في موقفهم،

يقول فيه أن الله تعالى وعد بنُصرة المتّقين وأن للمتقين آياتٍ أربع: يتلقون البشارات قبل تحققها، يعطون من أنباء الغيب فيماً يتعلق بالمجريات العالمية، يقبل دعاؤهم، ويُكشف عليهم أسرار المعارف القرآنية الإلهية.

٩. "**نيشانى آسمانى شهاده ملهمين**" أي الآية السماوية، نشر عام ١٨٩٢ وتناول النبوءات المتعلقة بتزول المسيح الموعود وشهادات الناس التي تدعم كلام غلام أحمد.

١٠. "**آينه كمالات إسلام**" مرآة كمالات الإسلام، يتكون الكتاب من جزأين نشر العربي منه عام ١٨٩٢ ثم نشر الأردي عام ١٨٩٣. يعرض الكتاب مزايا الإسلام وكمالاته والوحي والنبوءات التي تعلن مهمة غلام أحمد في اقتلاع الشرور التي اجتاحت العالم.

١١. "**بركات دعاء**"، بركات الدعاء: عارض غلام أحمد بشدة الاعتقاد بأن الدعاء هو نوع من المواساة القلبية التي يشعر بها المرء بعد الصلاة ليس إلا، وفي كتابه هذا أجمل أحمد معايير تفسير القرآن الكريم.

١٢. "**حجة الإسلام**": يقول أحمد فيه أن من بين الدلائل القاطعة على أن الدين حي هي أن الله تعالى يفتح قلوب أتباع هذا الدين لاستشعار عظمة خالقهم يقينا وأنه يوحي لهم ويكلمهم على درجاتهم.

١٣. "**جنغ مقدس**" أي الحرب المقدسة: وهو سجل للمناظرة التي جرت بينه وبين عبد الله آتَم في مقر صغير تابع للقس التنصيري الدكتور هنري مارتن كلارك، وكان ذلك بين ٢٢ أيّار/مايو إلى ٥ حزيران/يونيو ١٨٩٣.

١٤. **نور الحق**: عقب مناظرة غلام أحمد مع عبد الله آتَم قام تنصيري متعصب بكتابة كتاب مسيء يزدري فيه الإسلام بشكل غير لائق

لدرجة أن الصحف المسيحية أدانته بشدة، فكتب أحمد كتابه هذا بينما كان يعاني من التمييز ضده من قبل المسلمين المعادين للحكومة الإنجليزية ومن اتهامات المسيحيين والهندوس له بمعاداة الحكومة..

١٥. **سرّ الخلافة**: نشر بالعربية في تموز/يوليو عام ١٨٩٤ وناقش مسألة الخلافة والخلفاء الذين خلفوا محمدا وناقش كذلك مسألة دعواه بكونه المهدي للمسلمين.

١٦. "**ست بچن**" أي القول الحق: عارض غلام أحمد الهجوم الذي طال شخصية غورو بابا نانك وعباءته المقدسة وبين كيف أن النقوش التي عليها هي في الواقع آيات قرآنية عربية.

١٧. **فلسفة تعاليم الإسلام**: كان هذا الكتاب في الأصل محاضرة ألقيت في مؤتمر الأديان الذي عقد في لاهور، ثم بات هذا الكتاب أكثر كتب غلام أحمد شهرة وترجم إلى عدة لغات وأعيدت طباعته أكثر من مرة.

١٨. "**كتاب البَريّه**" أي البراءة: عرض الكتاب مسألة براءة مرزا غلام أحمد من المكيدة التي دبرها د. هنري مارتن كلارك لسجن غلام أحمد بتهمة التآمر للقتل.

١٩. **أيّام الصلح**: نشر غلام أحمد تحذيرات قوية بخصوص داء الطاعون وكيف أن الدعاء واجب على المسلمين، وعرض أيضا المعايير المختلفة التي ينبغي مطابقتها لبيان الحقيقة ولتبين صدق دعواه بكونه المسيح الموعود.

٢٠. **المسيح الناصري في الهند**: يفصّل أحمد بإسهاب كبير الدلائل على أن المسيح الناصري قد أُنزل حيا عن الصليب وبعد أن شفيت جروحه والتأمت ترك فلسطين متوجها للهند.

٢١. **ترياق القلوب**: للنبي محمد اسمان؛ محمد وأحمد. ومحمد هو مظهر الجلال والقوة أما أحمد فهو مظهر الجمال والرفق. ويقول أحمد أن عصره هو تجلٍّ للصفة الجمالية، وفيه يصف أتباعه بالجماعة الأحمدية.

٢٢. **الخطبة الإلهامية**: أُخبر أحمد في وحي أنّه سيلقي خطبة بالعربية يوم عيد الأضحى علما أنّ معرفته بالعربية كانت بسيطة، وقد حدث هذا في يوم الأضحى الموافق ١١ نيسان/أبريل ١٨٩٠. وقام أتباعه بكتابة الخطبة التي ألقاها ارتجالا.

٢٣. **لُجّة النور**: كتب بالعربية وتُرجم إلى الفارسية، يبين فيه أن ظروف الوقت تدعو وجود مصلح ومجدد وأنه هو من بعثه الله لذلك.

٢٤. **إعجاز المسيح**: هو تفسير لسورة الفاتحة بالعربية قام أحمد بكتابته متحديا أن يأتي أحدٌ بمثله، وقد قام مولوي للتحدي ولكنه مات قبل أن ينجز عمله. ختم أحمد كتابه بعبارة لعنة الله على الكاذب.

٢٥. "**إيك غلطي كا إزاله**" إزالة خطأ: كُتب بغرض إزالة أي شك حول المهمة التي بعثه الله بها وأورد كثيرا من الوحي الذي يتضمن كلمات نبي ورسول بحقه مئات المرات.

٢٦. **سفينة نوح**: في هذا الكتاب وحي حول حفاظة أتباع أحمد من وباء الطاعون ودعا أتباعه للحاق بركب سفينته أي سفينة نوح.

٢٧. **تذكرة الشهادتين**: وفيه شهادتا كل من عبد الرحمن وعبد اللطيف في أفغانستان.

٢٨. **الإسلام والأديان الأخرى في البلاد**: وهذه محاضرة قدمها غلام أحمد في مدينة لاهور في كانون أول ١٩٠٤. يقول أحمد أن الدين شِقّان: العقائد والممارسات ويفصل قوله. كما قدم دعواه بكونه المَسيح الموعود وشفع بالأدلة.

٢٩. **الوصية:** كتبت ونشرت في كانون الأول ١٩٠٥، وقال فيها أنه تلقى وحيا بدنو أجله. ويتحدث عن بناء مقبرة أهل الجنة التي سيدفن فيها هو وثلة من أصحابه الأتقياء ويدعو أتباعه للالتزام بتعاليمه.

٣٠. **حقيقة الوحي:** طبع الكتاب في أيّار/مايو ١٩٠٧ وفصّل غلام أحمد مسألة الوحي وكيفية معرفة الوحي الصادق.

